الديانات القديمة

حكمة مصر الخفية

تعد الحضارة المصرية أقدم حضارة من الحضارات المعروفة حتى يومنا هذا. فقد قامت هذه الحضارة بصفتها كذلك منذ الألف العاشرة قبل الميلاد على أقل تقدير. وكان أفلاطون الذي عاش في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد قد رأى أن حكمة كهنة مصر تستمد أصولها من ديانة أطلس. والمعطيات التي توافرت عن الكارثة الكونية، التي هلكت فيها حضارة أطلس العظيمة، عُرضت في كتاب: «ثقوب الأوزون وهلاك البشرية؟» وتحدثت عن هذا أيضاً التعاليم السرية التي عرفتها أوروبا في القرون الوسطى. فقد وصِف كهنة مصر فيها بأنهم حافظو حكمة سكان أطلس. ورأى هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) أن المصريين «كانوا أول من بنى مذابح، وتماثيل، ومعابد».

لقد جاء المصريون إلى وادي النيل الخصيب من أعماق الصحارى، بعد أن بات الطقس هناك شديد الجفاف، وأخذ التصحر يزحف على الحياة فيها. وقبل ذلك لم يكن وادي النيل منطقة صالحة يعيش الإنسان فيها، لأن طقسها كان شديد الرطوبة وغير صحي. ويدعو المتخصصون الشعوب التي جاءت إلى وادي النيل باسم واحد، هو الحاميون، وهو الاسم الجمعي لكل قبائل العرق الأبيض من سكان شمال - شرقي أفريقيا الأصليين. لكن أسلاف الساميين جاؤوا أيضاً إلى منطقة وادي النيل، وتخالطوا هنا ليشكلوا شعباً واحداً، أخذ يتحدث فيما بعد لغة واحدة، هي اللغة الحامية السامية[1]. وفي أقصى جنوبي مصر التقت القبائل التي جاءت من الصحراء بقبائل السكان المحليين الزنوج، وتخالطت معها، لكن الحاميين حافظوا مع ذلك

١- من الواضح أن المؤلفين يأخذان في كتابهما هذا بالخرافة التوراتية التي تقسم سكان «الأرض» إلى ساميين وحاميين، وهي رؤية بات من الواضح أنها لا تتوافق مع المعطيات العلمية التي وفرها لنا علم الآثار، وعلم السلالات البشرية، وسواهما من العلوم الأخرى ذات الصلة - المترجم.

على لغتهم ومظهرهم الخارجي[1]. فهؤلاء كانوا أناساً ذوي بنية متينة، وبشرة سمراء، وشعر أسود مسترسل، وعينين لوزيتين. وعلى أي حال، فإن مصادر الألف السادسة قبل الميلاد وصفتهم على هذا النحو. ومن المعروف أن إقليم الصحراء يقع إلى الغرب من مصر. وثمَّة إشارات تدل على أن أسلاف المصريين قد جاؤوا من هناك تحديداً. ولكن ثمَّة مصادر أخرى أكثر قدماً تذكر أن أسلاف المصريين قد جاؤوا من بلاد شمالية ما، هي بلاد الهيبوبوريين[2] الواقعة في مملكة الصقيع الأزلي والظلام الذي يدوم نصف العام. وما يثير الفضول أن هذه «الأرض السعيدة» تُذكر عند كثير من الشعوب بصفتها موطنها الأول، بمن في ذلك الشعوب الآرية التي استوطنت الهند.

ونحن لا نعرف إلا قليلاً جداً عن تاريخ مصر القديم وديانتها الأولى. وهذا الذي نعرفه قليل جداً لرسم صورة غير متناقضة عن حياة هذا الشعب القديم ومعتقداته. وكان المؤرخون قد حاولوا رسم مثل هذه الصورة لتاريخ مصر وديانتها ابتداءً من أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد. وعندئذٍ، كان قد بدأ وفق مصطلحاتهم عصر المملكة القديمة. ونحن بين يدينا ما يكفي من المعطيات لكي نشكّل تصوراً عن ديانة مصر وآلهتها في تلك الأزمنة. ففي الزمن المذكور كانت قد تشكلت من الإمارات الصغيرة المنتشرة على امتداد وادي النيل، مملكتان قويتان هما: مصر العليا ومصر السفلى. وعند أوائل الألف الثالثة تقريباً، كانت هاتان المملكتان قد اندغمتا في دولة مركزية واحدة. ومنذ تلك اللحظة يمكننا أن نتحدث عن ديانة مصرية موحدة. وعرفت المملكة القديمة عصراً من الازدهار أعقبه عصر انهيار. وقد دعا المؤرخون عصر الانهيار ذاك (أواخر الألف الثالثة وأوائل الألف الثانية قبل الميلاد) بالمملكة الوسطى. ثمَّ تلا عصر الانهيار هذا عصر ازدهار آخر، هو عصر المملكة الحديثة، الذي امتد حتى أواسط الألف الأولى قبل الميلاد.

وعلى امتداد هذا التاريخ الطويل كله، هُزمت مصر أكثر من مرة أمام أعدائها. ففي القرن الرابع قبل الميلاد، باتت جزءاً من إمبراطورية الاسكندر المقدوني، ثمَّ احتلها الرومان في القرن الأول قبل الميلاد. بيد أن هذا لم يفض إلى تغير جوهري في بنية الديانة المصرية. ولم تتغير ديانة مصر، أو بتعبير أدق لم تهلك ديانة مصر إلا مع انتشار المسيحية في شتى أرجاء إقليم البحر المتوسط وجواره. فمنذ تلك اللحظة التاريخية، لم تعد الديانة المصرية ضابط إيقاع حياة المجتمع المصري. ولكن هذا لا يعني بحال من الأحوال أن الديانة المصرية قد

١- لا يوضح لنا المؤلفان كيف تمكن الحاميون من الحفاظ على نقائهم العرقي بعد أن تزاوجوا مع العرق الزنجي - المترجم.

٢- من الكلمة الإغريقية hyperboreos= القاطن في أقصى الشمال، وراء بلاد بورياس إله الريح الشمالية. والهيبربوريون هم حسب معتقدات الإغريق من الشعوب الخرافية - المترجم.

اندثرت من غير أثر. فثمَّة تيارات صوفية مختلفة في اليهودية والمسيحية تعج بكثير من الرموز والشخصيات الميثولوجية المصرية. فمدرسة القبالة (تعاليم صوفية يهودية) تدرس الرمزية المصرية دراسة دقيقة، وكذلك تفعل شعائر الماسونية، وخرافات الأخويات الروحية الأوروبية القرسطوية.

وكما لدى كثير من الشعوب الأخرى، كانت الشمس هي الإله الرئيس عند المصريين. فقد عبد المصريون الإله المتوهج رع في أزمنة الممالك المصرية الثلاث. لقد كان رع إلهاً مصرياً مشتركاً. وإلى جانب الإله رع كان ثمَّة عند المصريين آلهة أخرى، لكنها كانت تؤدي أدواراً تابعة؛ بل يمكننا القول إن أولئك الآلهة لم يكونوا سوى أقانيم للإله رع. وانطلاقاً من هذا الواقع شرَّع الفرعون المصري امينحوتيب الرابع في أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، عبادة الإله الواحد، وصار هذا يدعى باسم آتون (قرص الشمس). وتبعاً لذلك غيّر الفرعون اسمه الشخصي، وبات يدعى أخناتون (النافع لآتون). وقد تزامن هذا الحدث مع دعوة إبراهيم اليهود لعبادة إله واحد.

لقد كانت مدينة هليوبوليس (مدينة الشمس) هي مدينة الإله رع. ومن الواضح أن هذه التسمية إغريقية، أما الاسم المصري للمدينة فهو بعلبك[1]. لقد بنوا للإله آتون عاصمة جديدة هي أخت آتون (أفق آتون). ولكن، كما كان يحصل غالباً في تاريخ مختلف الشعوب، بعد موت الفرعون المصلح عاد كل شيء إلى ما كان عليه، فقد استمرت مصر تعبد آلهتها السابقة، إذ كانت تمثل الشمس أيضاً.

لقد كانت الديانة المصرية تعرف كثيراً من الآلهة، مع أن أعداد آلهتها أقل من أعداد آلهة الهندوسية. وكان عدد من هؤلاء الآلهة يشبه البشر؛ ومن هؤلاء الآلهة الإله الخالق بتاح، والإله آمين، وزوجته موت، وابنهما خونسو، وكذلك إيزيس وأوزيريس، والإلهة حاثور إلهة الحب والفرح. وإضافة إلى الآلهة الذين يشبهون البشر، كان عند المصريين غير قليل من الآلهة الخليط. وقد صوروا هؤلاء بجسد بشري ورأس حيوان من الحيوانات. ونحن ذكرنا الإله الخالق بتاح قبل قليل. لقد كان المظهر الخارجي لهذا الإله مظهراً بشرياً، لكن زوجته المقاتلة سخمت كانت لها رأس لبوة. وكان لإله الحكمة توت رأس الطائر أبي منجل، أما إله النور حورس فقد كان له رأس صقر، وكان لإله الماء سيبيك

١- من المعروف أن المصريين لم يعبدوا أي إله باسم بعل، ولذلك لا يمكن أن تكون هذه التسمية مصرية، بل هي تسمية كنعانية معناها بعل البقاع. انظر معجم الحضارات السامية. هنري س. عبود. جروس برس. طرابلس لبنان 1991، ص 232 - المترجم.

رأس حوت، وكان لإله الخصب خنوم رأس كبش. وتجسد الإله الرئيس رع بدوره غير مرة: العجوز آتوم، والمومياء، والجعل. ولكي يهزم الثعبان أباغ[1]، تحول الإله رع مرة إلى هر أمغر اللون.

لقد عبد المصريون شتى الحيوانات. ولم يتجل هذا في تصويرهم للآلهة برؤوس حيوانات وحسب، إنما تجلى أيضاً في أنه كان للآلهة أنفسهم حيوانات مقدسة. وقد دعا العلماء هذه الديانة بالديانة الزوولاترية، أي «السجود للحيوانات». فقد بجل المصريون الأبقار، والهررة، والخرفان، والثيران، وأبا منجل، والطاووس، والثعابين، والأسماك، و...، وتحول بعضها إلى رمز وطني. وثمَّة حيوانات حنطها المصريون كما كانوا يحنطون فراعنتهم. وكانت عقوبة قتل حيوان الإله المقدس، هي الموت.

إن الدين وتصور بنية العالم المحيط أمران متلازمان تلازماً وثيقاً. فكيف تصور المصريون القدماء هذا العالم؟ لقد عرفوا أكثر من تصور (مدرسة) واحد. فحسب مدرسة التعاليم التي ارتبطت بمدينة هليوبوليس: لم يكن في البدء سوى المحيط الخرب نون، لكنه كان يحتوي على إمكانية نشوء كل ما ظهر في هذا العالم بعد ذلك. ثمَّ جرى خلق العالم وفق التسلسل التالي: أولاً ارتفعت من المحيط البدئي الهضبة البدئية. وكانت تلك الهضبة أو الجبل، «صخرة بين بين» المشعة. ثمَّ ظهرت البيضة الكونية (كما في الحوليات الصينية)، التي ولد منها العالم وطائر الشمس فينيكس. وقد أوّل المتخصصون فينيكس هذا على أنه طاقة إله الشمس رع الخلاقة. لكن تجلي إله الشمس لا يقتصر على هذه الطاقة. فهو يتجلى أيضاً في شمس الصباح الصاعدة، التي يُرمز إليها بالجعل. وهو نفسه يتجلى في صورة الشمس الغاربة: آتوم. ويعد العجوز المرهق رمز هذا الأقنوم من أقانيم إله الشمس. ويؤول آتوم على أنه كل شيء ولا شيء، إله الأزل. وينبغي أن نفهم هذا على النحو الآتي: فآتوم كان موجوداً منذ البدء، عندما لم يكن ثمَّة شيء سوى الخراب. ولكن سوف يبقى موجوداً كذلك في محيط الخراب نفسه بعد أن يندثر كل شيء، حينما يصل العالم إلى نهاية طريقه. لكن آتوم يحمل في ذاته كل ما هو موجود. إنه الأزل أيضاً.

وحسب هذه التعاليم: إن إله الأزل آتوم قد خرج من المحيط البدئي نون. وقد صور المصريون آتوم هذا في صورة ثعبان مجنح. وخلق آتوم الإلهين شو وتفنوت، واللذين أنجبا الإلهين غب ونوت. وبعدئذٍ رفع إله الهواء شو إلهة السماء نوت على كتفيه. ففصل بذلك السماء عن الأرض (غب إله الأرض). وأنجب

١- لعله الثعبان آبوب. - المترجم..

الزوجان غب ونوت جيلاً جديداً من الآلهة: أوزيريس وإيزيس، ونفطيس وست. وهكذا ظهر آلهة مصر التسعة الرئيسون. وقد عبد هؤلاء في مصر كلها. لكن الإله رع أزاح فيما بعد الإله آتوم، وتزعم تاسوعة الآلهة هذه.

ووفق تعاليم هرمابوليس: إن ثمانية آلهة ظهروا في المحيط البدئي دفعة واحدة. وقد ظهر هؤلاء زوجاً زوجاً، زوج وزوجة (إله وإلهة). وعكست أسماء هؤلاء الآلهة مختلف ماهيات المحيط البدئي: نون ونينيت، أي البيئة المائية؛ وكوك وكوكيت، أي الظلام؛ وخوخ وخوخيت، أي اللانهاية في الفراغ؛ وآمون وآمونيت، أي الخفي المكنون.

كما عرفت عاصمة مصر القديمة (ممفيس) مدرسة خاصة بها كانت لها تصوراتها عن نشوء الكون. وحسب هذه الرؤى: إن الإله بتاح كان الإله الرئيس. وهو الذي خلق الآلهة كلهم، كما خلق كل ما هو كائن الآن. وقد فعل بتاح ذلك بالكلمة، بالإرادة الخلاقة. وكانت هذه الإرادة قد ولدت في قلبه. وليس الآلهة الذين صنعهم بتاح سوى صفاته، ماهياته، وخاصياته. فكلمة بتاح الخلاقة هي الإله سيا، والقوة السحرية لكلمته هي الإله هيك، و... ومن الملائم أن نتذكر في هذا السياق بادئة إنجيل يوحنا، إذ قيل: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ».[1]

لقد عدَّ فراعنة مصر أنفسهم من جنس الآلهة. وكان تأليه الفراعنة قد بدأ منذ أن تشكلت الدولة المركزية في مصر.

إن الديانات كلها، بما فيها الديانة المسيحية، لها وجهان: وجه ظاهري معروف، ووجه باطني مكنون. ولا تعطى التعاليم الباطنية إلا عن طريق الرواية الشفهية، ومعرفتها مقتصرة على المختارين المكرسين فقط. وفي مصر أيضاً كان ثمَّة من هم مكرسون في أسرار الدين والإيمان. ومن غير هذه الأسرار (المعارف)، كان بلوغ عمق الأسرار الإلهية أمراً مستحيلاً. وكان التكريس يجري وفق طقس صارم. وقد أطلق الإغريق على هذا الطقس اسم ميستيريا، أي الأسرار المكنونة. ويعتقد أن الميستيريات المصرية هي أقدم الميستيريات. وفي اليونان ذاتها نشأت هذه الميستيريات فوق ميستيريات أخرى أكثر قدماً كانت قد ظهرت منذ آلاف السنين.

١- العهد الجديد، إنجيل يوحنا: 1: 1.

أما فيما يتعلق بالميستيريات المصرية، فإنها ترتبط بالإلهين الزوجين أوزيريس وإيزيس. وكان طقس التكريس يقتضي هنا أن يعبر المكرس شدة الموت. وقد نجح العلماء في أيامنا هذه في الكشف عن مغزى ذلك الطقس. وهو يكمن في الآتي: يرتبط وعينا مع وعينا الباطني بقناة تدعى قناة المعلومات، وهذه الأخيرة تغلقها سدادة. ولذلك فإن الإنسان العادي الذي تكون هذه السدادة محكمة الإغلاق عنده، لا يستطيع أن يتلقى أي معلومات من الوعي الباطني. ويختزن الوعي الباطني لدى كل إنسان معلومات عن كل ما هو موجود في هذا العالم، وعما كان موجوداً، وعما سوف يكون، وعما هو كائن. لكن هذه المعلومات ممنوعة عادة على الإنسان العادي، فهي بالنسبة إليه محبوسة خلف «سبعة أبواب». ولكن إذا ما عاش الإنسان تجربة شدة الموت، وحالة الرعب التي تنتجها، فإن السدادة تبدأ بتحرير المعبر الواصل بين الوعي الباطني والوعي، فينفتح أمام الإنسان عالم النور الحقيقي، ويغدو خلافاً لنا، بصيراً: يرى أكثر ويفهم أكثر. ويمكن القول: إن الإنسان ينظر في أثناء طقس التكريس إلى ما وراء الرؤية، إلى ذلك العالم الذي لا يدركه البشر العاديون. والمسائل السابقة كلها عُولجت في كتاب «الإله، الروح، الخلود»، وكتاب «أسرار العقل الكوني والتنبؤ». وكان يجب أن يشارك في الطقس الإله أوزيريس والإلهة إيزيس اللذان عبرا تجربة شدة الموت. والحقيقة أن أوزيريس لم يعبر شدة الموت وحسب، بل عبر تجربة الموت كاملة. فقد قطّع ست أوزيريس إلى أربع عشرة قطعة، نثرها في مختلف أنحاء مصر. لكن إيزيس (زوجة أوزيريس) المخلصة نجحت في العثور على أشلاء زوجها كلها، ثمَّ جمَّعتها بالترتيب، وغسلت جسد أوزيريس بدموعها. لقد اتخذت إيزيس صورة حمامة النيل الجميلة، وأقامت تندب زوجها الميت وتبكيه. وفي وضعه ذاك، أقام أوزيريس اتحاداً زوجياً مع إيزيس، فأنجبا ابنهما حورس الذي هزم ست. وعلى هذا النحو انتهى كل شيء على أحسن حال، وتقلصت الحلقة: لقد عبر الإله أوزيريس دورة الموت، وعاد إلى الحياة من جديد. وكان على كل مكرّس أن يقطع هذه الطريق لو رمزياً. وما عرضناه نحن هنا كنا قد أخذناه عن الكاتب والمؤرخ الإغريقي القديم بلوتارخ في مؤلفه: «إيزيس وأوزيريس» (القرون 1-2م). لكن بلوتارخ لم يجرؤ على وصف تفاصيل طقس التكريس. فقد كانت تلك معلومات مقدسة باطنية، ولم يكن بمقدور بلوتارخ أن ينتهك حرمة تحريمها. كما ترك لنا هيرودوت بدوره وصفاً للميستيريات المصرية، لكنه وصف مختزل إلى درجة أحجم عندها أبو التاريخ حتى عن ذكر اسم الإله، الذي كانت الميستيريا مكرسة له. وهكذا تكون معظم تفاصيل الطقس قد ضاعت إلى الأبد. والمعروف منه قليل من حيث الجوهر. فمن المعتقد أن جزءاً مهماً من إجراءات التكريس كان يجري في المعبد. وكان يجب أن يؤدي الإله أوزيريس الدور الرئيس في الميستيريا. وكانوا يجبلونه

ويشكلونه من تربة خصبة. ثمَّ يروون التمثال الطيني. وفي وقت معين كانت تنمو على التمثال نباتات خضراء. وكان ذلك يرمز إلى انتصار الحياة على الموت (من جسد أوزيريس الميت تنبت الحياة).

لقد كانت الميستيريا تمتد لأكثر من يوم. وكان عوم أوزيريس واحداً من مقاطع طقس التكريس. وكان هذا يجري في فصل فيضان النيل، في تشرين أول - تشرين الثاني. وفي ليلة محددة بدقة، يبلغ فيها الفيضان ذروته، كانوا يوارون تمثال أوزيريس الطيني القبر. وكانت تشارك في هذه العملية أربع وثلاثون سفينة، تبحر في البحيرة المقدسة، وتضيؤها ثلاثمئة وخمسة وستون قنديلاً (ما يساوي عدد أيام السنة). وفي اليوم التالي كانوا يؤدون مشهد نحيب إيزيس وأختها نفطيس على جثمان أوزيريس. وعند انبلاج فجر اليوم التالي، كان يبدأ ذلك الطور من الاحتفال الذي كان ينبغي أن يشارك فيه المكرسون الجدد ومعهم المواطنين الآخرين. فيخرجون بتمثال أوزيريس من المعبد على وقع إنشاد الأناشيد. وكان يلف الموكب دخان احتراق المرّ والبخور. لقد كان الموكب يدور حول المعبد، ثمَّ يتجه بعد ذلك إلى قبر أوزيريس. ويعود المشاركون فيه إلى المعبد جذلين.

وفي القرن الميلادي الثاني أعطى الكاتب الإغريقي أبوليوس وصفاً تفصيلياً لتلك المواكب، في مؤلفه «التحولات». لقد ساق أبوليوس كثيراً من التفاصيل، بيد أن السؤال الأهم بالنسبة لنا، هو أين يكمن المغزى العميق لتلك المواكب؟ فالواضح حتى الآن أمر واحد: هو أن من كان يشارك فيها كان يضمن لنفسه إقامة طيبة في العالم الآخر. كما كان يمكنه أن يعول على القيامة من الموت. لكن ما قاله أبوليوس في هذا السياق، بلسان بطله لوسيوس، لم يكن واضحاً: «لقد بلغت حدود الموت، وعبرت عتبة بروزور بينا (إلهة العالم السفلي في الميثولوجيا الرومانية)، وعدت أدراجي عابراً البيئات كلها. وفي منتصف الليل رأيت الشمس ساطعة، ومثلت في حضرة آلهة الحضيض وآلهة السماء، وسجدت لهم على مقربة». فالجوهر يكمن هنا في بلوغ حالة مميّزة من الوعي يكون الإنسان مؤهلاً فيها لتلقي المعلومات من وعيه الباطني، وهي حالة القدرة على التنبؤ، والولوج إلى جوهر الأشياء. وهذا ما يفعله الشامانات في واقع الأمر. فهؤلاء يوصلون أنفسهم إلى حالة مميّزة من الإدراك، فيتجولون في العالم الآخر ثمَّ يعودون أدراجهم من هناك. ومن البديهي القول: إنه ليس بمقدور أحد أن يفعل هذا. فإجراءات التكريس في عالم الشامانية

تقتضي تأدية حركات توصل الشخص المرشح للتكريس إلى حالة الشدة. ونتيجة لذلك يكتسب هذا عندما يصل الحد الفاصل بين الحياة والموت، سمات، وماهيات، وخاصيات جديدة. فهو يكتسب القدرة على رؤية المستقبل، ورؤية ما لا يُرى (يرى الشمس في منتصف الليل)، و...

إن الحكمة التي تضمنها «كتاب الموتى» المصري، كانت معدة للفراعنة فقط. وكان ذلك في زمن المملكة القديمة. لكن الحال تغيرت بعد مضي ألف عام، فقد باتت الحكمة تدرّس لكثيرين. ومن كان ينجح بامتلاك تلك المعارف المكنونة، كان بإمكانه أن يعوّل على البعث في الحياة الأخرى، وشغل مكانة مرموقة هناك. وقد وصفت مراحل الطقس جزئياً. فالإله أوزيريس كان يهلك ثمَّ يعود إلى الحياة من جديد. وهذا ما كان ينبغي على كل مشارك في الطقس أن يفعله. لقد كان عليه أن يندغم بقوة إرادته بالإله أوزيريس، ويعبُر معه ذهنياً وشعورياً هذه الدورة كاملة: من الحياة إلى الموت، ثمَّ من الموت إلى الحياة. لكن الأمر لم يكن مقتصراً على هذا فقط. فلم يكن على المشارك في الميستيريا أن يندغم بأوزيريس الذي يموت ثمَّ يحيا وحسب، بل كان عليه أن يندغم في الوقت نفسه بإله الشمس رع - آتوم (أو آمون رع)، ويصعد معه في مركبه الليلي، ويغوص في مملكة الأموات والحضيض.

واحتوى «كتاب الموتى» أيضاً على وصف تفصيلي للعالم الآخر. ويقوم المنطق هنا في أن وصول الحي إلى هناك، يمكّنه من أن يستوعب معايير السلوك، التي تسمح له بأن يعوّل على القيامة من بين الأموات، بعد أن يموت فعلاً، وينتقل إلى مملكة الأموات. وكل تفصيل له أهميته هناك: إلى أين يمضي؟ وكيف يجيب عن الأسئلة؟ وكيف يقف في وجه المغريات؟ وكيف يواجه الإغواء، و...؟ ومن المفيد أن نذكر في هذا السياق أنه ثمَّة كتاب آخر يدعى كتاب الموتى، هو «كتاب الموتى» التيبيتي، الذي يتحدث بدوره عن الأشياء نفسها تقريباً.

لقد وصف «كتاب الموتى» العالم الآخر والترحال فيه وصفاً تفصيلياً. فوصفت فيه المراحل الاثنتي عشرة التي تتألف منها طريق مركب الليل الذي يبحر فيه إله الشمس. وهذه الطريق عينها يقطعها كل مشارك في الميستيريا، لأنه كان قد اندغم بإله الشمس. وحسب ما ورد في كتاب الموتى: إن الساعات (المراحل) الثلاث الأولى تمر عادة من غير أي حادثة تذكر. فنهر العالم الآخر هادئ ساكن، وهو هنا نهر النيل، الذي له فرع سماوي وآخر سفلي، وكلاهما منبثق من المحيط الأزلي. وعلى ضفتي هذا النهر تستقبل أرواح الموتى مركب إله الشمس بفرح عظيم. فإله الشمس يضيء مستقر الموتى. لكن هذا النعيم لا يدوم طويلاً. فجريان النهر، بالتالي جريان المركب يندفع منحدراً إلى أعماق الحضيض. وشيئاً فشيئاً تتناقص مياه النهر التي تحمل المركب. بيد أن

الإله في آخر الأمر إله، وتحت تأثير أفعاله السحرية يتابع المركب انسيابه على الرمال. ثمَّ يصل المركب أثناء الساعات (الرمزية) التالية إلى آخر الأعماق، حيث يستقر هناك قدس الأقداس المكنون. وهو عبارة عن مجال مقدس يرتبط «بالصخرة بين بين»، «بالهضبة البدئية». وهنا في قدس الأقداس تتجدد الطاقة الخلاقة لإله الشمس. وفي الساعة الرمزية السادسة من هذه الرحلة إلى العالم الآخر، يتحد إله الشمس رع - آتوم بموميائه في قبر أوزيريس. وهنا على وجه التحديد يتلقى المشارك في طقس التكريس إمكانية الانتصار فيما بعد على أعداء الشمس كلهم. ويعد الثعبان آبوب واحداً من أخطر خصوم إله الشمس. إنه رمز الأزمنة. وعند نهاية رحلته عبر العالم الآخر يمنح المكرس إمكانية القيامة على دائرة الأفق الصباحي في أقنوم حبري، أي الشمس المشرقة. ونحن كنا قد أشرنا إلى أن رمز الشمس المشرقة حبري، هو الجعل. إنه رمز البعث، والتجدد. وقد مثّل هذا الرمز عند الإغريق الطير فينيكس، الذي كان يحرق نفسه لينبعث من الرماد من جديد.

ويصف الكتاب طريق المكرّس التي يقطعها وإله الشمس معاً. لكن الطريق عينها يقطعها كل ميت كذلك. ويرتبط بدرجة إعداده وسلوكه، ما إذا كان سيبعث أم لا عند نهاية الساعة الثانية عشرة من الرحلة عبر العالم الآخر. ونحن كنا قد تحدثنا عن رحلة مماثلة يقوم بها الشامانات إلى العالم الآخر. لكن ديانات أخرى عرفت بدورها طقوس التكريس. فالشعوب كلها تقريباً كانت تقيم طقوس تكريس مؤلفة من ثلاث مراحل. وفي ثقافات إيران، ووادي الرافدين، وأمريكا القديمة، كانت طقوس التكريس تتألف من سبع مراحل. أما في أسرار الشامانية السيبيرية، وشامانية آسيا الوسطى، والسيمياء الباطنية الداوسية في الصين، فقد كانت طقوس التكريس تتألف من تسع مراحل. ويعد طقس التكريس الاثنا عشري، الذي وصفناه هنا، أقدم هذه الطقوس كلها.

ولكن بما أن الحديث يجري عن قيامة الإنسان من الموت، فإنه من المهم أن نبيّن ما الذي يموت، وما الذي يبعث؟ فالمصريون القدماء اعتقدوا أن الإنسان يتألف من ستّ أو حتى من عشر طبقات، أو عشرة أجساد. وحينما يقع الموت الفيزيولوجي، ويموت الجسد الفيزيائي، فإن انسجام مكونات الإنسان يختل. بيد أن استعادته ممكنة. فهو يعود إلى ما كان عليه في اللحظة التي يتحد فيها إله الشمس بموميائه، وهذا ما تحدثنا عنه قبل قليل. ومكونات الإنسان هي جسده الفيزيائي، وصنوه «الكا»، وروحه «البا»، وقلبه «وتميمة القلب، هي الجعل»، وظله، وإرادته، واسمه، وروحه النوراني، و... وغالباً ما يتكرر ذكر الصنو والروح. وصنو الإنسان غير مرئي. يولد معه ويبقى ظاهراً نقياً طوال حياة الإنسان. وعندما يموت الجسد الفيزيائي، فإنه ينبغي تحنيطه. فللتحنيط أهمية مبدئية في هذا الميدان. ولضمان تأمين ضروريات عيش الصنو، فرضت

التقدمات من المأكولات والمشروبات. ويمكن للصنو أن يخرج من القبر بفضل النصوص السحرية المنقوشة على جدران الضريح. كما يمكن أن تدوّن مثل هذه النصوص على برديات توضع في الناووس، وإذا ما تعرض القبر أو المومياء للأذى، فإن ذلك يتسبب للصنو بالآلام. لكن عقاباً إلهياً ينزل بمن تسبب بذلك الأذى. وليس وجود الصنو مقتصراً على البشر، فللآلهة صنوهم أيضاً، بل ثمَّة من الآلهة من له أكثر من صنو. فلإله رع أربعة عشر صنواً. وللفرعون عدد منهم كذلك، فالفرعون هو في آخر المطاف إله مثلما هو إنسان.

أما الروح فقد صورها المصريون طيراً له رأس بشري. ولا ترتبط الروح بالقبر ارتباطاً قهرياً، كما هي حال الصنو. فهي تستطيع أن تترك وتمضي إلى حيث تشاء. وفي محكمة أوزيريس في العالم الآخر، فإن الروح هي التي تقدم حساب الإنسان عن أعماله التي أتاها في حياته الدنيا. وكان «كتاب الموتى» قد أعطى وصفاً تفصيلياً لمحكمة أوزيريس. ويظهر إجراء محكمة الإله على النحو الآتي: في إحدى كفتي الميزان الإلهي، يوضع قلب الشخص موضوع المحاكمة، ويوضع في الكفة الأخرى تمثال إلهة الحقيقة معات. وعلى هذا النحو توزن الروح. ونتيجة لهذا الإجراء يتحدد الآثمون، الذين يفترسهم كائن متوحش مقيم في مكان المحاكمة. وبذلك يكون قد حلَّ بهم موت أزلي لا قيامة بعده. أما الصالحون فيمضون إلى حقول النعيم يالو، حيث ينعمون فيها بممارسة العمل الزراعي.

ومن المعروف أن موقف المصريين من الموت قد اتسم بالهدوء الشديد. أما الهندوس فإنهم يخشون سوء التقمص، ويفعلون كل ما هو ممكن لكي يوقفوا سلسلة التجسد المتتالي. ولم يضع المصريون لأنفسهم غاية أكثر سمواً. وليس أكثر سمواً وحسب، إنما غاية أكثر عظمة وصوفية. وقد تلخصت في الانتصار على سلطة الزمن، والعبور من الشيخوخة إلى الطفولة، وإعادة إحياء طاقتهم الخلاقة تحت جناحي الطير فينيكس. والغرض النهائي لهذه الدورة، هو القيامة إلى الحياة الأبدية على صفحة السماء التي تضيؤها شمس الصباح! ولا وجود هنا عند المصريين لسلسلة الآلام اللامتناهية التي كبّل الهندوس أنفسهم بها. فكل شيء هنا جميل رائع ونبيل، وكل شيء يكتسب أجنحة، ويمنح طاقة الروح، ويضاعف مدى التصميم والعزم وقوة الإرادة. فلم يعرض المصريون أنفسهم لأفكار الآلام، التي يجب أن يعانوها على امتداد آلاف الحيوات القادمة. لقد عشق المصريون الحياة عشقاً، ولذلك ضنَّوا بها، ولم يبددوها عبثاً. بل أعدوا أنفسهم جذلين، للحظة الإبحار الغامض في أعماق الأبدية. ولم تمنعهم إقامة طقس التكريس، وبناء الأضرحة والمعابد الجنائزية، عن الاستمتاع بالحياة. لقد كانوا على يقين راسخ بأنهم سوف يبعثون إلى الحياة الأبدية، وممارسة العمل الزراعي النبيل فيها. إنه لأمر رائع حقاً! فقد كتب مصري في الألف الثالثة قبل الميلاد يقول: «الموت الآن

بالنسبة لي كعطر فواح، كرحلة تحت الشراع عندما تهب ريح مواتية. الموت بالنسبة لي كعبير اللوتوس، كالنزول على شاطئ بلاد النعيم».

لقد كانت طقوس الخدمة الإلهية في مصر منسجمة انسجاماً كبيراً مع الظواهر الطبيعية، التي كانت حياة الناس ترتبط بها. وينسحب هذا أول ما ينسحب على فيضان النيل. لقد كان الفكر الديني عند المصريين فكراً راقياً جداً. وكان كهنتهم يقولون: إن الإلهة إيزيس تتعاطف مع الذين يضنيهم القيظ في أعالي النيل. ولذلك فإنها تسكب دموعها المقدسة في مياه النهر العظيم، فيبدأ فيضانه. ففي هذا الأوان تماماً تسطع النجمة إيزيس - سوتيس (الشّعرى) على صفحة السماء لحظة الفجر. «تسطع سوتيس العظيمة في السماء، ويخرج النيل من ضفتيه» ولا يدركوا أهمية الحفاظ في الحياة العملية على الإيمان بغاية سامية، والعثور على مكان للشّعر السامي.

وفيما يتعلق بالشعر، فإن صلوات المصريين مليئة به. وكانت طقوس العبادة تقام في مصر يومياً. وحسب ترجمة ك. بالمونت، فإن صلاة الختام في طقوس العبادة اليومية المصرية تقول:

«ها هي ذي الطهارات. تسابيح اليوم المكنون، الذي صورته الشمس لسيد الكرنك، الذي وجهه الشمس، العظيم في مكانه. الفرعون هنا معك. الحياة، والعالمية، والقوة، والسكينة لملك الجنوب والشمال؛ الفرعون، حاكم الكائنات إلى الأبد.
ها هي التقدمات المعدة، فتقبّلها نقية وصحيحة كلها. يقينية خذها، أيها الإله، الذي أحببت اللبان الفواح».

هذه هي صلاة الفرعون، التي كان يرفعها في معبد الكرنك إلى آمون رع في زمن المملكة الحديثة. وفي التحولات يسوق أبوليوس الصلاة الآتية، التي كانت ترفع إلى الإلهة إيزيس على أنها صلاة - أنشودة:

«أيتها الأقدس، مخلّصة الجنس البشري الأزلية، شفيعة البشر الدائمة، التي تظهرين نفسه حزينة في زمن الرزايا، أمّا رؤوماً. أعمالك الخيّرة، حسناتك لا تتركك يوماً واحداً، ليلة واحدة، بل دقيقة قصيرة. في البحر والبر تحرسين البشر، في زوابع الحياة تبسطين يمينك المنقذة، بها تفكين إبزيم القدر الذي لا يفك، تذللين ضراوة الدهور، وتروضين مجرى الكواكب الشريرة. الآلهة أعلى قليلاً منك، وآلهة ظلال العالم السفلي يسجدون لك؛ أنت تدوّرين قرص العالم، وتشعلين الشمس، وتحكمين المعمورة، وتطئين تارتاروس. تستجيب

النجوم لندائك، أنت منبع توالي الأزمنة، وفرح سكان السماء، وسيدة البيئات. بإيماءة منك تستعر النيران، وتتكثف الغيوم، وتنبت الزروع، ويصعد الفجر. تخاف قدرتك طيور السماء، ووحوش الجبال، وثعابين الأرض، ووحوش المياه، لكنني في تسبيحك قاصر العقل...».

ونسوق في خاتمة فقرتنا هذه نص براءة يتوسلها أحد الموتى، وهو مأخوذ من «كتاب الموتى»:

أنا لم أتسبب للناس بأذى.

أنا لم أؤذ بهيمة.

أنا لم أرتكب إثماً بدل العمل الصالح...

أنا لم أجدّف....

أنا لم أرفع يدي على ضعيف...

أنا لم آت قباحة أمام الآلهة....

أنا لم أكن سبب علّة.

أنا لم أكن سبباً لذرف دموع.

أنا لم أقتل.

أنا لم آمر بالقتل.

أنا لم أتسبب لأحد بألم.

أنا لم أبذّر مؤونة المعابد.

أنا لم أفسد خبز الآلهة.

أنا لم آخذ خبز الموتى.

أنا لم أتفوّه بدنس...

أنا لم أنتزع اللبن من أفواه الأطفال...

أنا لم أصطد طير الآلهة بالفخاخ.
أنا لم أصطد الأسماك في مياههم.
أنا لم أمنع الماء في أوانه.
أنا لم أقطع طريق الماء الجاري.
أنا لم أطف نار المذبح وقت اشتعالها.
أنا لم أضع عراقيل أمام الإله عند خروجه.
أنا نقي، أنا نقي، أنا نقي!

سر آلهة ما بين النهرين

تعد حضارة ما بين النهرين واحدة من أقدم الحضارات في التاريخ. وقد قامت في الإقليم الواقع بين نهري دجلة والفرات. وتقوم هناك في أيامنا هذه دولة العراق. وكانت أرض بلاد ما بين النهرين حصينة ضد العدوان من شتى جهاتها. فمن الجنوب كانت تحميها مياه الخليج العربي. ومن الشمال سلسلة الجبال الأرمينية. ومن الشرق جبال زاغروس. ومن الغرب أمداء البادية السورية. وكانت سومر تقع في جنوبي بلاد ما بين النهرين، وإلى الشمال منها، وفي الشطر الأوسط من البلاد، كانت تقع آكاد. وفي الألفين 2-1ق.م. اتحدت سومر وآكاد، وتشكلت بابل. وإلى الشمال من بابل قامت آشور. وحسب المتخصصين: إن الإنسان استوطن بلاد ما بين النهرين منذ أربعين ألف سنة خلت. لكن الألف العاشرة قبل الميلاد عرفت انفجاراً سكانياً هنا: لقد تزايدت أعداد السكان، وأخذ هؤلاء يتحولون إلى نمط العيش الحضري المستقر، وممارسة العمل الزراعي، وتربية الحيوانات.

ونحن لا نعرف عن تاريخ هذه البلاد قبل الألف الرابعة قبل الميلاد إلا قليلاً. وعند منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، بنى العبيديون أول شبكة قنوات ري صناعي وصلت إلينا أخبارها. وفي الثلث الأخير من الألف الرابعة قبل الميلاد، حلّت ثقافة أوروك هنا محل ثقافة عُبيد، وكان السومريون هم من بنى هذه الثقافة. وعن هؤلاء أيضاً لا نعرف إلا قليلاً. فنحن لا نعرف من هم، ولا من أين أتوا، كما إن لغتهم لا تشبه أي لغة أخرى.

لقد أخذت المدن تظهر في بلاد ما بين النهرين في أواسط الألف الرابعة قبل الميلاد. أما قبل التاريخ المذكور، فلم تكن تبنى هناك سوى القرى الصغيرة، وبعض المستوطنات الأكبر، التي كانت بدائية جداً. فقد كانت هذه تتألف من أكواخ

مبنية من الطين غير المشوي المخلوط بالقش. ويرى العلماء أن قرى الفلاحين هذه قد أخذت تظهر في بلاد ما بين النهرين في الألفين 8-7ق.م. لكن الحال ما لبثت أن تغيرت جذرياً في زمن قصير جداً: لقد ارتفعت هنا مدن حقيقية تحيط بها أسوار جبّارة. وقد شُيّدت في تلك المدن معابد قامت على مصاطب من الآجر، كما شُيّدت فيها أيضاً منشآت كبيرة أخرى. أما سكان تلك المدن فقد أتقنوا شتى المهن وأعمال الحرفة. لكن الزراعة بقيت حاضرة في نشاطهم الاقتصادي، إذ مارسوا العمل الزراعي في الأراضي التي كانت تتوضع حول المدن. لقد شكَّل الفلاحون أكثر السكان. وكانت منظومة الإدارة الذاتية للمدن تعمل بنجاح وفاعلية. وكان يقف على رأس هذه الإدارة الكاهن الأكبر لمعبد المدينة الرئيس. وكان يمكن أن يشغل هذا المنصب قائد القوات الشعبية أيضاً. كما ارتبطت بالمدينة إدارياً القرى التي كانت قائمة في الضواحي ذات التربة الزراعية الخصبة. ومع تلك القرى شكلت المدينة دولة مستقلة استقلالاً تاماً. ولم يكن عدد دول المدن هذه قليلاً. ففي النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد، لم يكن عدد دول المدن في سومر أقل من عشرين دولة مدينة. وكانت العلاقة فيما بينها ذات طابع كلاسيكي: لقد كانت حالة العداء هي السائدة، فكلٌّ منها كان يتطلع إلى الاستيلاء على قطعة ما من أراضي جيرانه، أو على واحدة من قنوات الري، أو كان يريد أن يستعرض قوته وحسب. لقد كانت الدوافع التقليدية المعروفة في تاريخ البشرية، تفعل فعلها هنا: الطمع، وحب السلطة، وقصر النظر، والحماقة. ولذلك انتهى كلُّ شيء إلى الخاتمة التي كان ينبغي أن ينتهي إليها: لقد وقعت سومر كلها في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، تحت سيطرة جارتها الشمالية آكاد، التي كان يحكم فيها وقتئذٍ الملك سرغون. وقد حكم سرغون هذا من العام 2334 إلى العام 2279ق.م. وعلى هذا النحو، تكون قد تشكلت مملكة سومر وآكاد الواحدة. لكن هذه بدورها سقطت عند أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد تحت سلطة مستعمرين جدد. فقد هاجمها جيرانها الشرقيون: العيلاميون، ومن الغرب اجتاحها العموريون عبر البادية السورية.

لقد استولى العموريون على عدد من المدن السومرية، بيد أنهم سرعان ما اندغموا بالسكان المحليين، فأخذوا عاداتهم، ولغتهم الآكادية. وأشهر ملوك بابل: الملك حمورابي، الذي وضع القوانين الشهيرة التي عرفت في الدراسات التاريخية «بقوانين حمورابي»، كان حمورابي عمورياً، وهو سادس ملوك بابل، وقد حكم من العام 1792 حتى العام 1750ق.م. وقد تبيّن أنه كان حاكماً فذاً. فهو لم يكتف بوضع الأساس القانوني للدولة، بل بنى الدولة نفسها، ولم تقتصر حدود دولته على مدينة بابل وضواحيها، إنما امتدت من شواطئ الخليج العربي حتى ماري على الفرات ونينوى على دجلة. لقد كانت تلك هي الدولة البابلية القديمة. بيد أن هذه الدولة بدورها، لم تبق مستقلة لزمن طويل. ففي العام 1595ق.م، استولت القبائل الكاشية على بابل، وكانت هذه قد انحدرت إلى وادي الرافدين

من جبال زاغروس. وقد حكم الكاشيون بابل حتى العام 1155ق.م. وفي زمن الملوك الكاشيين انقسم وادي الرافدين إلى شطرين: آشور (الشطر الشمالي)، وبابل (الشطر الجنوبي). وقد كانت الحرب بين الطرفين قاسية وضارية، وامتدت على مدى ألف سنة كاملة. وفي نهاية المطاف نجحت آشور في أن تُخضع بابل لسلطتها. ويبدو أن الآشوريين قد استثمروا انتصارهم ذاك، بمنتهى الرعونة، فقد أمر الملك الآشوري سنحريب، في العام 689ق.م، بتدمير بابل وتسويتها بالأرض. بيد أنه من الصعب التنبؤ بسير الأحداث التاريخية. فقد نجحت بابل المدمرة بالنهوض من تحت الأنقاض واستعادة استقلالها كاملاً في العام 626ق.م. وسرعان ما نجحت بالتحالف مع جيرانها من القبائل الميديانية، أن تهزم الإمبراطورية الآشورية هزيمة قاسية. وبعد سبعين عاماً سقطت الدولة البابلية الحديثة سقوطاً تاريخياً نهائياً، لم تقم لها بعده قائمة. فقد اجتاحتها قوات الملك الفارسي قورش الثاني. وفي عام 331ق.م أطاح الاسكندر المقدوني بالسلالة الفارسية الحاكمة. وبعد ثمانية أعوام توفي الاسكندر فور عودته من حملة الهند. فاندلعت بين قادة جيوشه حرب طويلة، كان محورها انتزاع حق وراثة تركة الفاتح العظيم. وفي تلك الحرب الأهلية الضروس آلت بابل إلى سلوقس، الذي ملك خلفاؤه دولة - مدينة بابل طوال مئتي عام. وفي 126ق.م، استولى البارثيون على بابل وسواها من مدن وادي الرافدين الأخرى. وفي عهد هؤلاء عاشت بلاد ما بين النهرين مرحلة انهيار كامل. وفي القرن الميلادي الثاني جعل الرومان من وادي الرافدين مقاطعة رومانية.

لقد عَرف وادي الرافدين عبر آلاف السنين شتى أنواع الاحتلال، وقد كان المحتلون يأتون إلى هنا حاملين معهم معتقداتهم وآلهتهم، لكنهم سرعان ما كانوا يُهزمون أمام محتلين آخرين لهم آلهتهم ومعتقداتهم الخاصة بهم. ولذلك فإن رسم لوحة لديانات وادي الرافدين بالمعنى التقليدي، أمر غير ممكن عملياً. ومع ذلك فإننا سوف نبرز السمات الأساسية للحالة الدينية هناك.

إن الدين الحقيقي هو: الدين الذي يكون مرتبطاً بحياة الناس ارتباطاً وثيقاً. وهذا ما توضحه بجلاء اللقى الأثرية التي عُثر عليها في وادي الرافدين. ففي الأزمنة الأولى لم تظهر المعابد الكبيرة هناك، بل بنوا وقتئذٍ مخازن للحبوب كانت لها قدسيتها عندهم. فالمشاعة كانت تخزن فيها احتياطاتها التموينية تحسباً لشح الموسم أو لأي طارئ آخر. وليس خافياً سبب القدسية التي أعطاها الأوائل لمخازن الحبوب تلك، فالخبز هو الحياة. وكانوا يسجدون له. فقد أقاموا حول المخزن المقدس طقوساً مهمة. وكانت هذه ترتبط بالمحصول، بالخبز، بدءاً من لحظة البذار وصولاً إلى موسم جني المحصول، و... وكان ينبغي على الآلهة أن تحرس الخبز، وتضمن محصولاً وفيراً؛ بيد أنه كان يجب تقديم القرابين، ورفع الصلوات للآلهة.

وكان يحكم هذه العملية كلها منطق صارم. فالمعبد لم يكن وسيلة لجمع الأموال من العامة، ثمَّ تبديدها على لا شيء، بل كان وجوده ووجود الخبز نفسه لتحقيق مصلحة المشاعة، وهذا ما أدركته هذه الأخيرة جيداً. وما له أهميته في هذا السياق، هو أن هذه المبادئ بقيت هي نفسها، ولم تتغير حتى بعد أن ظهرت المدن الكبيرة والمعابد الضخمة: لقد بقيت المعابد تؤدي دوراً دينياً وآخر اقتصادياً (بدءاً من مخازن الحبوب الطينية التي لم تتجاوز أبعادها 4×5م، والتي عُدت أماكن مقدسة، وصولاً إلى معابد طور سقوط حضارة وادي الرافدين).

وإلى جانب المعبد، وعلى مقربة منه، كانت توجد عادة زريبة للحيوانات. كما كانت تخصص هناك قطعة أرض لرعيها. وهنا في هذه الزريبة كان يخصص مكان لإقامة الكاهن. وكان هذا عادة رجلاً إذا ما كان المعبد مكرساً لإلهة، أو امرأة إذا ما كان المعبد مكرساً لإله. فالرافديون كانوا يقيمون زيجات طقسية بين الكاهن والإلهة، والكاهنة والإله. وكانت غاية مثل هذه الطقوس هي: ضمان تحقيق الخصوبة التي كانت سبب الحياة. وقد ترك لنا هيرودوت الوصف الآتي لمعبد الإله بل - مردوك في بابل: «ثمَّة في هذا المعبد سرير جميل باذخ، وإلى جانبه طاولة ذهبية. ولم يكن في المكان أي تمثال على صورة الإله. ولم يكن أحد يقضي الليل هناك، سوى امرأة واحدة يختارها الإله لنفسه من بين نساء المكان كلهن، كما يقول كهنة هذا الإله الكلدانيون. ويؤكد هؤلاء الكهنة أن الإله نفسه يزور المكان من حين لآخر، ويقضي ليلته على هذا السرير».

لقد كان نشاط معابد المدن متنوعاً جداً. فالمعابد كانت تملك مراعي شاسعة، وقطعاناً لا عدَّ لها، وأراضي زراعية كثيرة. كما كانت تدير تجارة برية وبحرية نشطة مع البلدان المجاورة والبلدان البعيدة، وتقوم بعمليات مالية متنوعة. لقد كانت المعابد تقدم قروضاً بفائدة متفق عليها، وتتاجر بالملكيات غير المنقولة، فتؤجر وتستأجر المنازل والبساتين. لكن هذا ليس كل شيء. فالمعابد كانت تملك أيضاً ورشاً حرفية. وكانت في الوقت نفسه مراكز ثقافية وتعليمية؛ ففيها الأرشيفات، والمكتبات، والمدارس. وبعد هذا كله هل ينبغي علينا أن نقول: إن حياة المجتمع كانت ترتبط كلها بالكهنة، الذين كانوا يتمتعون إضافة إلى السمعة والهيبة؛ بامتلاك ثروات مهولة. حتى الملوك لم يجرؤوا يوماً أن يتطاولوا على المعابد، لذلك بقي عامل التوارث قائماً فيها بصرف النظر عن تبدل سادة الشعوب وحكامها. لقد كان المحتل يطيح بالسلالة الملكية، لكنه كان كقاعدة بأن تترك المعابد وشأنها.

والآن، من كان أولئك الآلهة الذين كانوا يرفعون إليهم الصلوات في تلك المعابد؟ أولاً، لقد كان هؤلاء كثر. ففي العام 1914م، نشر دايمل في روما كتاباً باللغة اللاتينية عنوانه «مجمع آلهة بابل»، أتى فيه على ذكر 3300 إله ومعبود في

وادي الرافدين. وغنيٌّ عن البيان أننا لن نتحدث عن هؤلاء كلهم، إنما سنقتصر حديثنا عن أكثرهم أهمية.

فالباحثون لم يعرفوا شيئاً يذكر عن الآلهة الذين كان يعبدهم سكان وادي الرافدين قبل الألف الرابعة قبل الميلاد. ولكن من المعروف أن هؤلاء كانوا يتوسلون آلهتهم محصولاً وفيراً، وعافية دائمة، وسلاماً ورخاءً في حياتهم.

لقد كان لكل مكان (قرية، منطقة...) إلهه المحلي. ولم يكن هذا الإله معروفاً إلا في مكانه. ولكن كان هناك آلهة آخرون أكثر شهرة. ومنهم على سبيل المثال: زابابا وشيرا اللذان كانا حارسا مدينتي أومين[1] وكيش. وقد عبدوهما هنا على وجه التحديد، بصفتهما إلهين عظيمين. كما كان هناك آلهة عبدوها في شتى أنحاء وادي الرافدين: إله القمر نانا[2]، إله مدينة أور، وإله الشمس أوتو، ابن إله القمر. وكان هذا حارس مدينتي سيبارا ولارسا. والإلهة إينانا التي كانت تجسد الحب الجسدي. وكانت إضافة إلى ذلك إلهة الانتصارات العسكرية. وقد ارتبطت إينانا بكوكب الزهرة. وهي نفسها الإلهة عشتار عند الآكاديين. وكانت إينانا حارسة مدينة أوروك. أما إله مدينة كوتور[3]، فهو الإله نرجال، إله الأوبئة. وهو في الوقت نفسه إله مملكة الأموات.

لكن أقوى الآلهة وأقدمهم، هم: إله السماء آن (آنو عند الآكاديين)، وإله الرياح وكل الفضاء الذي بين السماء والأرض (إينليل)، وإله المحيط والمياه الجوفية العذبة أنكي (غيا عند الآكاديين). وفي سومر عبدوا الإلهة الأم نينخورساغ، التي كانت إلهة جبارة عند بزوغ فجر التاريخ السومري. وعند أواخر الألف الرابعة وأوائل الألف الثالثة قبل الميلاد اشتهرت عندهم عبادة الإله دوموزي، زوج الإلهة إينانا (عشتار). ومن المعروف أن الناس حاولوا دوماً أن يجبلوا آلهتهم على صورتهم ومثالهم. ولم يدركوا إلا فيما بعد أن رؤية الإله غير ممكنة، وأنه موجود في كل مكان، وليس له شكل محدد أو رسم معروف. ولكن في الوقت نفسه، كان الرافديون يزوّجون آلهتهم، بل لم يكتفوا بهذا، إنما كانوا ينتقون للإله أفضل محظية لكي تقضي الليل بانتظار الإله في المعبد على السرير الذهبي. لقد كان الناس يستمتعون بأن يروا أنفسهم في الآلهة، وأن يوافقوا نمط عيشهم مع سلوك الآلهة ونمط عيشهم. ولذلك عندما كان يتغير نمط حياتهم، كانوا يبدلون نمط حياة آلهتهم، بما يتوافق تماماً مع التغيرات التي وقعت في عيشهم. فمع ظهور المدن الكبرى نشأ جهاز إداري شديد التعقيد. وسرعان ما أخذ الناس يعيدون تنظيم نشاط آلهتهم. فأنشؤوا لهم تراتبية كالتي نشأت عندهم تماماً. ولذلك ظهر للآلهة ملكهم وكبير وزرائهم. كما ظهر أيضاً منصب الكاتب - السكرتير، وحامل العرش، الذي كان عليه أن

١- لعل المقصود هنا مدينة أوما - المترجم..

٢- هكذا ورد في النص الروسي. لعله الإله نانا. - المترجم..

٣- لعلها مدينة كوتا. الكوت الآن. - المترجم..

يحمل عرش ملك الآلهة. وظهرت لدى آلهة وادي الرافدين شتى الوظائف الأخرى التي أرادها الناس أن تكون، كالآلهة - الحراس مثلاً. وظهر أيضاً آلهة البيئات الطبيعية، الذين باتوا «قادة سماويين كباراً»، بينما كانوا قبل ذلك مانحي الخيرات وحسب.

وعلى الرغم من أن الآلهة الرافديون قد أُنزلوا إلى الأرض، إلا أنهم بقوا مرتبطين بالفضاء الكوني ارتباطاً وثيقاً. فالإلهة عشتار كانت ترتبط بالزهرة، وارتبط مردوك بالمشتري وبرج الثور، والإله نابو بعطارد. وكان لكل مدينة إلهها الحارس، ولكن بما أن الإله المعني كان يرتبط بجرم سماوي ما، فقد ارتبطت المدينة بدورها بالفضاء الكوني (بالجرم الكوني). لقد كان إدراك هذا الواقع يمنح سكان المدينة قوة من نوع خاص. وكان هؤلاء على ثقة بأن الإله الكوني هذا لن يتركهم في ضيق. وعلى هذا النحو كانت تترسخ قوة الروح المعنوية لدى الشعب. لكن صلة المدينة هذه، وحياة سكانها بكوكب أو برج فلكي ما، لم تقتصر على إدراكهم بالحماية الكونية التي يحظون بها، فقد كانوا يراقبون حركة الجرم الكوني، ويرصدون التبدلات التي ترتبط به، ويخلصون إلى النتائج ذات الصلة. كما راقب سكان المدن أيضاً ظاهرة الخسوف والكسوف، وسوى ذلك من الظواهر الأخرى المرتبطة بجرمهم الكوني، وحاولوا أن يفهموا كل ما يمكن أن ينبئ به ذلك كله. لقد كانت تحدوهم رغبة كبيرة لأن يروا في تلك العلامات إشارة إلى أن المدينة على موعد مع الرخاء والبحبوحة. بيد أن تلك الإشارات كان يمكن أن تنبئ أيضاً بأن المدينة سوف تتعرض لغزو خارجي، أو لموجة جفاف، أو لمجاعة، وسوى ذلك من الكوارث الأخرى: وباء، وبرص، وسواهما من الأمراض. وعليه ليس عبثاً أن يرفعوا صلوات لإله الأوبئة لكي يسترضوه.

لقد أشرنا سابقاً إلى أن سكان وادي الرافدين عرفوا كثرة كثيرة من الآلهة. ومن غير الممكن استعادة الوظائف التي كانوا يؤدونها، وتحديد الزمن الذي بلغ نشاطهم فيه أوجه.

بيد أن النصوص التي حملتها الألواح الطينية التي اكتشفت هناك، تتيح لنا إمكانية وضع تصور عن الآلهة الرئيسة بين هؤلاء.

فالإله آن كان إله السلطة، أو بمعنى أدق، إن آن كان يمثل قوة السلطة. وكان الإله إينليل يمثل القوى، أي قوى على وجه العموم. وكان الإله أنكي هو الخبث بعينه، والمهارة بعينها. فقد كان يمتلك امتلاكاً تاماً ناصية الفنون والمهن كلها، وكان الحارس الأمين للرقاة، كما حاول أن يحمي الناس من الدسائس الشريرة التي يحوكها الإلهان آن وإينليل ضدهم. فلم يكن هذان الإلهان يوليان أي اهتمام أو عناية بالبشر. وكان يمكن أن ينتظر هؤلاء منهما

أي شر كان. وكان للإله إينليل ابن، هو الإله نينورتا. وكان هذا إلهاً شاباً لم تكن له أي مدينة، لكنه كان يجسد البسالة القتالية. ولذلك عبده الملوك الآشوريون المقاتلون. أما الإله الذي يرى كل شيء، إله الشمس أوتو، فقد كان القاضي الأكبر الذي يحمي المظلومين والمقهورين، كما كان شفيع المتنبئين. وعاش في وادي الرافدين أيضاً، الإله العموري إشكور (الآكادي أداد)، إله العواصف والزوابع.

ولم يكن في وادي الرافدين من الآلهة الأمهات أقل من ثلاث، هن: نينخورساغ، ومالي، وبابا. كما كان لكل إله زوجة. وكانت هناك أيضاً إلهات ارتبطن بهذا الشكل أو ذاك بعالم الأموات والموت. وللمناسبة نقول: إن إلهة الموت غولا تحولت مع الزمن إلى إلهة - مداوية. فقد عثر على صورها ومعها رفيقها الدائم: الكلب. وقد غدا رأس الكلب رمزاً للإلهة غولا. وكانت النجمة رمز الإلهة عشتار، والقمر رمز الإلهة إينانا.

وحملت اللقى الأثرية والنصوص المكتشفة معطيات عن جماعة كاملة من الآلهة العظام الأنوناكي. كما يرد أيضاً ذكر جماعة أخرى من الآلهة الإيجيجي. وليس معروفاً عن هؤلاء شيء سوى أنهم كانوا كثراً. لقد كان الآلهة الإيجيجي يشاركون في الاجتماعات العامة، ولدى اتخاذ القرارات المهمة، كانوا يعبرون عن موافقتهم عليها أو رفضهم لها بهدير طابعه متباين. وكان الأعضاء المشاركون يؤوّلون هدير الإيجيجي تأويلاً صحيحاً. أما الآلهة الأنوناكي، فقد كانوا يحضرون مجالس الآلهة ويشاركون في اتخاذ القرارات المصيرية. وهكذا نرى أن الآلهة كانوا مشغولين بشؤون لم تكن أقل من تلك التي كان يهتم الناس بها، وحتى قبل أن يظهر البشر، كان الآلهة يحصّلون وسائل عيشهم بعرق جباههم. وهذا ما تخبرنا به «ملحمة أتراحسيس» البابلية القديمة. فالملحمة تقول:

عندما كان الآلهة، كما البشر
ينهضون بالأعباء، ويحملون السلال،
وسلال الآلهة كانت مهولة
كان الشغل مضنياً، والمشقات عظيمة،
فألقى الآلهة الأنوناكي السبعة العظام
بأعباء العمل على كاهل الإيجيجي...
وعلى طوال ألفين وخمسمئة سنة
عملوا ليلاً نهاراً بمشقة.

فتعالى صراخهم، وامتلؤوا غيظاً،
لقد ضجوا في مهاويهم وصرخوا:
«نريد أن نرى الحاكم!
فليرفع عبء هذا العمل الشاق عن كاهلنا!...».
لقد أحرقوا أدواتهم، وأضرموا مجارفهم،
وألقوا سلالهم في اللهب،
وشبكوا أيديهم وساروا،
إلى بوابات إينليل المقاتل المقدسة.
في وسط الحراس، عند منتصف الليل
أحاطوا بالمعبد، لكن الإله لم يدر..
لقد سمع كالكال واضطرب.
ففتح المزلاج ونظر إلى الخارج.
فأيقظ الإله كالكال الإله نوسكو.
وسمعا معاً ضجيج الإيجيجي.
فمضى نوسكو ليوقظ السيد...

ثمَّ تطورت الأحداث بعد ذلك على النحو الآتي: لقد دعا إينليل الأنوناكي إلى الاجتماع، وكان هؤلاء يضطهدون الإيجيجي ويستغلونهم. ودارت في الاجتماع محادثات مع الإيجيجي الثائرين. فاقترح الإله إيا مخرجاً من الحالة الحرجة. وقد تلخص اقتراحه بأن يخلق الآلهة البشر لكي ينهض هؤلاء «بأعباء الآلهة». وهذا ما حدث. فقد خلط إيا ومعه مامي الحكيمة، دماء واحد من الإيجيجي بالطين وجبلا الإنسان الأول. ومنذ تلك اللحظة بات الناس يحملون السلال، ولم يعد الآلهة يفعلون ذلك.

ونلفت انتباه القارئ إلى أن الإنسان الأول جُبل من طين ممزوج بدماء إله، مع أنه ليس الإله الرئيس. فقد تشاور الآلهة الإيجيجي وقرروا التضحية بواحد منهم من أجل ذلك العمل الجليل. لقد تقرر أنه:

يجب أن يصرع أحد الآلهة...

ومن جسده فلنمزج بدمائه حفنة طين!
فيتجسد الإلهي والإنساني حقاً،
يمتزجان بالطين!
لكي نسمع دقات القلب إلى الأبد.
فليعش العقل في جسد الإله،
وليعرف الكائن حياته.
ولا ينسى أنه يملك عقلاً.

ولا تزال هذه الدعوة الأخيرة التي وجهت إلى الإنسان منذ آلاف السنين، تحمل أهميتها الكبيرة حتى يومنا هذا.

وعلى مدى التاريخ البشري كله، كان الدين الشخصي يتوهج تارة ويخبو تارة أخرى. وفي وادي الرافدين عرف الدين الشخصي طور نهوض في الألف الثانية قبل الميلاد. وبات الإله الشخصي إيلو هو الشخصية الرئيسة، فقد اهتم اهتماماً مباشراً بشخصية الإنسان ونجاحاته الإبداعية. بيد أن هذا الإله الشخصي لم يكن إلهاً خاصاً؛ بل شغل هذه المكانة واحد من الآلهة الآخرين، الذي كان يهتم بشؤون الفرد المعني، الشخصية المعنية كلها من غير استثناء. ولم يكن الفرد في غضون ذلك، عبداً لإلهه الشخصي، بل كان ابناً له، ابناً بالمعنى الفيزيولوجي المباشر لهذه الكلمة. ولم يكن الإله المعني والإلهة المعنية والدين لابن واحد، إنما للسلالة كلها، للعائلة كلها. فالإله الشخصي كان هو نفسه إله الأب، والابن، والجد و... لكن المعاصرين فهموا هذه الحالة فهماً مادياً مغرقاً، فهماً فيزيولوجياً صرفاً. فقد عدّوا أن الإله الشخصي موجود في جسد الإنسان بالمعنى المباشر لهذا الوجود. فهو كان موجوداً في لحظة الحبل بالذرية منذ النطفة الأولى، ثمَّ بات ينتقل من جسد الأب إلى جسد الابن، و...

وهذا ما تترتب عنه استنتاجات بعيدة المدى، إذ بما أن الابن أخذ الإله الشخصي عن طريق جسد والده، الذي يحتوي على الإله الشخصي، فهذا يعني أنه ملزم بأن يتعامل مع والده كما يتعامل مع إلهه الشخصي. ومعنى هذا أنه كان ينبغي على الابن أن يخضع لإرادة والده خضوعاً مطلقاً غير مشروط بأي شرط. بالمقابل كان الابن يعوّل على محبة والده واهتمامه وتسامحه. إذاً، ينتج عن هذا أن الابن يرتبط مع إلهه الشخصي برابطة قرابة الدم. ولذلك كان دفاع الإله الشخصي عن ابنه أمراً طبيعياً، فهو وسيطه لدى الآلهة الأعلى. وها نحن نسوق مقطعاً من رسالة كتبها أحدهم إلى إلهه الشخصي إيلو:

«أخبر إلهي، أبي! هذا ما يقوله أبيل - أداد، عبدك: لماذا تتجاهلني؟ لماذا تهملني؟ من الذي يعطيك مثلي؟ اكتب للإله مردوك الذي يحبك، قل له أن يغفر لي آثامي. إني أرى وجهك، وأقبّل قدميك. انظر إلى عائلتي، ارحم الصغار منهم والكبار. من أجلهم ارحمني. فليصل إليّ عونك». وينبغي ألا تثير استغرابنا الجملة الأولى من الرسالة، لأن التقليد كان هكذا، فرسائل الزمن البابلي والآشوري كانت تبدأ كلها على هذا المنوال.

لقد كان الإله مردوك هو إله مدينة بابل. وكان هذا في الألف الثانية قبل الميلاد، إلهاً عادياً، إلا أنه خرج إلى الصف الأول في مجمع الآلهة السومريين - الآكاديين. وبقدر ما كانت بابل تزداد قوةً ونفوذاً، كان مردوك يكتسب قوة ومنعة. وشيئاً فشيئاً تجاوز آلهة جليلة ومهيبة مثل الإله آنو، والإله إينليل، والإله إيا. فقد باتوا يعبدونه في كل مكان تقريباً، بصفته ملك الآلهة. ولكن كيف أجاز الآلهة الآخرون ذوو السمعة والهيبة ذلك؟ كيف تخلى هؤلاء عن سلطتهم المطلقة، ومحبة الشعب لهم؟ لقد تبين أن هؤلاء الآلهة أقروا بتفوق مردوك وزعامته للتراتبية الإلهية، لأنه هو الذي أنقذهم من الكائن الوحش: الإلهة تيامات. فلم يجرؤ أي من الآلهة الآخرين على منازلتها. أما مردوك فإنه لم يتردد في فعل ذلك، بل لقد هزم الإلهة المتوحشة، لذلك كان من الطبيعي أن تؤول إليه قيادة جماعة آلهة بلاد ما بين النهرين، ويغدو قائدهم وملكهم. وهذا ما تروي عنه الملحمة الدينية المعروفة «عندما في الأعالي»، التي أُنشئت على وجه الخصوص في بابل (مدينة مردوك) إبان القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد[1]. ولذلك عُرضت في الملحمة كامل الأسس التي قامت عليها سلطة الإله مردوك بصفته ملك آلهة وادي الرافدين كلهم. لكن الحال تتبدل دوماً ولا تبقى على ما هي عليه: فعندما سقطت بابل، بات على مردوك أن يخلي مكان الصدارة. وصار إله الذين هزموا بابل يزاحمه على العرش، إنه الإله آشور، إله العاصمة الآشورية القديمة آشور. وسرعان ما أُدخلت على ملحمة

١- يرقى تاريخ أقدم المعطيات التي وصلت إلينا عنها إلى القرن العاشر قبل الميلاد. - المترجم..

«عندما في الأعالي» التغيرات الضرورية: في كل مكان حل الإله آشور محل الإله مردوك.

ولا نقول جديداً عندما نقول: إن الدين يحدد الأخلاق. فالشعب الذي لا دين له، لا أخلاق له[1]. لقد قضى الدين في وادي الرافدين بتحريم التجديف على الآلهة، وبعدم قول أي قول عنهم غير لائق بهم. كما حرّم الدين هناك شهادة الزور، بل الكذب على وجه العموم، كما حرّم السرقة، والخداع، والقتل، والزنى، وقضى باحترام الوالدين، والأكبر سناً، وحرّم اضطهاد الضعيف والفقير واليتيم والأرمل أو الأرملة، وحضّ الفرد على مدّ يد العون لأبناء قبيلته، والابتعاد عن اللامبالاة تجاه سكان قريته، وعدّ النميمة رذيلة، وكذلك بث الفرقة بين الناس. وليست هذه في حقيقة الأمر سوى الوصايا العشر[2]، التي ينبغي على العالم المسيحي أن يعيش وفقها، لكنه لا يفعل. ولكن يجب ألا نظن أن سكان وادي الرافدين كلهم التزم بالفرائض الأخلاقية المذكورة. فالناس كانت تخطئ، وتأثم، وترتكب المعاصي، ثمَّ تصلي طالبة المغفرة، لكنها لا تلبث أن تأثم من جديد. فالبشر هم البشر في كل زمان ومكان. ويرى الباحثون أن صلوات وادي الرافدين تثير الذهول بعمق الشعور الديني الذي تعكسه. وهذه إحداها:

يا إلهي لم أكن أعرف أن عقابك شديد.
فأقسمت يميناً عظيماً، باستهتار.
احتقرت شريعتك، وأوغلت،
وانتهكت في رزيتي شؤونك...
آثامي كثيرة، كيف فعلت هذا، لست أدري.
يا إلهي حرّرني، سكّن الشر في قلبي....

١- قد يكون العكس هو الصحيح، لأن الأخلاق هي المعطى الأول، وليس الدين. - المترجم.
٢- من الواضح تماماً أن العكس هو الصحيح، ولسنا ندري لماذا يصرّ المؤلفان على قلب حقائق التاريخ الإنساني. - المترجم.

لقد أدرك الإنسان أن اقتراف الآثام على هذه الأرض أمر عبثي، لأن كل ما يحققه هنا عابر وطارئ. وليس عبثاً ورود كلمات تشبه فلسفة سليمان[1]. في ملحمة جلجامش:

الآلهة والشمس فقط باقون إلى الأبد،
أما الإنسان، فسنيّه معدودة،
ومهما فعل، فإن فعله قبض ريح.

فعلى كل إنسان في هذا العالم، أن يتساءل من أين أتى؟ وكيف ينبغي عليه أن يعيش؟ وإلى أين يمضي بعد موته؟ ونحن كنا قد درسنا تصور سكان وادي الرافدين عن خلق الإنسان وكيف قدر له أن يعيش.

فلنلتفت الآن إلى مسألة أخرى: إلى أين يمضي الإنسان بعد الموت وكيف يحدث ذلك؟

إن حياة أي إنسان ترتبط بتصوره عن الموت. وإذا ما رسمت أمام الإنسان آفاق كئيبة بعد انتقاله إلى العالم الآخر، فإن هذا يفسد حياته كلها، ويجللها بالحزن والكآبة. ومثالنا على هذا الديانة الهندوسية ودوائرها الاجتماعية المغلقة. فالهندوسي يعيش حياته كلها مقيداً، وهو يعرف أن الموت لا يخلصه من قيوده. بل على العكس تماماً، إذ يمكن أن تتحول هذه القيود بعد الموت إلى قيود أكثر قساوة. ولذلك فإن المعذّب الأبدي لا يحلم إلا بشيء واحد، هو كيف يضع حداً لسلسلة الآلام هذه؟ وهي كلها آلام لا مبرر لها، ولا أساس لها، وهو لا يستحقها. فهل يمكن للإنسان الذي يعيش هذه القناعات ويؤمن بمثل هذه الأخلاقيات، ويمثل هذا الدين؟ هل يمكنه أن يكون سعيداً ومحباً للحياة؟ إن مثل هذا الدين يحشره في الزاوية، ولا أمل له بالخلاص لا في هذه الحياة، ولا في الحياة العاشرة أو الألف. وما يبقى له، هو أن يحلم بالنيرفانا فقط، أي بالعدم. أما المصريون فقد كان لديهم تصور آخر، موقف آخر تجاه الحياة، فقد كان المصري القديم يقول: «الموت بالنسبة لي الآن كضوع العبير». لذلك عاش المصريون سعداء، مزدهرين، وكانوا ينتظرون سعادة أعظم بعد الموت.

١- مرة أخرى يضع المؤلفان حقائق التاريخ مقلوبة. - المترجم.

ولكن ما يُؤسف لـه حقاً أن سكان وادي الرافدين عدّوا العالم الآخر مكاناً كئيباً جداً. إنه «بلاد اللاعودة»، وهي الصفة التي أعطته إياها ملحمة جلجامش (الألف 2-1ق.م):

يقودون الميت إلى بيت الديجور،
إلى مسكن إيركالا، إلى البيت الذي
لا مخرج منه لكل من يدخله،
إلى طريق لا عودة منها لمن يخطو عليها،
إلى منزل لا يرى ساكنوه النور،
قوتهم التراب، ومأكلهم الطين،
ملبسهم كالطيور، أجنحة من ريش.
ولا يرون النور، بل يقيمون في الظلام،
كواهم وأبوابهم يغطيها الغبار!

وجاء في ملحمة «نزول عشتار إلى الحضيض»: إن الدخول إلى «بلاد اللاعودة» يتم عبر سبع بوابات. وأمام البوابات وحشة. وحسب مصادر أكثر قدماً: إن نهراً يقود إلى العالم السفلي، وعبر هذا النهر يقود نوتية القوارب الميت إلى المحاكمة. ومن المعروف أن مثل هذه الصورة موجودة لدى كثير من الشعوب. وعن هذا قيل:

لا تجري المياه في نهر العالم السفلي -
ماؤه لا يروي من عطش.
ولا تُنبت حقول العالم السفلي حبوباً -
فلا يصنع منها طحيناً أحد.
ولا تعطي شياه العالم السفلي صوفاً -

فلا يصنع منها ثياباً أحد.

لقد تخيّل الرافديون القدماء العالم السفلي مدينة تحيط بها سبعة أسوار حصينة، ولها سبع بوابات متتالية، وكان نيدو الحارس يبقي الأبواب مقفلة دوماً. ولذلك لم يكن بمقدور أحد أن يغادر العالم السفلي. وتخيل الرافديون أن حياة الموتى في العالم السفلي تجري على النحو الآتي: عندما يصل وافد جديد (ميت جديد) ينبغي عليه أن يحمل تقدمات وقرابين إلى آلهة العالم السفلي السبعة، لكي يستميلهم إلى جانبه، ويحظى بمساندتهم. وكان الأمر يحدث هكذا عملياً: بعد أن يعبر الوافد البوابات السبع يكون قد نضا عنه كل حليه وملابسه. وبعد ذلك يمثل بين يدي زوجة ملك العالم السفلي، الذي دعوه باسم نرجال، ودعوا زوجته باسم أرشيكيجال.

بعد ذلك يساق الميت إلى المحاكمة، حيث تنظر في أمره هناك «لجنة قضائية» مؤلفة من الآلهة الأنوناكي. لكن رئاسة اللجنة كانت لأكثر آلهة العالم العلوي شهرة. وكان يمكن أن يكون إله الشمس (ليلاً)، أو إله القمر (عند بداية الشهر)، هو الكاهن المتنبئ في هذه اللجنة، التي كانت تحدد مصير المتهم تبعاً لنمط عيشه في الحياة الدنيا. وفي اللحظة عينها، كانوا يشرحون للمتهم جوهر القوانين والأعراف الأخلاقية المعمول بها في العالم السفلي ومغزاها. وبعد أن يعلن الحكم بحضور المتهم، يساق هذا إلى واحد من أرجاء مملكة العالم السفلي. وعندما يصل إلى المكان، كان الحراس يستقبلونه بود، ويمدون له يد العون بصدق وإخلاص.

لقد تلخصت معايير السلوك في العالم السفلي في الآتي: التزام الهدوء والسكينة، والابتعاد عن لفت النظر بالثياب، أو التطيب بالعطور، وعدم التعبير عن الأحاسيس بأي طريقة كانت. أما الحياة نفسها فقد كانت تستمر، ولكن بشكل آخر: لقد كان الإنسان يمارس في العالم الآخر النشاطات نفسها، التي كان يمارسها في الحياة الدنيا. كما كانت تقام هناك شتى الطقوس والمراسم. وكان يؤديها الكهنة أيضاً، كما كانت عليه الحال في العالم السفلي.

وبعد أيام يبدأ الوافد الجديد يشعر «بشكاوى سومر». وفيها أخبار عن أن المتوفى فشل في أن يصنع بيتاً. وإذا ما تبين أن أمراً ما من الأمور المهمة جداً لم يكتمل، فإن أشباح الموتى يمكن أن تخرج إلى سطح الأرض لبعض الوقت. ولكن هذا لا يقع للميت العادي إلا نادراً. لكن الملوك غالباً ما كانوا يستخدمون هذا الامتياز. ومما يثير الفضول أن بعض الآلهة قد احتُجزوا في العالم السفلي. لكنه كان بإمكانهم أن يغادروه أشباحاً لبعض الوقت فقط، مثلهم في هذا مثل الملوك، فشبح أنكيدو على سبيل المثال، صعد من مملكة العالم السفلي، لكي يرى صديقه جلجامش ويتحدث إليه. كما كان يمكن للميت أن يخرج من العالم السفلي مؤقتاً، إذا ما ترك هناك رهينة بدلاً عنه. فبهذه الطريقة خرجت الإلهة عشتار إلى العالم العلوي، بعد أن تركت زوجها دوموزي رهينة. وهناك مصادر كثيرة تتحدث عن وجود آلهة أيضاً في العالم السفلي، ومن هذه المصادر ملحمة «خلق إله القمر».

وحسب الديانة الرافدية القديمة: إن الموت شر عظيم، لكنه حتمي؛ إنه ظلام لا يمكن مواجهته. لكن تصورات عن الخلود، أخذت تسود فيما بعد. وقد قصدوا بالخلود هنا خلود الروح.

ومن الجدير أخيراً أن نقول شيئاً ما عن رؤية الديانة الرافدية لخلق العالم والإنسان. وقد جاء الوصف الأكمل لهذه الرؤية، في ملحمة «عندما في الأعالي»، المكرسة للإله البابلي مردوك. وكان كل شيء قد سار على النحو الآتي:

عندما في الأعالي لم تكن السماء قد دعيت باسمها بعد،
ولم يكن للأرض تحت اسم،
أما والدهما البدئي أبسو،
وتيامات التي ولدت كلهم،
فقد مزجا مياههما بعضها ببعض
عندئذٍ خلق الآلهة في جوف السماء.

لقد اختلط خراب المياه المالحة تيامات مع خراب المياه العذبة أبسو. وهناك ولد الآلهة. فظهر لحمو ولاحامو. ثمَّ ظهر زوج الآلهة الآخر، أنشار (الدائرة السماوية) وكيشار (الدائرة الأرضية). وبعدئذٍ خلق الإله أبسو الإله أنكي (إيا). ثمَّ ظهر الآلهة الآخرون.

ويجتمع الآلهة - الأقارب حشداً،

يزعجون تيامات إذ يروحون ويجيؤون، ويتذمرون،

لقد زلزلوا جوف تيامات

بغوغائهم الصاخبة، في السكينة العلوية،

ولا يهدأ لغطهم في أبسو.

فأوحى المستشار مومّو للإله أبسو الذي أيقظه اللغط بفكرة إبادة الآلهة. ولكن ذلك لم يحدث، لأن الإله إيا الذي يرى كل شيء، وجد مخرجاً من الوضع الحرج.

بحكمته خلق تعويذة مقدسة،

وأنشد ترتيلة أرسلها في المياه.

فانسكب النعاس، وجاء النوم.

لقد غرق أبسو في نوم هانئ

فوجم المستشار مومّو.

بعد ذلك قتل إيا أبسو. ثمَّ قيد مومّو وخلق لنفسه سكينة دعاها «أبسو».

هناك مع دامكينا، مع زوجته استوى إيا بعظمة،

وفي سكينة المصائر والأقدار،

أنجب الإله حكيم الحكماء،

في أبسو ولد مردوك...
عظيم القامة، كامل بين جميعهم،
صورته كاملة كمالاً لا يخطر لخيال،
لا يدركه الفهم، ولا يحده خيال:
عيونه أربع، وآذانه أربع؟
وإذ يفتح فمه، يخرج منه اللهب!

وبعد ذلك تطورت الأحداث على النحو الآتي: لقد عزمت أرملة الإله المقتول أبسو على الانتقام من الآلهة الذين قتلوا زوجها. ولكي تحقق انتقامها، خلقت الإلهة حشداً من الكائنات المتوحشة. وجعلت الإله كينغو على رأس ذلك الحشد، وقلدته «ألواح المصير». فقد كانت تلك الألواح تحدد حركة العالم، وسير الأحداث الكونية. فارتعدت فرائص الآلهة خوفاً من عدوانية جماعة الوحوش تلك. لكن الإله الشاب مردوك هب للقتال غير هياب. وكان قد استبق ذلك بوضع شروطه أمام الآلهة. وقد تلخصت في الآتي:

إذا انتقمت لكم كلكم،
وقهرت تيامات، وأنقذت حياتكم،
فأجمعوا المجلس وأعلنوا إعلاء مصيري..
ولتقرر كلمتي المصائر، كما كلمتكم!
وليبق ما أخلقه أنا راسخاً لا يتغير!

فوافق الآلهة على مطالب مردوك هذه، لأنه لم يكن أمامهم مخرج آخر. وقيل عن ذلك ما يلي:

أعطوه الصولجان، والعرش، والثوب الملكي،
وقلّدوه سلاح النصر الذي يجندل الأعداء...
وهاجم مردوك وتيامات أحدهما الآخر...
واشتبكا في قتال ضار، ومعركة حاسمة...
فتحت تيامات شدقها لتبتلعه،
فأدخل فيها الإعصار، وعجزت عن إطباق شفتيها...

وتقطعت أشلاء، وانفتح شدقها.
لقد أطلق سهامه وشقَّ بطنها،
ومزق أعماقها، وأخذ قلبها...

بعد أن قُتلت تيامات ولـى الحشد المتوحش أدبـاره. لكن مـردوك لـم يمهلهم لكي يختبئوا، فقبض عليهم وقيّدهم، وقتل قائدهم كينغو وأخذ «ألـواح المصـير» منه، ثمَّ رجع بعد ذلك إلى جثة تيامات:

فقطع أحشاءها بمهارة،
وشطرها شقين، كأنها قوقعة،
ثمَّ أخذ نصفاً وغطى به السماء.
وجعل ترابيس، وأقام حراساً
ليعملوا على ألا تتسرّب المياه.
وقاس الرب أبعاد أبسو.
وخلق إينشارو صورة له،
وظلل إينشارو السماء.
وأقام مردوك استراحات في السماء للآلهة كلهم.
لقد أقام استراحات للآلهة العظام.
وصنع النجوم - الكواكب، على شبه الآلهة صنعها،
قسم السنة، رسم رسماً...
وضع نجماً للأشهر الاثني عشر،
وفتح بابين على جانبي السماء...
ومنح الهلال، حارس الليل ضياء!
ثمَّ وضع رأس تيامات وأهال عليها جبلاً...

وأطلق دجلة والفرات عبر عينيها،

هكذا خلق هو السماء والأرض...

وبعد أن انتهى مردوك من أعماله تلك، حدد طقوسه، وفرض شعائره. وجاءت لحظة خلق الإنسان:

فلأجمع الدماء، وأثبّت العظام.

وأصنعن كائناً، وأدعوه إنساناً.

حقاً سوف أخلق بشراً،

وليخدم هؤلاء الآلهة، لكي يستريح هؤلاء.

آلهة الإغريق القدماء

لقد كانت جزيرة كريت عماد الحياة الروحية والثقافية والدينية في العالم الإغريقي القديم. وتتوضع كريت في البحر المتوسط. وفي الألفين 3-2ق.م كانت ثقافة الإغريق على صلة وثيقة مع ثقافات الشرق الأخرى. وفي أواسط الألف 2ق.م سقطت كريت، وخرجت من مسرح الحضارة الإنسانية، ولا تزال أسباب ذلك السقوط غير معروفة على وجه اليقين حتى يومنا هذا. وحسب بعضهم أن الجزيرة وقعت فريسة كارثة ما. ولكن قد تكون هناك أسباب أخرى لذلك الحدث المأساوي. وعلى أي حال، فقد وجد سكان الجزيرة أنفسهم عاجزين عن التصدي لموجة الغزو التي هاجمت بلادهم مندفعة من شبه جزيرة البلقان. لقد حمل الغزاة الآخيون ثقافتهم وديانتهم إلى الجزيرة. ومع أن التمازج حدث في ميادين شتى، إلا أن المؤرخين والشعراء بالغوا كثيراً في تقدير دوره، وتجاهلوا واقع الغزو نفسه، ووصفوا تاريخ الثقافة اليونانية بصفته عصراً واحداً حكم البلاد أثناءه الملك الأسطوري مينوس. وقد ظهر هذا في تاريخ اليونان بصفته ملكاً إلهاً. ونسبوا إليه بناء دولة بحرية كبرى، الأمر الذي مكّنه من أن يبسط سلطانه على جزر شرقي البحر المتوسط وشبه جزره، بل افترض بعضهم أن نفوذه امتد ليشمل صقليا أيضاً.

ولا تتوفر مصادر مكتوبة عن تاريخ كريت إلا تلك التي وصلت إلينا من زمن الاحتلال الآخي وما بعد. وسبب ذلك هو أن نظام الكتابة الكريتية، الذي ينتمي إلى زمن أقدم، لا يزال لغزاً عصياً على العلماء. وقد امتد الزمن الآخي في تاريخ اليونان، من العام 1500 إلى العام 1100ق.م. أما ما قبل هذا التاريخ، فهو زمن الملك مينوس. وعليه، فقد كان لدى الإغريق القدماء دينان: الدين المينوسي، والدين الآخي.

ومثله مثل الأديان الأخرى في العالم القديم، فقد كان الدين المينوسي ديناً بدائياً. فالإله الرئيس هو الإله زيوس، أب الملوك، وحاكم كريت: هو والد مينوس، ووالد سربيدون، ووالد رادا مانتوس، وهؤلاء هم الملوك الثلاثة الذين أنجبتهم منه الأميرة الكنعانية أوروبا. وكان زيوس قد اتخذ صورة ثور، ومضى خلف الأميرة إلى بلاد الكنعانيين، خائضاً غمار مغامرة صعبة مع البحر الهائج. لكنه نجح في آخر المطاف، فخطف الأمير أوروبا، وحملها إلى جزيرة كريت سليمة معافاة، وحسب الأساطير: إن السلطة الملكية المقدسة، والبنية الأولى للدولة، قد خرجتا من اتحاد الإله - الثور والإلهة - البقرة. فمن ذلك الاتحاد ولد ملك. وكانت سلطته الملكية سلطة مقدسة. لكن لتسع سنوات فقط. أما بعد ذلك، فقد كان ينبغي إعادة إقرار صلاحيات الملك. ولم يكن باستطاعة أحد أن يفعل ذلك سوى الإله. وكانت الحقبة الثانية من حكم الملك تستمر عشر سنوات.

ومن المعروف على وجه العموم أن الثور رمز الخصوبة، وأن الخصوبة مصدر الحياة بالمعنى الحرفي للكلمة. لذلك رسموا صور الثور في كل مكان: على الجدران، والأختام، والأبواب و... وقد ظهرت في اللوحات مشاهد مصارعة الثيران. ويبدو المصارعون فيها يؤدون مختلف ضروب الحركات البهلوانية فوق ظهور الثيران وعلى قرونها، بينما تندفع هذه مسعورة.

ولم تكن تظهر في شعائر الزواج الطقسي للإلهة - الأم ثيران حقيقية، بل مصارعون وحسب. أما دور الإلهة الأم فقد كانت تؤديه كاهنات آسرات الحسن، ظهرت صورهن على اللوحات الجدارية، وهنّ عاريات الصدور، يرتدين تنانير تغطي أقدامهن، وهذا ما يجعل مبدأ أسطورة المينونافروس مفهوماً. فقد كان هذا إنساناً - ثوراً عاش في اللابيرينتيوم (التيه)، وفرض أن تقدم له قرابين من فتيان وفتيات، كان يفترسهم. لكن الأمير الشاب تيسيوس خلّص أثينا من تلك الإتاوة المذلة، إذ قتل الوحش. لقد كانت الإلهة - الأم هي الشخصية الإلهية الرئيسة في كريت المينوية. إنها إلهة الخصب. ولم تكن هذه سيدة الطبيعة البرية وحسب، بل سيدة سكان عالم البرية كلهم. وكانوا يرسمون صورتها عادة على قمة جبل، وهو ما كانوا يرمزون به إلى سموها فوق هذا العالم. أما الملك، فإنه على الرغم من منشئه الإلهي، إلا أنهم رسموا صورته عند سفح الجبل، الذي تقيم الإلهة فوق قمته. وبالإضافة إلى ذلك فقد رسموا صورة الملك مستلقياً على الأرض.

وبعد أن قهر الآخيون الهلينيين تعاملوا معهم بعقلانية ملفتة، فلم يمسّوا ثقافتهم أو ديانتهم بأذى، بل اعتنقوا هذه الأخيرة، لكنهم أعادوا النظر جذرياً في كثير من الأشياء، التي لم يطرأ عليها أي تبديل يذكر من حيث الشكل. وهذا أمر

طبيعي، فقد كان للآخيين آلهتهم أيضاً، وكان التخلي عن عبادتهم أمر فيه كثير من نكران الجميل. غير أن هؤلاء الآلهة لم يكونوا يشبهون آلهة الإغريق دوماً، أي لم يكن من السهل تبديل اسم الإله إلى اسم آخر (إغريقي)، والإبقاء على وظائفه عينها. فالإله الآخي الأكبر ديفا لم يكن مماثلاً للإله الإغريقي زيوس. لكنه كان يشبه من حيث وظائفه، الإله - الثور، إله الديانة الكريتية قبل الآخية. وكانت إلهة الخصب ديفينيا زوجة هذا الأخير. وفيما بعد تحولت هاتان الوظيفتان في اليونان إلى عدد من الإلهات، فحملتهما في كريت الإلهة بريتو مارتيس، وقد دعيت أيضاً باسم ديكتينا. وكان لهذين الزوجين الإلهيين الساميين ابن يدعى ديونيسيوس، وهو إله الخصب وزراعة الكرمة. ولم يتحول إله بوسيدون إلى إله البحار مباشرة. فقد كان اسمه قبل ذلك بوسيداو. كما كان ثمَّة إلهة تدعى بوسيديو، وأخرى باسم إيمايا. وقد كانت هذه نظيرة الإله هرمس، إله التجارة. وكان هناك أيضاً الإله أريس، إله الحرب الذي كان اسمه قبل ذلك إينيال. لكن هذه التفاصيل ليست مهمة بالنسبة إلينا، فالواضح أمر واحد، هو أنه مع تمازج الشعبين كان يندغم آلهتهما أيضاً ويتحولون، لكن التوافق التام بين هؤلاء الآلهة وأولئك، كان أمراً مستحيلاً. فالآخيون مثلاً، لم يتخلوا قط عن بعض آلهتهم البلقانيين، الذين لم يكن لدى الإغريق نظراء لهم. ومع ذلك تحول هؤلاء بعد ذلك إلى آلهة عظام سكنوا الأوليمب. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن جبل إيدا في كريت كان يدعى جبل الأوليمب. وكان هذا الجبل الذي ولد عليه الإله الإغريقي زيوس. وشبّ.

لقد أقيمت المعابد على قمم الجبال، وأحيطت بالأسوار، واتصلت مع الشيوخ بأرصفة.

وطالب آلهة كريت بقرابين، ولم تكن هذه ذبائح من الحيوانات دائماً، وهذا ما تؤكده أعمال السبر الآثاري. فقد كان آلهة كريت يحتاجون حياة البشر ودماءهم، لا سيما الأطفال منهم. ففي كنوسوس، عاصمة الملك مينوس، عثر الآثاريون على قاعة مليئة بالأواني الكبيرة. وعثروا في كل إناء على أجزاء من هياكل عظمية لأطفال. وقد حملت بعض عظام الأطفال الضحايا آثاراً واضحة لعملية تقطيعهم أشلاء. وهذا ما يسمح لنا أن نؤكد أن عبادة زيوس الكريتي كانت مزدهرة في كريت. وكان المقاتلون الفتيان هم الذين يؤدون طقوس هذه العبادة: فيرتدون دروعاً برونزية، ويقدمون الأطفال قرابين لوثنهم. أما الإلهة الأم (إلهة

الخصب)، فلم تكن تحب الدماء. ولذلك لم تطالب بأن تقدم إليها ذبائح من الأطفال، واكتفت بالثعابين والحمام.

لقد اندغم الآخيون بالإغريق، وشنّوا بعد ذلك حملة توسعية كبرى. ثمَّ دعوا أنفسهم هللينيين، ودعاهم الإيتروسكيون ثمَّ الرومان إغريقيين. ومن المعروف أن الثقافة الهللينية تشكلت تحت تأثير ثقافات الشعوب التي أخضعها الإغريق لسيطرتهم. وكان البيلاسغيس البلقانيون أحد تلك الشعوب. وقد كانت لدى هؤلاء تصورات عن الآلهة أكثر تقدماً ورقياً. وكان البيلاسغيس قد عرفوا كذلك المعابد والكهنة المتنبئين.

وكان للكنعانيين أيضاً تأثير عظيم جداً في تشكيل الثقافة الهللينية. وعند أواخر الألف 2ق.م، كان هؤلاء قد شغلوا مساحات شاسعة جداً من الأراضي، امتدت على سواحل البحر المتوسط الأفريقية والأسبانية، وجزر وشبه جزر كان يقطنها الإغريق. ومن المعروف أن الأبجدية الإغريقية ذات منشأ كنعاني. كما كان لشعوب وأقوام أخرى كان للإغريق معها تواصل مادي وروحي، تأثير واضح على معتقداتهم الدينية وثقافتهم. لكن معالجة هذا الموضوع لا تدخل مجال هدفنا هنا. لذلك سوف يقتصر اهتمامنا به على تقديم وصف موجز عن آلهة الإغريق والمهمات التي أنيطت بهم.

إذاً، كانت *الإلهة الأم العظمى* هي الرئيسة بين هؤلاء. لكن أب الآلهة ما لبث أن شغل هذه المكانة. وكان هذا الأب هو الإله *بوسيدون* في بادئ الأمر، ثمَّ حلَّ محله الإله زيوس. بيد أن بوسيدون حافظ على ألوهيته، لكن أبرشيته اقتصرت على البحر. أما *زيوس* نفسه فقد امتلك وحده من القوة ما كان يفوق القوة التي كان يمتلكها الآلهة الآخرون مجتمعين. وقد عبّر هوميروس عن ذلك في الصيغة الآتية: إذا ما أمسك الآلهة كلهم بالسلسلة الحديدية المقدسة التي يرمي بها زيوس من السماء، فإنه لن يكون بمقدورهم شدّه إلى الأرض، بينما يستطيع زيوس بدفعة واحدة أن يرفع الآلهة والأرض إلى السماء.

ديميتيرا. أخت بوسيدون وزيوس. إنها الأم - الأرض، ربّة الطبيعة التي ترى كل شيء. ابنتها هي الإلهة برسيفوني، إلهة النباتات التي تموت كل عام ثمَّ تحيا من جديد. وكانت هيرا زوجة زيوس هي حارسة شعائر الانتقال الصارمة، من سن الفتوة إلى فئة الرجال البالغين. ومن المعروف أن شعوباً كثيرة كانت تعرف مثل هذه الطقوس. وقد انعكست المحن المضنية التي كان ينبغي على الفتيان اجتيازها لكي يلتحقوا بفئة الرجال البالغين، انعكست في مآثر هرقل الشهيرة. واسم هرقل نفسه يعني: «الذي يمجّد هيرا». لقد كان هرقل ابناً لزيوس، لكن والدته كانت امرأة من البشر، لذلك كانت هيرا تلاحقه وتضطهده.

أرطميس: إلهة الموت، صيادة ومقاتلة شرسة. تردد شخصيتها أصداء شخصية ربة الحيوانات البرية القديمة. عبدوها على الدانوب، وفي آسيا الصغرى، وسهوب يوراسيا. حيوانها المقدس هو الدبة. وبصفتها إلهة الموت، تقف أرطميس في مواجهة الإلهة أثينا، الإلهة التي تحمي الحياة والعمل السلمي. لقد كانت أثينا غزّالة، ووقفت عند بدايات ابتكار الزراعة، وتدجين الحيوانات البرية، ونشوء المهن، وإخضاع البحر. ولذلك ليس غريباً أن تكون هي الإلهة الشفيعة الحارسة لدولة المدينة. فرسموها حاملة رمحاً وتعتمر على رأسها خوذة حربية.

وكان لأرطميس أخ توأم، هو الإله أبوللون، الإله الصارم القاسي، الذي لا يعرف الرحمة. وقد تجلت صفتاه هاتان في كل خطوة كان يخطوها. والشواهد على ذلك كثيرة. فمرة سلخ أبوللون جلد منافسه في مباراة العزف الموسيقي. وممّا يذكر أن هذا لم يحدث إلا بعد أن طرأت تحولات مهمة على شخصية هذا الإله. ففي بادئ عهده كان أبوللون إلهاً متغطرساً يتقن استخدام القوس، فقد قهر التنين المتوحش. لكنه غدا فيما بعد حاضناً للفنون، أي إنه استبدل بالقوس القيثارة. ولكن صرامته لم تترك مكاناً للرحمة والعطف.

وكان لأبوللون خصم نقيض، هو الإله ديونيسيوس، الذي أماتت الإلهة هيرا الغيورة أمه. فألقى الإله المقبل نفسه خديجاً. لكن زيوس لم يترك ابنه، فحمل به هو نفسه ما تبقى من الحقبة الحمل الطبيعي، ثمَّ عهد به إلى الحوريات ليربينه. وقد تربّى الإله ديونيسيوس وشب في مكان ما في الشرق. ولما اشتد عوده مضى يجوب العالم، حتى وصل إلى الهند. وكانت صناعة الخمر هي ميدانه في الحياة العملية. ويرمز ازدهار زراعة الكرمة وصناعة الخمور، لعودته إلى الوطن.

هرمس: رسول زيوس، وإله التجارة، وشفيع اللصوص. وكانت له إضافة إلى ذلك وظائف أخرى. فهو الذي يقود الأرواح إلى المملكة السفلى. كما كان هيفيستوس يرتبط في بادئ عهده بمملكة الأموات، لكنه غدا بعدئذٍ حامي المهن. لقد كان هيفيستوس ابن زيوس وهيرا. وولد على الأوليمب. لكن الوليد كان يثير اشمئزاز والدته هيرا، فرمت به إلى البحر. فأنقذته الحوريات واهتممن بتربيته. وما إن بلغ سن الرشد حتى امتلك هيفيستوس أسرار مهنة الحدادة، وعاد بعد ذلك إلى الأوليمب. وكان هدفه سلمياً لا عدوانية فيه: أراد أن يخدم سكان الأوليمب، فالآلهة أيضاً كانوا يستخدمون السلاح الأبيض. وقد عانى هيفيستوس معاناة مريرة قبل أن تستتب حياته الإلهية. لكنه كوفئ أخيراً بأجمل امرأة زوجة له؛ إنها

الآسرة، الفاتنة، حارسة الحب الجسدي أفروديت. لقد أنجب زيوس الآلهة كلهم، ما عدا أفروديت، فهي ليست ابنته، بل ابنة إله السماء أورانوس. فقد سقطت بذرة هذا الأخير في مياه البحر، ومنها ولدت أفروديت. وليس لدى العلماء ريب في أن أفروديت أكثر قدماً من آلهة الأوليمب الآخرين، وأن موطنها الأصل كان في الشرق. وعاش على الأوليمب إله آخر أقل شهرة من الآلهة الآخرين. إنه الإله أريس، الذي كان يجسد العنف العبثي. ويبدو على وجه اليقين أن أريس كان فيما مضى إلهاً دموياً، إله الحرب.

أما المملكة السفلى (عالم الأموات)، فقد كان سيدها هو الإله هاديس. وفي بادئ الأمر كانت مجالات النفوذ كلها موزعة بين الآلهة على النحو الآتي: زيوس ملك السماء، وبوسيدون ملك الأرض، وهاديس (أي اللامرئي) ملك المملكة السفلى. لكن زيوس هزم بوسيدون وطرده من الأرض، فاقتصر نفوذ هذا الأخير على المياه الواهبة الحياة. وبقي هاديس يحافظ على مصالحه في حكم المملكة السفلى كاملة غير منقوصة. وتبدو هذه المملكة على النحو الآتي. يحيط بها نهر ستيكس بتسع حلقات، ويلتقي مع نهر الأحزان كوتسيت، الذي يصب في نهر ليتو (أي نهر النسيان). وكل من يمضي إلى العالم الآخر عليه أن يعبر نهر ستيكس في قارب نوتيّه هارون النوتي. وكان هارون يتلقى أجراً عن الخدمات التي يؤديها. ولذلك كانوا يزودون المتوفى بقطعة نقود يضعونها في فمه قبل أن يوارى الثرى. أما منزل هاديس في المملكة السفلى، فهو محاط ببوابات حديدية تغلق برتاج مهول. ولذلك رسموا صورة هاديس حاملاً مفتاحاً كبيراً. لقد كان هاديس هو المسؤول عن حماية أرواح الموتى، وقد اقتنى لهذه الغاية كلباً حارساً له ثلاثة رؤوس، وتغطي الثعابين جسده. وكان كلب هاديس هذا يدعى كير بيريوس. كما كانت لهاديس زوجة، هي برسيفوني ابنة ديميترا، وكان هاديس قد خطف برسيفوني عنوة. ولكن لما كانت برسيفوني إلهة الحبوب، فإنها لم تكن خالية من التزاماتها الأساسية سوى ثلاثة أشهر في العام أي في الشتاء عندما يموت كل شيء.

ولكن فريق آلهة الأوليمب لم يتشكل بكامل قوامه إلا في القرنين 6-5ق.م.

لقد كانت تصورات الإغريق عن الآلهة تصورات بدائية جداً، على الرغم من أن ذلك الزمن (وهو زمن بوذا وزارادشت)، عرف منظومات دينية عميقة ومعقدة، عالجت مسائل خلق الكون وإدارة شؤونه. ومن المعروف أن رؤى الإغريق عن خلق الكون قد تشكلت كلها تقريباً تحت تأثير التعاليم الشرقية. فعدّ خلق الآلهة للعالم بمثابة تجاوز للخراب الكوني، وحالة السكون الكونية. ففي البدء لم يكن ثمَّة سوى الخراب الكوني (الكاوس)، ثمَّ ولدت الأرض (جيّا) ذات الصدر الرحب. وولدت

بعد ذلك أعمق أعماق الأرض (تارتاروس). ثمَّ ظهرت الشهوات والرغبات (أيروس). وأنجب الإله أيروس الليل (نيكتوس)، والديجور (إيريبوس)، وخرج الأثير والنهار من الديجور والليل. وأنجبت الأرض (جيّا)، السماء. وكان الشاعر الإغريقي القديم هسيود قد عرض نظرية نشوء الكون (كوسموغونيا) هذه، في قصيدته الملحمية: «الثيولوجيا». ومن المعروف أن هسيود عاش في زمن تفصله عن زمن هوميروس مئة وخمسون عاماً. وكان هوميروس قد وصف بدوره عملية خلق الكون. وقد جاءت منظومته أكثر بدائية من منظومة هسيود. وغني عن البيان أن أيّاً من هذين الشاعرين العظيمين لم يكن كاهناً متنبئاً؛ إنما اعتمد كل منهما على المصادر التي كانت متوافرة لديه. وقد ارتبطت تلك المصادر بثقافات الشرق. فعلى مدى زمن طويل بقي الاعتقاد السائد، هو أن الدور الرئيس في بناء تصورات الإغريق عن خلق الكون، إنما ارتبط بالتصورات التي طورتها حضارات مصر، وآشور، وبابل، وكنعان. ولكن المعطيات التي توفرت عن الميثولوجيا الحورية، تؤكد بدلالة واحدة أن كل شيء، أو تقريباً كل شيء، قد خرج من هنا، من الميثولوجيا الحورية. فمن هذه الأخيرة على وجه التحديد، أخذ الإغريق العناصر الأولى لتصوراتهم عن خلق الكون. لقد ملأ هسيود نظام خلق الكون الذي عرفه الشرق، بأسماء آلهة هللينيين وهندوأوروبيين. وقد اعتمد هذا النظام عينه في الإينيادا الرومانية. وعليه فإننا نستطيع أن نقول الآن: إن هذا النظام بات نظاماً كلاسيكياً؛ مع أنه كانت ثمَّة منظومات أخرى عن بناء الكون. وقد ساق إيبيمينيدس واحدة منها في العام 500ق.م. ووفق منظومة إيبيمينيدس هذه: إن الهواء والليل كانا بداية كل شيء. فمن زواجهما ولد تارتاروس وإلهان، ثمَّ أنجب هذان بيضة كونية. وسوف يجد القارئ في هذا الكتاب، إشارة أخرى إلى البيضة الكونية. فقد عرفها نظام خلق الكون عند الهندوآريين أيضاً. وتنبغي الإشارة هنا إلى أنه كان لدى الهللينيين أسطورة عن ليدا، التي جاءها زيوس في صورة ذكر البجع، ومن اتصالهما وضعت ليدا بيضتين، ففقست إحداهما الحسناء يلينا ملكة إسبارطة، وفقست الأخرى التوأمين الديوسكوري.

وتثير حياة الكهنة في اليونان القديمة، بعض الاهتمام. فلم يكن فيها فئة كهنوتية مغلقة لها امتيازات، كما كانت عليه الحال في مصر، على سبيل المثال. فقد اعتقد الإغريق أن الآلهة يختارون بأنفسهم الناس الذين يلقون عندهم حظوة. لذلك كان اختيار الناس للمناصب الكهنوتية يجري بالقرعة. وكانت نتيجة هذه الأخيرة تجلياً لإرادة الآلهة. ولم يكن هذا الأمر وحده الأمر الجديد. فما يثير الاهتمام أيضاً أن الكهنة الإغريق كانوا يحصلون على لقمة عيشهم بعرق جبينهم. فقد كانوا يعيشون على القرابين، كما سمحوا لهم بأن يتلقوا أجراً لقاء الحفاظ في منازلهم على مختلف كنوز الدولة والأفراد. وكان من حقهم أن يستفيدوا أيضاً، من لحوم ذبائح القرابين، وبيع جلودها، وقرونها، وأظلافها. قصارى القول: إن الكهنة

الإغريق لم يكونوا أناساً فقراء. أما كبار أغنيائهم فهم الكهنة الذين كانوا يخدمون في المعابد الهللينية المشتركة، لأن الدخل هناك كان أكبر.

ولم تكن هناك معايير سلوك محددة تضبط السلوك الشخصي للكهنة. ففي بعض المعابد كان عليهم أن يلتزموا بالبتولية، بينما فرض عليهم الزواج في معابد أخرى. فالمسألة هنا، هي أن الكهنة كانوا يشرفون على شؤون عبادة الآلهة والإلهات. لقد كان في كل معبد خادم أو أكثر لكل عبادة؛ لذلك كانت المحرمات تختلف من معبد لآخر. ففي معبد بوسيدون في ميغارا مثلاً، كان يحرم على الكهنة أن يتناولوا في طعامهم بعض أنواع الأسماك، بينما حرم على زملائهم في معبد أثينا المديني أن يأكلوا الجبن الطازج. بيد أن هذا كله لم يتسبب بأي إرباك لحياة الكهنة أو الكاهنات. فهؤلاء هم عادة أغنياء، وغالباً ما كانوا يُكافؤون بالأكاليل الذهبية، وسوى ذلك من التقدمات والهدايا.

لقد كانت معابد الهللينيين تتوفر على ثروات كثيرة. كما كانت تخزن فيها كنوز كثيرة جداً. ولذلك كان يجب حمايتها من اللصوص المحليين، والغزاة الأجانب. وبهدف الدفاع عن مقدساتهم وكنوزهم، فقد شكل الهللينيون اتحاد المدن الهللينية المقدس، وكانت مثل هذه الاتحادات قد نشأت حول المعابد الهللينية الشهيرة كلها.

ونحن يجب أن نعترف للإغريق بحسهم الوطني العالي. فلم ينس هؤلاء شهداءهم الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن. فجعلوا منهم أبطالاً. ومن الجدير ذكره أن أحداً لم يحظ بهذا الشرف، إلا الذين ضحوا بحياتهم في سبيل مجد الوطن. لقد قدموا لهؤلاء القرابين عند أضرحتهم. وما تجدر الإشارة إليه: إن الإغريق لم يؤدوا آيات التبجيل لأبطالهم فقط، بل للغرباء الذين قدموا قدوة يمكن أن يقتدي بها المواطنون الإغريق. ومن هؤلاء على سبيل المثال، الغريب ثيسيوس الذي رفعه الإغريق إلى مرتبة الأبطال الإغريق. ورأوا فيه مؤسس القوة البحرية الأثينية، وبما أنهم كانوا يقدمون القرابين عند مقابر الأبطال، لذلك اكتسبت هذه الأخيرة أهمية خاصة بالنسبة لدول المدن. وقد أدى الأبطال دور حماة المركز السكاني المعني، أي دولة المدينة. وكانوا يؤدون الصلوات في هذه الأماكن، ويقدمون لكل بطل قرباناً مما يحب: فقدموا لهرقل قرابين دموية لأنه كان محارباً، وقدّموا لتلنتولوس الذي أشاع العمل الزراعي، قرابين من الخبز. وتبعاً لهذه القاعدة، كان البطل السكيثي توكساريس يتلقى ذبيحة جواداً رائعاً كل عام. كما قدموا ذبائح من الثيران لبعض الأبطال، ولآخرين قرابين من الأكباش، و...

وكانوا يسيّرون المواكب في كل عام، إلى الأماكن التي شهدت المعارك المفصلية في تاريخهم، كما سيّروها كذلك إلى مواقع المقابر الجماعية لشهداء

الدفاع عن الوطن. وكان يقود تلك المسيرات العظمى أبرز شخصيات دولة المدينة. وكانت تلك مشاهد مهيبة، إذ ينطلق الموكب ليلاً على أضواء المشاعل، وكان المشاركون فيه يرتدون أردية أرجوانية. فيدور السيل البشري حول مقابر شهداء حرية الوطن. واعترافاً بالجميل لمن قدم دماءه من أجل منعة الوطن، كانوا يغسلون شواهد قبورهم الحجرية، ويسكبون عليها الطيوب، وينثرون الطحين المقدس، ثمَّ يؤدون طقس سكب الخمرة. وبعد ذلك كان يدار على المشاركين كلهم بكأس واحدة من النبيذ، فيرشف كل منهم رشفة صغيرة ويردد: «إني أشرب نخب من سقط دفاعاً عن هلادا». وكانوا يقدمون في آخر المطاف ذبائح من الثيران السوداء، ويرفعون الصلوات لزيوس، وهرمس السفلي.

وفي زمننا هذا لا يُرجع أحد الألعاب الأوليمبية المعاصرة، إلى ميدان النشاطات الدينية. ولكنها نشأت في اليونان القديمة بصفتها مظهراً من مظاهر خدمة الآلهة. ومن المعروف أنه كانت تقام في بلاد الإغريق قديماً، شتى الألعاب الشعبية، إن على المستوى الإقليمي أو على المستوى الإغريقي العام. لقد كانت الألعاب الأوليمبية ألعاباً إغريقية مشتركة. وكانت تنظّم مرة كل أربع سنوات. لكن أول دورة من هذه الألعاب، كانت ذات طابع جنائزي، إذ أقيمت على شرف البطل بيلونوس. وكان قبره يقوم عند ملتقى نهري ألثيه وكلاديه. كما أخذت شبه جزيرة البيلوبونيز اسمها من اسمه. وحسب الرواية أن هرقل نفسه شارك في دورة الألعاب الأوليمبية الأولى، وقد فاز بالمباريات الرياضية كلها، لكن تاريخ أولى دورات هذه الألعاب الأوليمبية غير معروف حتى الآن. بيد أنه يتوفّر لدى العلماء الآن معطيات عن الألعاب الأولمبية التي أقيمت في العام 776ق.م. ومن ذلك التاريخ بدأ الإغريق القدماء يؤرخون أحداث حياتهم. ومن المعروف أن الحروب والصدامات كانت تتوقف كلها أثناء إقامة الألعاب الأوليمبية. وزعموا أن الإله زيوس نفسه كان يحرس الدروب التي تقود إلى أوليمبيا.

لقد كانت الألعاب الأوليمبية فعلاً مقدساً. وكانت المباريات الرياضية تعد جزءاً لا يتجزأ من المراسم المقدسة. وكانوا يقدمون في أثنائها القرابين لزيوس وهيرا وسواهما من الآلهة والإلهات. وكان الظافر في الألعاب الأوليمبية يعدّ شخصاً ميّزه الإله. فيقلّد إكليلاً من أغصان شجرة الزيتون المقدسة التي كانت تنمو في أرض المعبد. وكان البطل الأوليمبي يحظى في بلاده بآيات المجد والتكريم التي لم يكن يحظى بها أحد آخر سوى الآلهة. وعدا عن الألعاب الأوليمبية كانت تقام في بلاد الإغريق ألعاب هللينية أخرى، من أشهرها، ألعاب دلفي التي كانت تقام على سفوح جبل بارناس. وقد كرّسوا هذه الألعاب للإله أبوللون. وبما أن أبوللون كان حارس مختلف الفنون، لذلك أولوا هذا الميدان اهتماماً خاصاً في المباريات. لكن برنامج

الألعاب الدلفية، كان من حيث أنواعها، هو برنامج الألعاب الأوليمبية عينه. وقد اعتقدوا أن أبوللون نفسه أسس ألعاب دلفي. لقد تبارى هنا الشعراء، والموسيقيون، والخطباء، والممثلون الإيمائيون، و... وكانت المباريات الرياضية تترافق بالعزف الموسيقي. ويوجد على جدار أحد مباني دلفي نص لمقطع موسيقي دوّن بعلامات النوتة الموسيقية.

وعلى برزخ كورينثوس (الاسم القديم لايستم)، كانت تقام ألعاب رياضية على شرف الإله بوسيدون. وكان هذا هو الإله الرئيس في تلك الأنحاء قبل أن يشغل زيوس هذه المكانة. وكان الفائزون في هذه الألعاب يُقلّدون أكاليل من أغصان الصنوبر. وفي وادي نمسيس كُرست ألعاب لزيوس، كان قد أسسها الأبطال السبعة الذين شاركوا في الحملة على طيبة.

لقد كانت المسرحيات الدينية التي تقام في إيلفسين في ضواحي أثينا، مرة كل عام، مكرسة لأسرار العالم الآخر. وكانت إقامتها بمثابة إعداد الذين يشاركون فيها للانتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر. ولم يكن اختيار مدينة إيلفسين لإقامة هذه المسرحيات فيها، أمراً من قبيل المصادفة. ففي زمن ما، كانت الإلهة كورا ابنة الإلهة ديميترا، تجمع الزهور في هذا المكان مع كل من أثينا وأرطميس. وعندما قطفت كورا زهرة زعفران، انشقّت الأرض أمامها، وعبر ذلك الشق حمل هاديس كورا، ومضى بها إلى مملكته السفلية وتزوجها، وبحثت ديميترا طويلاً عن ابنتها. وعانت الطبيعة معاناة مضنية جرّاء اختفاء كورا: جفت الأنهار، وأقحلت الحقول. فأحدقت المجاعة بالناس. لكن ديميترا عرفت أخيراً مكان ابنتها، وطالبت بأن يعيدها هاديس إليها من غير إبطاء. بيد أن ذلك، كان مستحيلاً، فقد كانت كورا فقدت الخلود، بعد أن أكلت من ثمار بستان العالم السفلي، من شجرة الرمان. عندئذٍ التأم مجلس الآلهة، واتخذ القرار الآتي: بعد أن باتت كورا زوجة هاديس، صار لزاماً عليها أن تقضي ثلث العام مع زوجها في المملكة السفلية، وتقضي باقي أيام السنة فوق سطح الأرض. وحينما تكون كورا على سطح الأرض، فإن هذه تزدهر وتطرح ثمراً. ومع رحيلها إلى العالم السفلي تغرق الأرض في سبات الشتاء العميق.

وعلى هذا المحور، محور الازدهار والسُّبات، بنيت المسرحيات الدينية الإيلفسينية. وبقيت هذه تُعرض وفق السيناريو عينه على مدى آلاف السنين، إذ كان عرضها قد بدأ منذ القرن 17ق.م. وبعد ألف عام آلت قيادتها إلى الأثينيين. وعلى وجه العموم لم يشارك في المسرحيات الإيلفسينية سوى مدينتين: أثينا التي كانت تمثل الحياة، وإيلفسين التي كانت تمثل الموت.

وكان كل شيء يبدأ هكذا: يجتمع في مدينة الحياة أثينا، كل الذين يزمعون المشاركة في المسرحيات لأول مرة (النيوفيتيون). ولكن لم يكن يلتحق بهؤلاء سوى العارفين باللغة الإغريقية، ممن لم تتلوث سمعتهم باقتراف أيّ إثم. أضف إلى هذا أنه كان على الشخص المرشح للمشاركة أن يجتاز بنجاح طقوس التكريس الصغرى، التي كانت تُؤدى قبل عام من بدء تأدية طقوس التكريس العظمى. وبعد اكتمال تشكيل الفريق المشارك، كان الكهنة يحملون تمثال ديونيسيوس من إيلفسين إلى أثينا. فالتمثال هو قدس المسرحيات الأعظم. وكانت تأدية الطقوس تبدأ في ثاليرون، وهي ضاحية من ضواحي أثينا، حيث كان يُؤدى فيها أول طقوس التكريس. وكان هذا الطقس يدعى «هيَّا إلى البحر أيها المشاركون». وكان الطقس يتلخص في أن كل مشارك فيه كان يقود فرخ خنزير، ويعوم معه في مياه البحر، ثمَّ يقدم كل منهم حيوانه هذا ذبيحة في أثينا. وبهذا الدم كان النيوفيت يغسل آثامه غسلاً رمزياً.

وبعد الانتهاء من تأدية الطقس الأول، يتابع الموكب مسيره بقيادة ديونيسيوس (أي بقيادة تمثاله طبعاً) والكاهنين الأكبرين. ولم تكن طريق الموكب تخرج من إيلفسين، بل تمتد فيها، فيسير المشاركون على «الطريق المقدسة» انطلاقاً من مدينة الحياة أثينا، إلى مدينة الموت ايلفسين. وعلى الحدود بين المدينتين كان المشاركون يؤدون شعائر خاصة ترمز إلى عبور الحد الفاصل بين الحياة والموت. وكان يقوم هنا على هذا الحد، جسر يمتد فوق نهر كيفيس. ولحظة يعبر المشاركون بملابسهم السوداء، تنزل اللعنات الطقسية على رؤوسهم، وكانت هذه ترمز إلى إماتتهم شعيرياً. ثمَّ يصل الموكب بعد ذلك إلى مملكة الزعفران. والزعفران هذا هو إله زهرة أسطوري، وهو عينه الذي خسرت الإلهة كورا حياتها بسببه. وهنا في مملكة الزعفران، كانوا يقيّدون المشاركين بقيود رمزية (أي يقتلونهم). فيربطون على اليد اليمنى والساق اليسرى لكل منهم، شريطاً بلون الزعفران. وكان ينبغي بعدئذٍ اجتياز حد آخر، هو المستنقعات. فقد عدوا هذه الأخيرة بيئة الخلق الأول. وكان المشاركون يدخلونها بصفتها عتبة العالم الآخر. وهنا يكون الموكب قد بلغ هدفه الأخير: ايلفسين، «الميّتة» طقسياً وأسطورياً. لكن ذلك كله لم يكن يعني أن محنة النيوفيتيين قد انتهت. فالمرحلة الأقسى والأكثر رعباً، كانت لا تزال بانتظارهم. وقد كانت الفكرة تتلخص في أنه ينبغي على كل منهم أن يعيش حالة الرعب والفزع من الحيوانات معاناة حقيقية، وليست طقسية في هذه المرة. لقد كان عليه أن يعاني شدة نفسية قاسية. لأنه بذلك فقط يستطيع أن يلقي نظرة على لجّة العالم الآخر. وكانت أفعال المعاناة هذه تجري كلها في مدينة ثيليستريون. ثمَّ بعد أن يعيش المشاركون حالة الخوف من الحيوانات في مكان مظلم ظلاماً دامساً، تتردد في أرجائه صرخات وحشية، كان يظهر أمامهم على حين غرة، نور ساطع يريح النفس، وتتهاوى إلى أسماعهم أنغام موسيقا. فلحالة التضاد في مثل هذه الأجواء أهمية بالغة، إذ ترمز بذاتها إلى انتقال المشاركين في

الطقس من الموت إلى الحياة. فيرتدي المنبعثون من الموت حللاً بيضاء. وفيما هم يعيشون حالة الانفعال النفسي تلك، يظهر أمامهم الرمز الإلهي.

وكان يمكن أن يتواصل طقس التكريس الأعظم، الذي يلي طقس التكريس الأصغر، بعد مرور عام واحد. إذ بعد أن يعيشوا حالات جديدة من الشدة النفسية، يغدو المشاركون الذين يرغبون بالالتحاق بالدرجة التكريسية الأعلى، «مدركين لما لا يُدرك»: يظهر لهم المغزى الإلهي، الزهرة التي قطفتها الإلهة كورا.

لقد كانت مراسم التكريس الأعظم التي وصفناها هنا تستمر سبعة أيام، يعود بعدها المنبعثون من الموت إلى مدينة الحياة أثينا. ولدى عبورهم جسر نهر كيفيس، كان هؤلاء يتعرضون لازدراء طقسي. وكان يجب أن يُفهم ذلك على أنه عودة إلى حياة جديدة.

وفي مسرحيات ديونيسيوس الأكثر قدماً، وهي المسرحيات التي كانت تقام في دلفي، كانت تشارك فيها الكاهنات المجنونات (أي الميناديس). وقد عهد لهن بتأدية الدور الرئيس فيها. لقد كانت هؤلاء تدفعن بأنفسهن حتى حالة الجنون، ثمَّ تقدمن الحيوان الإلهي ذبيحة، ويلتهمن جسده ودمه. وكان ذلك يعني انبعاث الإله من الموت وتحقيق فعل «الزواج المقدس». كما كانت الحية رمزاً لانتصار الحياة، لذلك كانت الكاهنات تحملن الثعابين تحت ثيابهن. وربما لهذا السبب وصفن بالجنون.

ومع مرور الزمن تغير سيناريو تلك المسرحيات. فقد كف المشاركون فيها عن شرب دماء حيوان الذبيحة. ولكن جوهر المسرحيات بقي هو عينه ولم يتغير: إلقاء نظرة على العالم الآخر عبر بلوغ حالة الشدة النفسية، وما يجدر قوله: إن عرض تلك المسرحيات استمر حتى العالم 396م، عندما دمر الغوط الغربيون معبد إيلفسين ونهبوه.

مجْمع آلهة الرومان

لم يكن لدى الرومان القدماء مجمع آلهة خاص بهم، لأن هؤلاء لم يكن عندهم آلهتهم الخاصة، وبقدر ما تفكر أكثر في جوهر المجتمع الروماني القديم، بقدر ما تكتشف من العناصر المشتركة بينه وبين المجتمع الأمريكي المعاصر بنفعيته، وتدني مستوى ثقافته الشعبية، وفقره الروحي، وغياب الخيال عنه، وهجرة الإيمان الحقيقي منه، ونحن لا نقصد هنا إلى الإيمان العقلي، بل الإيمان النابع من القلب، أي الإيمان الذي لا يسأل أحد عما يعطيه هذا الإيمان له، أو عن حاجة المجتمع له. فالروح والإيمان هما أسس الحياة، والملاط الذي يحقق رسوخ البناء الاجتماعي واستبدل بهذا الملاط الإسمنتي عند الرومان القدماء، رمل النفعية وتحقيق المكاسب (الفردية أو الاجتماعية، لا فرق). لذلك انهارت التراتبية الاجتماعية الرومانية، على الرغم من أن طول بقائها يثير انطباعات كثيرة. أما النظام التراتبي العالمي الجلف الفظ، فإنه سوف ينهار وأسرع كثيراً، لأن هذا البناء كله مبني بغير هذا الملاط الإسمنتي المتين، وبغير هذا الإيمان الصادق بالقوى العليا، بالمغزى الأسمى للحياة. ولا يمكن للأرصدة المصرفية أن تحل محل هذا المغزى، ولذلك فإن النهاية المأساوية لهذه الحضارة التي قيّدت العالم كله تقريباً، من قرونه، وأحرقت كل ما هو حي صادق فيه، ودمرت كل ما هو سام ونبيل، نهايتها هذه باتت قريبة. فلم يكن لدى الأمريكيين، ولا يمكن أن يكون لديهم دستويفسكي، وتولستوي، وتشيخوف، وتشجيفسلي. فنظامهم ليس مبرمجاً لإنجاب مثل هؤلاء.

ولم يكن ذلك مبرمجاً لدى الرومان أيضاً. فلم تتصل روحهم يوماً بالآلهة، بل كانوا ينتقون هؤلاء حسب الحاجة، عند الضرورة. وقد رأوا أنه ما دامت القوة موجودة، فلا حاجة للروح. وعندما كانوا يقهرون الشعوب الأخرى، كانوا يذلون آلهتها أيضاً. وبنوا لهم المعابد، لكن ليس إيماناً بهم، إنما طمعاً في تحقيق المنافع من هؤلاء الآلهة المستعبَدين لقد برّأ الرومان أنفسهم من الآلهة بتعطشهم لتحصيل

المنافع الاجتماعية منهم، وكان يجب أن يسوّغ هذا لهم كل شيء. إن التاريخ لم يعرف أبداً شعباً كالرومان كان فقيراً إلى العنصر الرئيس: الروح والإيمان.

وغني عن البيان أن هذا الحال لم يدم إلى الأبد، إنما تشكل مع ترسيخ أركان الإمبراطورية الرومانية. وقبل ذلك كان سكان إيطاليا يؤمنون بالآلهة والمعبودات، مثلهم في هذا مثل الشعوب الأخرى كلها. لقد كانت لهؤلاء تصوراتهم عن آلهة السماء، وهي تصورات ومعتقدات ورثوها عن معتقدات الماضي الهندوأوروبي البعيد. ولم يكن هؤلاء الآلهة قد نظموا بعد. فلم يكن لهم مقرّ واحد ثابت. بل كانوا يقيمون في شتى الأدغال. وكان سكان إيطاليا يخاطبون آلهتهم هكذا تقريباً: «أعينونا أيها اللاري، لا تسمح يا مارس بنزول الأمراض والخراب على الكثيرين. اشبع يا مارس الصارم. اقفز على العتبة، وابق هناك. سوف ندعوكم بالتناوب يا سيموني». واللاري والسيموني، أرواح: فالأولى تحرس الناس، وتحرس الثانية المزروعات. كما كانت هناك أرواح للمياه، والأنهار وقد تخيلوها في صورة ثيران رهيبة جامحة، أو فتيات آسرات الجمال، رخيمات الصوت. وقد دعوها بالكارمينات. وكلمة «كارمين» تعني باللغة الإغريقية «أغنية». وكانت هناك أيضاً أرواح للعناصر، والأشياء، والمواد الأخرى. لقد كان كل شيء مكلوءاً بالأرواح. ونحن كنا قد قلنا إن حقلاً واحداً من المعلومات كان يمتد عبر كل شيء. ولذلك لم يكن ثمَّة مغزى في أن تعطى الأرواح والمعبودات أسماء أو علامات مميزة. كما لم تكن هناك حاجة لرسم صور لهؤلاء، ومنحهم صورة إنسان، أو حيوان، أو هيئة تجمع بين الشكلين. لقد ظهر الإيمان في صورته النقية البدئية، بغير تقسيم الآلهة، وتوزيع ميادين النفوذ عليهم. فالآلهة لم يقاتل بعضهم بعضاً، ولم يتزاوجوا، ولم يلاحق أحدهم الآخر. بمعنى آخر، إن هؤلاء لم يسلكوا سلوك البشر، بل بقوا آلهة، وبمعنى أدق كانوا تجلياً لإله واحد أحد. وبقدر ما يكون الإنسان أقرب إلى الطبيعة، بقدر ما يكون تصوره عن العالم المحيط أكثر دقة وقرباً من الواقع. وما له دلالته في هذا السياق، هو أن بعض الأرواح لم يكن ينتمي إلى أي من الجنسين، وهو أمر طبيعي. لقد كان المحيط مليئاً بالأرواح. فلكل تل من تلال روما السبعة روحه الخاص به، إلهه. وكانوا يقدمون القرابين لكلّهم مرة واحدة يوم العيد المشترك الذي كان يدعى عيد التلال السبعة. ومن المعروف أن الرومان[1] والسابين كانوا قد استوطنوا تلك الأماكن. وكان لكل منهم لغة مختلفة. وقدّم الرومان الإيطاليون القرابين لشجر البلوط والتين وما شابه. وعندما كانوا يقسمون اليمين كانوا يشهدون على ذلك الآلهة والشجر. وفي روما نفسها كانوا يبجلون شجرة التين أسمى تبجيل. لقد كانت شجرة التين، هي الشجرة التي أرضعت الذئبة تحت ظلها مؤسسي روما: رومولوس وريموس.

١- اللاتين وليس الرومان، لأن الرومان لم يكونوا قد ظهروا بعد. - المترجم..

ومن قبل أن تظهر الدولة كانت عبادة الآلهة راسخة جداً في كل عائلة (عشيرة) رومانية. وكان رب العائلة هو الذي يقيم طقوس عبادتها. ولم يكن يُسمح للغرباء حضورها، لأن ذلك عدّ كفراً. وكان ثمَّة إلى جانب العائلة (= العشيرة)، طوائف الرجال التي كان يقيم طقس الذبيحة فيها شخص تختاره الطائفة من بين رجالها. وكان ينبغي أن يتصف هذا بالصفات الآتية: أن يكون قد تجاوز الخمسين من عمره، ألا يكون فيه أي عيب جسدي أو عقلي، أن يكون سلوكه نموذجاً يحتذى به. أما العنصر الأهم بالنسبة للحياة، فهو المحصول الجيد. ولذلك كانت الطوائف (= الكوريات) الرجالية تقدم قرابين لإلهات الخصب، وقد كنّ كثر.

لقد كان المجتمع الروماني يتألف من العشائر والكوريات، بيد أنه أخذ يتوافد إلى المكان رويداً رويداً مستوطنون جدد. ولم تكن أعداد هؤلاء قليلة. وقد حمل هؤلاء الوافدون اسماً مشتركاً، هو البليبس. بينما دعي الذين كانوا ينتمون إلى عشيرة من العشائر أو كوريا من الكوريات، باتريسي. وكان من البدهي أن يعد الباتريسي أنفسهم سادة المجتمع الروماني. ولم يسمح للبليبس الوافدين بحضور احتفالات السكان الأصليين، كالاحتفال بأعياد أقدم آلهة الرومان: وإقامة الطقوس المرتبطة بتأسيس روما. وما يثير الفضول، هو أن الباتريسي عبدوا آلهة مجردة، آلهة مغرقة في التجريد مثل: الشرف، والأمانة، والنصر، والوفاق.

ومن الوجهة النظرية، كان ذلك صحيحاً تماماً، لكنه كان خالياً من أي روح. أما البليبس، فقد كانوا أناساً يتميزون بحيوية أحاسيسهم، ومعتقداتهم، ومداركهم، ولكن قدرهم هو الذي ساقهم إلى روما، من شتى الأنحاء: من أراضي أريسيا، وتوسكول، وأناغنيا، وتيبورسا. وحمل هؤلاء معهم إلى روما أرواحهم وآلهتهم. ومن أولئك الآلهة، الإلهة فورتونا التي تأقلمت مع روما. ويبدو أن الملك الروماني السادس، سيرفيوس توليوس كان مناصراً للبليبس. فقد شيَّد معبداً لفورتونا، ووضع فيه تمثالاً خشبياً للإلهة، وكان هذا غريباً تماماً عن معتقدات الباتريسي. وعلى امتداد الطور الطويل من تاريخ العلاقات بين الباتريسي والبليبس، كانت طقوس خدمة آلهة كل فئة من هاتين الفئتين الاجتماعيتين، تقام على حدة، ولم يسمح بأي تداخل كان. وانسحب هذا التحريم الصارم حتى على المسائل ذات الطابع الاجتماعي. فالتنجيم على سبيل المثال، كان شائعاً شيوعاً عريضاً عند الرومان، ويبدو أن موقفهم منه اتسم بكثير من الجدية. فمن غير معرفة رأي المنجمين لم يكن ممكناً تحديد أي عمل له أهمية اجتماعية تذكر. ولكن لم يكن يسمح للبليبس أن يشهدوا إقامة مثل هذه الطقوس. وهذا

يعني أن البليبس أخرجوا إلى خارج الحياة الاجتماعية والسياسية الرومانية. وغني عن البيان أن ذلك أعاق تطوير بناء الدولة.

ولم تبن الدولة الرومانية وتترسخ أركانها، إلا بعد أن تمَّ تجاوز التباين بين حقوق الباتريسي والبليبس. فقد كان البليبس وآلهتهم يمثلون الشريان الحيوي الذي غذى بنية دولة روما. ومع ذلك كانت قيادة الدولة والمجتمع بيد الباتريسي. فقد كان هؤلاء رمزاً للفاتحين الأوائل، وحاولوا أن يُخضعوا كل شيء لنفوذ هذه الفكرة. بيد أن هذا كان موقفاً براغماتياً صرفاً. وبمرارة ظاهرة أشار الشاعر الروماني فرجيليوس في حينه، إلى أن «التربة الرومانية لم تحرث بمحراث الإيمان، ولم تبذر ببذار الخيال الديني». فلم يكن ثمَّة شيء هنا يشبه الزارادشتية، أو البوذية، أو حتى الهندوسية. لقد رأى الباتريسي في الدين نظاماً من المعايير معداً إعداداً دقيقاً. وقد وظفوا تلك المعايير كلها لخدمة غرض واحد، هو بلوغ الهدف المحدد من دون خسائر كبيرة. أما المعايير فقد كانت تحدد بدقة: إلى أي إله ينبغي التوجه، وبأي صيغة، وأي عهد يجب أن يقطع أمامه. إذن، لقد كان فهم الرومان للدين يتلخص في بلوغ الهدف المُعد مسبقاً، بأقل الخسائر المادية والمعنوية. ومن الواضح أن النظام الاجتماعي الديني الذي بناه الرومان، قد شكل لدى المواطنين مزاجاً ذا طابع خاص. فقد كان النظام المعني مبرمجاً لتطوير حس اليقظة، وحسن التدبير، والدقة في العمل، وقوة الشكيمة. وقد نمت عندهم في غضون ذلك روح الشكلية، وغابت روح التخيل. ومن البدهي إنه بغير الخيال لا يمكن أن تكون ثمَّة فلسفة، أو شعر، أو دين حقيقي، أو فن. وقد رأى الرومان في هذه كلها، أشياء زائدة لا لزوم لها. واتخذوا من الشعوب التي كان لها مثل هذه الإبداعات، كالإغريق، والمصريين، والسوريين، والأرمن، واليهود موقفاً مليئاً بالغطرسة والكراهية. ويذكّرنا هذا الموقف بالمتغطرسين الأمريكيين المعاصرين الذين يظنون أن بإمكانهم أن يقرروا مصائر الشعوب والبلدان في كل بقعة من بقاع الأرض، لكنهم في الوقت عينه عاجزون عن رؤية عجزهم الذاتي ومحدوديتهم. ولا يعيق هذا الأمر الأمريكان عن سلب البلدان الأخرى، كل ما يرونه ضرورياً لهم. وكذلك كان يفعل الرومان، إذ نقلوا آلهة الشعوب التي قهروها عنوة إلى بلادهم، آملين أن يؤدي هؤلاء لهم الخدمات المطلوبة. وكان أوفيديوس قد وصف هذا المشهد في قصيدته الملحمية «فاستا».

صمت الكاهن إذ استعرض الأفعال القدرية
في الأغاني الإيبية:
«ينبغي للروماني أن يجد لنفسه أمّاً».
من هي هذه الأم وأين تقيم؟
الآباء - أعضاء سينات روما في حيرة.

«ينبغي أن يُسأل أبوللون».
فأجاب هذا عن السؤال:
«ابحثوا عن أمكم بين الآلهة الخالدين على جبل إيدا الفريجي».
وكان الملك أثال قد امتلك فريجيا عندئذٍ بالصولجان.
فلم يمنح موافقته للسفارة التي وصلت من روما.
ووقعت المعجزة. لقد ارتجَّت الأرض حتى أعماقها.
وانفجر صوت الإلهة المختبئة في الجبال:
«أريد أنا أن أكون في روما. احملوني من غير تأخير.
سوف تغدو روما من الآن مسكن الآلهة الخالدين».

إذاً، لم يكتف الغزاة بما كانوا ينهبون، بل أرغموا الآلهة أنفسهم على تبرير نهبهم وتمجيده. فالإلهة بنفسها طلبت كما رأينا، أن تنتقل إلى روما. ولم ينتزعها أحد من أحضان الشعب الذي أنجبها، وعلق عليها آمال المستقبل. وظهر الأمر كأن الرومان قوم نبلاء؛ بينما هم لا يفعلون إلا ما يحقق مصالحهم. وهكذا يفعل الأمريكان اليوم غير آبهين بمصالح الآخرين.

ويبدو أن أوغسطين الطوباوي (354-430م)، كان محقاً عندما لاحظ أن الرومان جعلوا من آلهة الآخرين بحارة عندهم. فقد نقلت القوات الرومانية تمثال الإلهة أوني من المدينة الإيتروسكية العظمى أو المحتلة فيي، وجاءت به إلى روما. فقد تسلل الجنود الرومان إلى داخل المعبد عبر نفقٍ أرضي وسرقوا التمثال. ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي يسرق فيها الرومان تماثيل آلهة الشعوب الأخرى. ففي العام 364ق.م مثلاً، نقل الرومان إلى روما تمثال الإلهة نورتيا الذي كان قائماً في معبد مدينة فولسيني الإيتروسكية. ولم يفعل الرومان ذلك إلا أملاً في أن يصنع الآلهة لهم خيراً. وفي موطن الإلهة كانوا يدقّون كل عام مسماراً ذهبياً في جدار معبدها. ولكي تبقى الإلهة على نشاطها المعتاد، أقام الرومان لها النظام الذي اعتادت عليه. فحملوا معهم المسامير الذهبية من هناك، وصاروا يدقون واحداً منها كل عام في جدار معبد جوبيتر الكابيتولي.

ومن آسيا الصغرى حمل الرومان إلى روما تمثال الإلهة كيبيلا، أم الآلهة. وقبل قليل كان قد سقط قرب مركز عبادة كيبيلا حجر نيزكي أسود اللون. وقد عُدَّ هذا الحجر الصورة السماوية لأم الآلهة. فوضعوه في معبد مدينة برغاموس. وقد انتزع الرومان تلك المادة المقدسة من السكان

الأصليين، وشحنوه بحراً إلى روما. وشاعت إثر ذلك حكاية خرافية جعلت الرومان موضع إكبار وإجلال. فقد زعموا أن الأمر كان على الوجه الآتي: في الطريق جنحت السفينة التي كانت تقل الحجر السماوي ورست في مكان مياهه ضحلة. لكن عذراء فستالكا أنقذت الوضع. وكانت هذه كاهنة الإلهة فستا. لقد عجز الفريق كله عن زحزحة السفينة من مكانها. لكن الإلهة فستا باركت انتقال الآلهة الغريبة إلى روما (= المسوّغ الأخلاقي). ومرة أخرى ظهر الرومان في أعلى قمة السلم الأخلاقي (من وجهة نظرهم). وفي روما وضعوا النيزك المقدس في معبد فيكتوريا. ولم يكن هذا من قبيل المصادفة؛ ففي تلك الأثناء كانت تدور رحى الحرب البونية الثانية، وكان كلهم يفكر بالنصر (فيكتوريا) وحسب.

وحملوا مع كيبيلا إلى روما معشوقها الإله أتيس. وكان هذا الإله هو إله النباتات، لذلك كان يموت ويحيا دورياً كالزهور. ونذكّر في هذا السياق بأن الزهور وكذلك الأشجار نبتت كلها من دماء أتيس. وقبل رحيلها إلى روما، كانت الإلهة كيبيلا شديدة الغيرة على حبيبها أتيس، لذلك خصى الرجل نفسه في أثناء واحدة من نوبات جنونه. وقد وقع ذلك الحدث تحت شجرة صنوبر. ثمَّ تحول بعد ذلك إلى طقس مريع تلخص في إقدام الكهنة الغال على فعل ما فعله أتيس في حينه، فكانوا يخصون أنفسهم. لقد عمل الرومان على إرضاء كيبيلا خشية عزوفها عن مد يد العون لهم. واستقدم الرومان كهنة غاليين إلى روما لإقامة طقس الإخصاء هذا. ولم تردعهم عن ذلك مخالفة القرابين الدموية للدين الروماني، والمعايير الأخلاقية الرومانية. بل لقد أقاموا ذلك الطقس الشرقي الدموي على مقربة من معبد الإلهة فستا، التي كانت رمز العفة عندهم.

وعلى هذا النحو كان قوام آلهة الرومان يتغير تغيراً جوهرياً. وكان هؤلاء جماعة شديدة التنوع، وعليه فقد كانت أخلاق بعضهم وطقوسهم، تناقض أخلاق بعضهم الآخر وطقوسهم. لكن هذا لم يتسبب للرومان بأي إزعاج كان. فالأمر الأهم بالنسبة إليهم كان يتلخص في استغلال قدرات أي إله أو إلهة حتى الحد الأقصى. وبما أنه لم يكن لهم آلهة خاصة بهم، لذلك لجؤوا إلى الآلهة الغرباء. وقد كتب فرجيليوس في هذا السياق يقول:

لم تعبر الثيران أرضنا،
نافضة النار من خياشيمها،
ولم تدخل أخاديدها نيوب الهيدرا الوحشية،
ولم ترتفع رماح الرجال لخوض المعركة في سبيلها.

وفي عهد تيطوس تاتيوس نقلوا بعض آلهة السابين إلى روما. ولما اعتلى عرش روما الملك السابيني نوما بومبيليوس[1]، ضاعف هذا عدد آلهة السابين في روما. وكان هذا قد أنجز تشكيل الديانة الرومانية، وأنشأ التقويم الروماني. وفي روما ملوك إيتروسكيون من آل تركويني، ظهر الآلهة الإيتروسكيون على هضبة الكابيتول. ولم يبق من آلهة الرومان الأقحاح هنا سوى ثلاثة: مارس، وجوفينس، وثيرمين. وبعد أن استولى الرومان على المدن الإغريقية في جنوبي إيطاليا، أُقيمت في روما عبادة أبوللون. وكان هذا لا يزال يدعى وقتئذٍ باسم ميديكوس. فقد كانت المسألة الطبية عندئذٍ مسألة ملحة، لأن الرومان كانوا لا يزالون في بداية عهدهم مع الأوبئة. أما قبل ذلك فقد كانت معاناتهم مع الحمى فقط، وقد حاولوا اتقاء شرها بتقديم القرابين لإلهة حملت الاسم عينه: حمى. وخلافاً للإيتروسكيين، لم يدرك الرومان ضرورة التخلص من مصدر الحمى، أي المستنقعات. فجعلوا أبوللون ضد الوباء، ثمَّ نقلوا المهمة إلى ابنه إسكليبوس، إله المداواة، ودعوه باسم إيسكولاب. وخصصوا له أرضاً على جزيرة صغيرة قبالة سوق الثيران، وصاروا ينقلون العبيد المصابين إلى هناك، حيث يجب أن يعتني بهم الإله إيسكولاب. ويبدو هذا التصرف تصرفاً عملياً للوهلة الأولى، بل تصرفاً يرضي الآلهة. فالرومان لم يرموا المرضى ليلاقوا مصيرهم، إنما وضعوهم تحت عناية الإله. ومثل هذه الازدواجية الأخلاقية كانت تطبع بطابعها ميادين نشاط الرومان الأخرى كلها.

وليس أدل من كلمات أوغسطين الطوباوي في كتابه «مدينة الإله»، على المدى الذي بلغه الرومان في استغلال الآلهة. يقول أوغسطين:

١- حسب المؤرخين، أن العصر الملكي في روما لم يعرف سوف ملوك إيتروسكيين فقط.

«هل نستطيع استذكار كل أسماء الآلهة أو الإلهات الذين بالكاد استطاع الرومان أنفسهم حشرها في مجلدات كاملة... حتى حراسة القرى لم يأتمن الرومان عليها إلهاً واحداً، فوضعوا الإلهة روزينا على القرى، والإله جوغامين على قمم الجبال، والإلهة كولاتينا على التلال، والإلهة واللّونيا على الوديان. ولم يكن بمقدورهم مجرد تخيل وجود سيغيتيا يُمكنهم أن يأتمونها وحدها على موسم جني المحاصيل: حسب اعتقادهم أن البذور المزروعة تبقى في عهدة الإلهة سيين طالما هي في قلب الأرض، لكنها بعد أن تنبت وتخرج إلى سطح الأرض، تغدو في عهدة الإلهة سيغيتيا، وعندما يحصد الزرع أخيراً ويجمع المحصول، تنتقل مهمة الحفاظ عليه وحمايته إلى الإلهة توتيلينا. فمن يمكنه أن يتخيل أن الإلهة سيغيتيا عاجزة عن حماية البذور التي صارت إلى نباتات وسنابل. كما أشرك الرومان الإلهة بروزربينا في شؤون زروع الأرض، واستدعوا الإله نودوت للاهتمام بكعوب السنابل ورزمها؛ والإلهة فاليوتينا لحراسة أكمام السنابل، وعندما كانت الزروع تتفتح لكي تخرج السنابل، كانوا يضعونها في عهدة الإلهة باتيلينا؛ وعندما كانت السنابل الجديدة تغطي الحقول، كانوا يعهدون بها إلى الإلهة هوستيلينا، لأن السنابل الجديدة تعوّض القديمة. أما الزروع المزهرة، فقد عهدوا بها إلى الإلهة فلورا، ووضعوا الزروع الممتلئة في عهدة الإله لياكتورنوس، والناضجة في عهدة الإلهة ماتور، والمجنيّة في عهدة الإلهة رونسينا.... والقليل الذي قلته هنا لم أقله إلا لكي أبين أنه لا يمكن للرومان أن يقولوا بأي حال من الأحوال، إن الإمبراطورية الرومانية قد تأسست على أيدي الآلهة الذين عهد لكل منهم بوظيفة واحدة. وأن أياً منهم لم يعهد إليه بالأمر المشترك. وفي واقع الحال، كيف يمكن للإلهة سيغيتيا أن تفكر في شؤون الدولة، إذا كان لم يسمح لها بأن تهتم بشؤون الشجر إلى جانب اهتمامها بجني المحاصيل؟ وكيف للإلهة كونينا أن تولي اهتمامها لشؤون المعارك، إذا كان محرماً عليها أن تبتعد عن مهود المواليد؟ لقد كان كل روماني يضع أمام منزله حارساً واحداً فقط، وبما أنه إنسان، فهذا كاف تماماً. بيد أنهم لم يكتفوا بإله حارس واحد، بل وضعوا ثلاثة آلهة حراساً: فوركول للأبواب، وكارديا للحلقات، وليمينتينا للعتبة...».

وعملياً، أظهر الرومان كل تلك الماهيات التي يعجز الناس بسببها عن العيش حياة طبيعية. فقد أبدوا تذللاً وخنوعاً لا مثيل لهما، أمام مواطن روماني كان والحق يقال إمبراطوراً. ونحن نقصد هنا الإمبراطور أوكتافيان الذي اعترف الرومان به إلهاً. وقد بدا الأمر كأنه كان لذلك التأليه أسسه، فقد أعلن أوكتافيان انتهاء الحرب الأهلية، وتجديد الجمهورية. فمنح لقب أغسطس (= المعظم). ولم يحظ أحد من قبل بمثل هذا التعظيم سوى الإله جوبيتر. ثمَّ تدحرج كل شيء بعد ذلك ككرة الثلج. والواقع أن حالة من الهستيريا قد سيطرت على الرومان بعد ذلك. فأخذوا يتسابقون لإظهار مزيد من التذلل أمام شخص سفك دماء كثيرة. لقد

مجّد المواطنون كلهم الإمبراطور - الإله، ورأوا فيه وحده، المنقذ. ومع أن أوكتافيان كان ابن مراب. لكن المنافقين الذين لم يكن لنفاقهم حدود (لا سيما الشعراء)، أدرجوا شخصيته الإلهية في اللوحة الميثولوجية لنشوء روما. فأعلنوه إينياس الثاني تارة، ورومولوس الثالث تارة أخرى. وصارت طقوس عبادة هذا المعبود الجديد تقام في كل بيت. فرأوا فيه حارس موقد المنزل، وأب الوطن. وبما أن إلهاً جديداً قد صنع، إذاً لا بد من تكريس جماعة كهنوتية جديدة تقوم على خدمته. وقد دعي هؤلاء الكهنة بالأوغسطاليين. وكان تقديم القرابين للإله الجديد من أهم وظائفهم. ولم تقتصر العبادة على الإله أغسطس وحده، بل امتدت لتشمل أفراد العائلة الإلهية كلهم. وعلى الرغم من أن زوجة أغسطس كانت واحدة من أكثر نساء التاريخ الروماني شروراً، إلا أنها منحت اللقب الإلهي. وينبغي ألا نظن بأن هذا كان أمراً شكلياً، أو مفروضاً بالقوة، أو أن الناس التزموا به خوفاً على حياتهم: لقد فعل الرومان ذلك بملء إرادتهم. فسجدوا أمام الشخصيات الإلهية. إنه الجنون بعينه. فلا احد أرغم على ذلك، ولم يكن سيف معسكرات الاعتقال مجرداً من غمده. بل على العكس من ذلك، إذ اتخذ الإمبراطور نفسه إجراءات للحد من المبالغة في إظهار آيات الولاء له. لكن محاولاته باءت بالفشل. فشوارع روما وجاداتها كلها، كانت مزدانة بتماثيل فضية للإمبراطور، وشيدوا في كل قرية معبداً واحداً بالحد الأدنى، للإله الجديد.

السلطة السرية للدرويديين

لقد كانت سلطة الدرويديين على الناس عظيمة جداً، حتى الملوك أنفسهم لم يجرؤوا على معارضتهم. فما هي القاعدة التي استندت سلطة هؤلاء إليها؟ لقد استندت سلطة هؤلاء في المقام الأول، إلى المعارف المكتومة عن الآخرين. فالدرويديون كانوا «مكرسين»، وكانوا يمتلكون معارف فريدة لا نستطيع حيالها سوى أن نخمّن وحسب، لأن ما بين يدينا عنها لا يتعدى المقاطع والنتف المبعثرة، ونحن لا نعرف إلا النذر اليسير عن الدرويديين، لأنهم لم يدوّنوا أي شيء عن تعليم تعاليمهم، ولا عن نشاطهم العملي. لذلك حملوا معارفهم كلها تقريباً معهم إلى القبر.

وكلمة «درويد» تعني «إنسان شجر البلوط»، وكان هؤلاء في واقع الحال كهنة، لكن بالمعنى الشامل لهذه الكلمة. فالدرويديون لم يكونوا مجرد كهنة عاديين يقومون على خدمة الدين، بل كانوا أطباء، وقضاة، ومؤرخين، ومعماريين، وفلكيين، وشعراء، وعلماء. قصارى القول، إن الدرويديين كانوا ينهضون بكل الوظائف التي يعجز المجتمع عن العيش من غيرها. ولذلك كان الالتزام صارماً بضرورة ألا يقول الملك شيئاً مهماً، إلا بعد أن يسمع رأي درويده.

لقد كان الدرويديون أكثر السحرة مهارة، ولم تكن سلطتهم على الناس سلطة وهمية. وكانت الكلمات التي ينطقون بها تفعل فعل الخير أو فعل الشر. ولم يكن هؤلاء يتنبؤون بوقوع الأحداث فقط، بل كانوا يستنزلون اللعنات على الناس كذلك. فالإمبراطور الروماني سيفروس (القرن 3م) استحق لعنتهم، وقد تحققت اللعنة. إذ روى المؤرخ الروماني لامبريديوس أن متنبئة غالية صاحت في وجه سيفروس حين قابلته، قائلة: «امض، امض، فلن ترى النصر بعد اليوم،

ولا تنتظر الإخلاص من جندك». وسرعان ما قتل الجنود الرومان إمبراطورهم بعد ذلك اللقاء.

ولم يكن أحد يشك للحظة واحد في أن للدرويديين صلة بالآلهة. والحقيقة أن هؤلاء كانوا سادة الكلمة كما لم يسد عليها أحد، كما كانت لهم قدرة مدهشة على استقاء المعلومات من حقل المعطيات الكوني، وتلقيها من العقل الكوني عينه. لقد كان للدرويديين حق تسمية الناس، كما منحوا المدن والأماكن أسماءها أيضاً. وعقدوا المحاكم القضائية، ولم يخطؤوا في استقراء نتائج المعارك و... وثمَّة في هذا السياق مشهد له دلالته. فقد أخبر الدرويدون يوماً إحدى القبائل الغالية بأنها ستمنى بهزيمة ساحقة في المعركة المزمعة، فعمد هؤلاء إلى قتل أطفالهم ونسائهم كي لا يذلهم الأعداء، ويجعلوا منهم عبيداً. ولم يكن هذا المشهد مشهداً فريداً، فأخبار مثل هذه الأحداث تتكرر كثيراً في مؤلفات المؤلفين الرومان. والحقيقة أن شهادات المصادر الرومانية لا يركن إليها دائماً. لأن الرومان الذين استولوا على أراضي الدرودیين، كانوا يجانبون الموضوعية في أحكامهم. وعملوا دوماً على التشهير بالشعب الدرويدي. لقد تميز الدرويديون بأنهم شعب لم يعرف نظام الدولة المعتاد، على الرغم من أنه كان يشغل أراضي أوروبا المعاصرة كلها؛ فلم يبن الدرويديون الحصون والقلاع. وفي القرن الخامس قبل الميلاد، استوطنت القبائل السلتية وسط أوروبا وشرقها، ثمَّ انتشرت بعد ذلك في أسبانيا، وشمالي إيطاليا، وشمال شبه جزيرة البلقان، واستقرت في الجزر البريطانية، وفي العام 390ق.م استولت قبائل السلت على روما. وفي العام 289ق.م دمر السلتيون مدينة دلفي اليونانية، واندفعوا إلى أعماق إقليم غربي آسيا. لكنهم لم يسعوا إلى ترسيخ فتوحاتهم بإنشاء دولة عسكرية قوية. بل لم ينشئ السلتيون مستعمرات لهم على الأراضي التي استولوا عليها. ولذلك فإنه لا يجوز وصفهم بالمحتلين، لأنهم لم يسعوا إلى إخضاع السكان المحليين لسلطانهم، بل اندغموا بالشعوب التي هزموها.

ولكن كيف نجح ذلك المعشر الذي لم تكن لديه أجهزة إدارة مركزية، في البقاء على قيد الحياة، مثل هذا الزمن المديد كله؟ وعلى ماذا استندت تلك البنية الاجتماعية، في هذه الحضارة؟ إنها المعارف وحسب. ولعمري إنه لحدث فريد في تاريخ البشرية.

فالوقائع تشهد بأن قبائل السلت المبعثرة كانت تمثل بنية حضارية واحدة. ففي مختلف أرجاء أوروبا: في فرنسا، والدانمارك، وإيرلندا، وشبه جزيرة إيبيريا، والبلقان، عثر الآثاريون على صور آلهة السلت القدماء، ورموز عبادتهم. كما عُثر أيضاً على أجزاء نمطية من أسلحتهم، وأشكال حيواناتهم، وأشياء أخرى كثيرة. كما كانت حليهم بدورها من النمط التقليدي المعروف عينه («المجدولة»). ومثل هذه اللقى كثيرة جداً. وعلاوة على هذا، كانت للسلت عبادة مشتركة استندت إلى نظام ميثولوجي واحد، والإيمان بالآلهة عينهم.

وما يؤسف له أننا لا نعرف عن هؤلاء الآلهة وأشياء أخرى كثيرة في حياة السلتيين، إلا النذر اليسير. ومع أن شهادات الرومان ليست موضوعية في هذا المجال، لكننا مع ذلك سوف نسوق شهادة يوليوس قيصر عن الدرويديين. ففي الكتاب السادس من مذكّراته حول الحرب الغالية ساق لنا قيصر الوصف الآتي لهؤلاء: «يشارك الدرويديون مشاركة نشطة في تأدية طقوس العبادة، ويلتزمون بتقديم القرابين الاجتماعية التزاماً دقيقاً، ويفسرون كل المسائل ذات الصلة بالدين، ويتوافد إليهم كثير من الشباب لتلقي العلوم، وهم على وجه العموم يحظون لدى الغاليين (أي لدى السلت) باحترام عظيم. فهم الذين يفصلون في المسائل الأخلاقية كلها تقريباً، سواء كانت اجتماعية أو ذاتية...، وإذا ما تمرد على قرارهم فرد أو شعب، فإنهم يبعدونه عن المشاركة في تقديم الذبيحة. وكانت هذه أشد العقوبات مرارة. فمن يُبعد بمثل هذه الطريقة يعد كافراً بالآلهة، ومجرماً يبتعد عنه جميعهم، ويتفادون لقاءه أو الحديث معه، كما لو كان يحمل وباء معدياً. ومهما قدم من شكاوى، فإن أحداً لن يعقد محكمة لأجله، كما يفقد حقه في شغل أي وظيفة كانت. ويتزعم الدرويديين كلهم زعيم واحد يحظى عندهم بتقدير عظيم. ويخلفه بعد موته الدرويدي الأكثر جدارة، وإذا كان الجديرون كثر، عندئذٍ يلجأ الدرويديون للتصويت، لكن مثل هذا النزاع كان يسوى بقوة السلاح أحياناً. وفي وقت محدد من السنة، كان الدرويديون يجتمعون في مكان مقدس يقع في بلاد الكارنوتيين (بريطانيا)، التي كانت تعد مركز بلاد الغال كلها. فيتوافد إلى هناك كل من له دعوى، ويلتزمون بالأحكام الصادرة. وكان قد ساد اعتقاد مفاده أن علم الدرويديين قد ظهر في بريطانيا وانتقل منها إلى باقي أرجاء غاليا، وحتى يومنا هذا لا يزال الذين يرغبون بالتعرف إلى هذا العلم يتوافدون إلى هناك لدراسته.

ولا يشارك الدرويديون عادة في الحروب ولا يؤدون الإتاوات. وينتمي كثيرون إلى مدرستهم، إما رغبة، أو نزولاً عند إرادة الأقارب والأصدقاء. ويروى أن الدرويديين يعلّمون كمّاً من الأشعار التي يحفظونها عن ظهر قلب، يقضي بعضهم عشرين عاماً في مدرستهم ليحفظه. وهم يرون إثمًّا كبيراً في كتابة

أي شيء مما يلقى هنا... وتنصب محاولات الدرودیین أكثر ما تنصب على ترسيخ القناعة بخلود الروح: حسب تعاليمهم أن الروح تنتقل عندما يموت جسد ما، إلى جسد آخر، وهم يعتقدون أن هذا الإيمان يزيح عبء الخوف من الموت، الأمر الذي يحفّز روح الشجاعة والإقدام. وعلاوة على ذلك ينقل الدرويديون إلى تلاميذهم الشبان معلومات عن الكواكب وحركتها، وامتداد المعمورة والأرض التي نعيش عليها، وقوة الآلهة الخالدين وعظمتهم.

وبصرف النظر عما قلناه من قبل عن لا موضوعية المصادر الرومانية تجاه أعدائهم الدرويديين، إلا أن ما سقناه هنا يوافق واقع الأشياء. وعلى أي حال فإن مصادر أخرى تسوق المعلومات عينها، ومن هذه على وجه الخصوص، الساغات الإيرلندية. فالملحمة البطولية الإيرلندية تبرز الحكيم الدرويدي كاتباد على سبيل المثال، رجلاً ذا سمعة لا تضاهى. فقد كان هذا قادراً على أن يؤثر في نتيجة المعركة، مع أنه لم يكن يشارك فيها كمقاتل. لقد كان يؤثر برقاه وتعاويذه التي كانت تسلب الأعداء قواهم. وكان يجوز له أن يستنزل اللعنات على الملك نفسه. لكن هذا لم يكن يحدث إلا إذا رفض الملك طلباً ما للكاهن. وحسب الملحمة أن الحكيم الدرويدي كان يقرأ المستقبل، ويختار اسم البطل، ويحدد يوم بدء العمليات القتالية، أو أي نشاط آخر له أهميته. وكان فتيان العائلات الأرستقراطية يتلقون تعليمهم على يدي الحكيم الدرويدي، أي الكاهن الأكبر.

وعن السمعة المميزة التي كانت للدرويديين في المجتمع الغالي، يخبرنا نص الساغا الإيرلندية: «السطو على توركوالينغ». فقد ورد هناك أنه «يحرم على الملك أن يتحدث قبل درويده».

ويمكننا أن نؤكد من غير مبالغة، أن الدرويدية تأسست وعاشت على الطقس. وقد كانت نظاماً تراتبياً معقداً ومبتكراً بدقة. وكانت الغاية الأساس التي سعى هذا النظام لبلوغها، هي «ضمان استمرار حركة العالم». وما يثير الفضول أن الدرويديين رأوا في المكان والزمان ماهية واحدة. وحسب الفيزياء الكلاسيكية: إن دراسة المكان منفصلاً عن الزمن أمر ممكن. بيد أن الحديث يدور في النظرية النسبية حول المكان الرباعي الأبعاد. فالإحداثيات الثلاث الأولى، هي المكان المعتاد، والإحداثية الرابعة، هي الزمن المتغير. وحسب أينشتاين أن الزمان والمكان ليس أحدهما منفصلاً عن الآخر. وكان اينشتاين قد حلَّ هذه المعضلة مستعيناً بالمعادلات والصيغ. لكن الدرويديين ساروا في طريق أخرى. فقد وجدوا حل المعضلة عينها عبر استقاء المعلومات من حقلها الكوني مباشرة. وكان الطقس الديني هو مفتاح تواصلهم مع الحقل المذكور. فقد قضت تعاليم الدرويديين بأن تلاقي أهم نقاط الزمان والمكان، وتطابقها، هو ضمانة تواصل حركة العالم. وقضي بضرورة إبراز هذا التطابق بطريقة خاصة. ولكي يتحقق ذلك كان الدرويديون ينظمون في معابدهم لقاءات شعبية احتفالية، تقام في أيام محدودة تحديداً دقيقاً. وكان تقديم الذبائح للآلهة من أهم النشاطات في أثناء مثل تلك

اللقاءات. ومثلهم مثل الشعوب الأخرى، كان الدرويديون يقدمون القرابين في شتى المناسبات: عند بناء معبد، ومع بدء موسم جني المحاصيل، وقبيل الخروج في حملة عسكرية، و... وكانت المؤسسات الاجتماعية وكذلك الأفراد، يقدمون القرابين. ويميل المتخصصون إلى الاعتقاد بأن الدرويديين لم يقدموا ذبائح بشرية. ويزعمون في غضون ذلك أن المؤرخين الرومان قد حرّفوا الواقع عن سابق قصد، واتهموا الدرويديين بتقديم ذبائح بشرية لآلهتهم. ولكن قد ينسب هذا الاتهام جزئياً إلى جهل الرومان بالتعاليم الدرويدية. وقد يكون المشهد التالي مثالنا على هذا الجهل. فمن المعروف أن الدرويديين كانوا يستخدمون مراجل طقسية لتقديم الذبائح لآلهتهم. واكتشف الآثاريون على إحداها رسماً لعملاق ينزل إنساناً صغيراً في المرجل. وكان التوقع الأبسط، هو أن ذلك الكائن الصغير يقدم قرباناً. لكن الحقيقة هي أن المشهد المعني كان يمثل طقس بعث المقاتلين، الذين سقطوا في ساحات المعارك إلى الحياة ثانية. إذ كان هؤلاء على يقين أنهم عندما ينزلون مقاتليهم القتلى في مرجل الحياة العجيب هذا، فإن هؤلاء يعودون إلى الحياة ليواصلوا القتال ضد الأعداء من جديد. ويبيّن هذا أن اللقية الأثرية عينها يمكن أن تؤوّل تأويلاً متبايناً. وقد عمل مؤلفو العصر القديم جاهدين على إثبات أن السلتيين (الغاليين)، كانوا يقدمون لآلهتهم ذبائح بشرية. وقد كتب ديودوروس الصقلي عن هذا في تاريخه يقول: «وفي هذا تظهر وحشية طبيعتهم: يسلكون في تقديم القرابين سلوك الكفرة المتزمتين. فعادتهم أن يحتجزوا المجرمين كلهم حتى الخمس سنوات. ثمَّ يضعونهم على الخوازيق، ويقدمونهم ذبائح تمجيداً لآلهتهم، مضيفين إلى هذا كثراً من التقدمات، وأخيراً يحرقون هذا كله في محرقات كبيرة أعدت للغرض. كما يجعلون من أسرى الحروب معذبين بؤساء يقدمونهم أضاحي لآلهتهم. وغالباً ما يستخدمون للغرض عينه، الحيوانات التي يستولون عليها في غزواتهم. فيقتلونها مع الأسرى، أو يحرقونها حية، أو ينزلون بها ضروباً أخرى من الآلام الممضة». وعلى هذا المنوال كتب كثير من المؤلفين القدامى الآخرين. فسترابون وصف لنا في كتابه «الجغرافيا» عادة تقطيع الذبيحة إلى أشلاء وتعليقها على أشجار مقدسة، أو على جدران المعابد. وفي القرن الميلادي الأول، زعم الشاعر الروماني لوكانوس أن الغاليين يعلقون ذبيحة الإله إيدوس على شجرة، وكان هذا الإله عينه مرتبطاً بعبادة الأشجار. أما ذبيحة الإله تارانيس فقد كانوا يحرقونها حية، وكانت ذبيحة إله قبيلة تاوتاتيس تغرق في مرجل كبير مكرس لهذا الغرض. ولكن الباحثين يرتابون في موضوعية المعلومات التي ساقتها نصوص المؤلفين القدماء، لأن هؤلاء الأخيرين كانوا طرفاً مستفيداً: لقد كان من الضروري أن يسوّغ إخضاع القبائل الغالية، واستبعادها تسويغاً أخلاقياً، والزعم بأن الرومان إنما فعلوا بها ما فعلوه، لتحقيق غايات عليا.

وقد أشرنا سابقاً إلى أن تقديم الذبيحة، كان ينبغي أن يحقق عندهم الحفاظ على المجرى الطبيعي للزمن مستمراً متواصلاً من غير انقطاع. وتُستنتج من هذا

استنتاجات بعيدة المدى. فإذا ما ارتكب احدهم إثماً، وعاقبه الدرويديون بإبعاده عن طقس تقديم الذبيحة، فإنه يخرج بذلك خارج دائرة الزمن. وينقطع تواصل الزمن بالنسبة إليه. وفي حقيقة الأمر يكون هذا الشخص قد بات مبعداً عن المجتمع. لأنه فقد إمكانية التواصل المنتظم مع الجوهر الإلهي.

وقد جاءنا وصف لهذا الطقس يرجع تاريخه إلى القرن 12م، وهو يقدم لنا بعض التصور عن تقديم الذبائح عند الغاليين. ففي كتابه «طبوغرافيا ايرلندا»، وصف المؤرخ اللاهوتي الإنكليزي هيرالد كامبريسكي طقس تنصيب الملوك الإيرلنديين على العرش. فقد كان هذا الطقس يؤدى في مرج مقدس، وكانت تحضر سيول من أبناء الشعب، إنه طقس زواج الملك المقبل بالمهرة البيضاء. وبدا المشهد كله على الصورة الآتية: في بادئ الأمر تقام مراسم زفاف رمزية صرف. ثمَّ يقطع الملك بيديه حنجرة المهرة. ويطهى لحمها في مرجل كبير. فيستحم الملك المقبل بمرق لحم المهرة. وبعد الاستحمام يترأس الملك وليمة احتفالية كبيرة يشكل لحم المهرة المطهو وجبتها الأساس. وليست المهرة في هذا الطقس سوى الإلهة. هكذا كان الأمر عند السلت. وفي غاليا القارية كانت الفرس هي الإلهة - الأم. وقد دعوها باسم إيبونا. لقد رسم الغاليون صورة الإلهة - الأم فرساً معها مهر صغير. والحقيقة أن أعمال السبر الآثاري كشفت عن رسمها في صورة فارسة أيضاً. وعلى هذا النحو كان طقس تنصيب الملك على العرش يعني زواجه بالبلاد ومواطنيها. أما نحر الفرس وأكل لحمها، فقد كان يرمز إلى التواصل مع جسد الإلهة. وكان ذلك يمثل ضمانة لاستمرار رخاء المواطنين، وازدهار الملك.

ويشغل التنجيم مكانة بارزة عند الدرويديين. وهاكم ما كتبه المؤرخ الروماني سترابون في الكتاب الرابع من مؤلفه «الجغرافيا»، عن القرابين البشرية عند السلت: «لقد وضع الرومان نهاية للطقوس السلتية المفزعة. فحاربوا تقديم الذبائح واستقراء الغيب، اللذين لا يشبهان طقسينا إلا قليلاً. فقد كان الشخص المكرس تقدمة للإله يتلقى طعنة خنجر في ظهره، ثمَّ يقرؤون المستقبل حسب طابع التشنجات التي تظهر على وجهه... ودائماً يجري هذا كله بحضور درويديهم ومشاركتهم وموافقتهم».

لكن الباحثين المنصفين يرون أن الرومان يبالغون في هذا، ويعملون على إظهار خصومهم في أبشع صورة. فالحقيقة أن المتنبئين السلت والدرويديين كانوا يتنبؤون لا بنحر البشر، إنما بنحر الحيوانات. فقبيل المعركة التي كانت تنتظر قواتها مع الرومان، توجهت الملكة الغالية بوديكا إلى المنجمين. فرمى هؤلاء أرنباً أمام القوات السلتية. ووفق قفزات الأرانب استخلص هؤلاء رأيهم بصدد نتيجة، المعركة التي كانت لصالح الغال. ولذلك لم يضيع الجنود لحظة واحدة، بل قاموا وهاجموا عدوهم فوراً.

ولكي يكون التنبؤ ناجحاً أكثر، كان يمكن أن ينحر الحيوان. وغالباً ما فعلوا هذا بالخنزير. وقد وصفت لنا النصوص القرسطوية الايرلندية المشهد على النحو الآتي: «يمضغ الفيليد قطعة من لحم الخنزير أو الكلب أو الهر نيئة ثمَّ يأخذها من فمه، ويضعها على حجر مستو قرب الباب. وهو بذلك يقدمها قرباناً للإله الذي يخدم. ثمَّ يبدأ يناديه. ويمضي ليعود في اليوم التالي. وإذا ما اختفت قطعة اللحم، يستلقي الفيليد في مكانه، ويضغط وجهه بين كفيه. وهكذا يغفو، ولكن من المهم جداً ألا يقلق نومه شيء، لأن المستقبل يفتح له أبوابه أثناء نومه ذاك». وكان هذا الوصف قد ورد في مجموعة تأويلات «معجم كورماك» (القرن العاشر الميلادي). وليس الفيليديون الذين يتحدث النص عنهم سوى ورثة الدرويديين الإيرلنديين. ولكن ما تجدر الإشارة إليه، هو أنه عندما وضع المعجم المذكور، كانت المسيحية قد انتشرت في إيرلندا. ولذلك ورد بعد ذلك أن «القديس باتريك حرّم تلك العادة وقال: إن من يأخذ بها يخسر السماء والأرض، لأنه يرتد بذلك عن سر المعمودية المقدس».

ولكن من هم الآلهة الذين آمن بهم الدرويديون والسلت على وجه العموم؟

يقول يوليوس قيصر: «يجلّ الدرويديون أكثر ما يجلون من الآلهة، الإله مركوريوس، الذي له من الصور أكثر مما لأي إله آخر؛ وقد عدوه مبتكر الفنون كلها، والمرشد على الدروب، واعتقدوا أنه يحضّ على جني المال، والدفع بالأعمال التجارية. ويأتي في المرتبة الثانية بعده مباشرة، الإله أبوللون، ثمَّ الإله مارس، فالإله جوبيتر، والإلهة مينيرفا. ولديهم عن هؤلاء الآلهة التصورات نفسها تقريباً التي لدى الشعوب الأخرى. فأبوللون يطرد الأمراض، ومينيرفا تعلّم مبادئ المهن والفنون، ويملك جوبيتر السلطة العليا على سكان السماء، ويقود مارس الحرب». والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة، هو: لماذا عبد السلت آلهة الرومان؟ لكن واقع الحال هو أن السلت عبدوا آلهتهم، وليس آلهة الرومان. وكل ما في الأمر أنه كان هناك تشابه بين آلهة الطرفين. فالإله السلتي لوف يشبه مركوريوس بكونه يمسك بناصية المهن والفنون كلها، كما إنه نصير فنون القتال. ويدل على هذا أن اسم لوغ هو عنصر مكون لأسماء كثير من الحصون، وحتى مدينة ليون المعاصرة كانت تدعى فيما مضى لوغدونوم، ومعناه «حصن لوغ». واندغم الإله لوغ بالدفء ونور الشمس (مثله في هذا مثل الإله الروماني مركوريوس). ولذلك يأتي عيد الإله لوغ (لوغنازاد) في اليوم الأول من شهر آب. وقد دعي هذا الشهر كله باسم لوغنازاد، ولا يضير أن نتذكر في هذا السياق: إن الإمبراطور الروماني أغسطس قد دعا هذا الشهر باسمه: أغسطس. وهو أمر مفهوم تماماً، فالرجل كانت لديه رغبة شديدة لأن يرى في ذاته ذات الإله مركوريوس. ونشير في هذا السياق إلى أن قبيلة دانو الإيرلندية عبدت الإله لوغ.

أما الإله جوبيتر، فقد كان للسلت إلههم الذي أدى وظائف مشابهة لوظائفه؛ إنه الإله تارانيس (اسمه مشتق من الكلمة الغالية taran، وهي تعني الرعد). وقد

رسموا صوره مرفقة برسم المطرقة، وبيده عجلة يقودها. كما كان عند الإسكندنافيين الإله عينه، وكان يدعى تور: إله السماء، والعاصفة، والزوابع.

وعبد السلتيون أيضاً الإله تفتاتيس، الذي كان يدافع عن القبيلة، ويحميها من الأعداء، والإله أغميوس إله الحرب، الذي تميّز في الوقت عينه بالعلم والفصاحة. ومن الواضح أن هذين الإلهين يشبهان الإله مارس، إله الحرب عند الرومان.

ويعقدون مقارنة بين أبوللون والإله السلتي مابونوس. ويرون أن الإلهة بريتا تشبه من حيث وظائفها الإلهة الرومانية مينيرفا. لكن الإلهتين لا تتماثلان. ولماذا ينبغي أصلاً أن تتطابقا؟

وبما أن المصادر المكتوبة عن آلهة السلت نادرة، فإننا ملزمون أن نستخدم المعلومات التي ساقها عنهم يوليوس قيصر في «مذكراته» الشهيرة. وثمَّة في هذه المذكرات ذكر لإله يثير الحيرة؛ إنه الإله دييه (ديت) باتر، أي الأب. ويبدو أن هذا الإله كان أب الآلهة. فقد كتب قيصر عنه يقول: «يؤكد الغاليون (السلت) كلهم أنهم أحفاد الأب ديت، ويقولون، إن هذه هي تعاليم الدرويديين. ولذلك فهم لا يحسبوا الوقت، ولا يحددونه حسب النهارات، بل حسب الليالي: يحسبون يوم الميلاد، وبداية الشهر والسنة بطريقة يبدأ العد فيها من الليل، ثمَّ يليه النهار». فالليل يدغم عندهم بالعالم الآخر. ولذلك يحق لنا أن نفترض أن الحديث يجري عن إله العالم الآخر (عالم الأموات). وقد أناط الرومان هذه الوظيفة بالإله بلوتون. واندغم إله الأموات بالظلام والليل والصقيع والديجور. ولا يزال اسم هذا الإله السلتي غير معروف لنا حتى الآن. لكن كثيراً من آلهة السلت غدوا آلهة إيرلنديين من منشأ سلتي. ويدعى هذا الإله عند هؤلاء باسم: دونّ (القاتم).

لكن قيصر لم يأت إلا على ذكر آلهة الغال الرئيسة. لكن حقيقة الأمر هي أن عددهم أكبر بكثير. وثمَّة مصادر أخرى تفيدنا في الحكم على بعضهم، لاسيما على وجه معطيات أعمال السبر الآثاري. فقد رفع الغطاء مثلاً عن الإله إيزوس، والإلهة إيبونا، وكيرنونوس، وكثير من الآلهة الآخرين. كما عثر الباحثون على صور آلهة لم تحدد أسماؤهم حتى الآن: صورة الإله الجالس في وضعية البوذا، إنه «الإله صاحب الوجوه الثلاثة».

لقد توصل المتخصصون في تاريخ الأديان إلى استنتاج مؤكد مؤداه، إن آلهة الغال يرتبطون بأواصر القرابة مع آلهة الشعوب الهندوأوروبية الأخرى. لكن هذا لا يعني أن معارف الدرويديين المكنونة لها المصدر عينه. وعلى أي حال، فإن هذا المصدر لا يزال لغزاً يحير المتخصصين. بيد أنه من الواضح أن الدرويديين كانوا قد امتلكوا هذه المعارف الباطنية قبل زمن طويل من استيطان السلت أوروبا. ثمَّ اتحدت بعد ذلك معارف الدرويديين بطريقة ما مع آلهة هندوأوروبيي المنشأ. ونحن لا نعرف كيف حصل هذا، بيد أنه ثمَّة فرضيتان: إمّا أن يكون السلت قد جمعوا معارف الدرويديين القديمة ووضعوها في خدمة آلهتهم،

أو أن يكون الآلهة الهندوأوروبيون قد خضعوا هم أنفسهم للدرويديين، لمعارفهم الباطنية. وقد تكون هذه الفرضية الثانية هي الأقرب إلى الصواب.

ولم يسجد الدرويديون للآلهة المجردة فقط، بل عبدوا موجودات العالم المحيط أيضاً: الأشجار، والحجارة، والصخور، و.... ويجب أن نلاحظ في غضون ذلك أن معتقدات السلت والدرويديين لم تتطابق دائماً. فالسلت لم يعبدوا شجرة البلوط فقط، بل عبدوا أيضاً السدر الجبلي، وشجرة البتولا، والغبيراء، وشجرة التفاح و... ولم يعرفوا أشجاراً مقدسة فقط، بل قدسوا أدغالاً كاملة. وهذا ما تشهد عليه مثلاً، أسماء المراكز السكانية في فرنسا وأسبانيا. فقد كانت تقوم هناك قديماً معابد وأدغال مقدسة. وبالنسبة للدرويديين، فإن شجرة البلوط هي الشجرة الأكثر قداسة. وقد عرفوا شعيرة قطع نبات الدبق الذي ينمو عليها. وكان المؤرخ الروماني بليني الأكبر قد وصف لنا هذه الشعيرة فقال: «لا يعرف الدرويديون شيئاً أكثر قداسة من الدبق المقدس، والشجرة التي ينمو عليها نبات الدبق هذا، أي شجرة البلوط. وبلغ من تقديسهم هذه الشجرة أنهم لا يبنون معابدهم إلا في أدغال البلوط، وعندما يؤدون شعائر السحر، يمسكون بغصن من شجرة البلوط. ويهيأ لنا أنهم يؤلفون أسماء كهنتهم من اسم شجرة البلوط، إنهم يعتقدون أن كل ما ينمو على هذه الشجرة مرسل من السماء، وأن هذا بحد ذاته علامة تدل على أن الإله الأعلى يبارك هذه الشجرة. ومع أن مثل هذه اللقى نادر، إلا أنه عندما يحدث ويلاحظون شيئاً مشابهاً، فإنهم يضعون علامة على النبات ثمَّ يقطفونه في جو احتفالي. وعادة يقع هذا في اليوم السادس من الشهر القمري، ولذلك فإنهم يعتقدون أن القمر هو بالذات الذي يوجّه الأشهر، وحركة الزمن على وجه العموم، وأنه هو نفسه له دورة خاصة به تطول ثلاثين يوماً. وهم يرون في اليوم السادس أكثر الأيام ملاءمة لإقامة المراسم الدينية، لأن القمر يكون قد جمع في هذا اليوم ما يكفي من قوته، لكنه لا يكون قد بلغ بعد منتصف طريقه. وأطلق الدرويديون على نبات الدبق اسماً تعني ترجمته: «ذلك الذي يبرئ من كل شيء».

وبعد أن يقدموا الذبيحة، ويتركوها عند كعب الشجرة ضيافة وافرة للآلهة، يقودون ثورين أبيضين لم يربطا من قرونهما إلا في ذلك اليوم. ثمَّ يتقدم من الشجرة كاهن يرتدي حلة بيضاء، فيقطع نبات الدبق بمنجل ذهبي، ويخبئه في غطاء خاص من تيلة خام غير ملوثة، ثمَّ تقدم الذبائح مرة أخرى، وترفع الصلوات والتوسلات إلى الإله، لكي يكون رؤوفاً بالذين يقدمون له هذه التقدمات. لقد اعتقدوا أنه إذا ما أعد شراب من نبات الدبق، فإن فيه قوة تحمل الخصب للحيوانات العقيمة. فتنجب، وفيه دواء ضد أنواع السموم كلها.

والشواهد كثيرة أيضاً على أن الدرويديين سجدوا للحجارة. ولا تزال أوروبا تحتفظ حتى يومنا هذا بمنشآت دينية قديمة. وقد بنيت هذه في أماكن عدت مقدسة. وتتسم المنشآت المذكورة بالتنوع الشديد. فمنها أكوام الحجارة، ومنها

جلاميد فردية أو زوجية. وغالباً ما نقف على وجود منشآت جنائزية حجرية قديمة. وهذه عبارة عن أحواض حجرية مغطاة بصفائح حجرية. وتدعى هذه زالمينات. كما تصادفنا أيضاً حجارة طويلة مزروعة في الأرض عمودياً. وهي تدعى مانجيري. وتدعى المنشآت الدينية التي على شكل سياج مستدير مبني من حجارة ضخمة: كروملیهي.

لقد وقع الدرويديون تحت ضغوط متواصلة من جانب المبشرين المسيحيين. لكن هؤلاء لم يستخدموا تكتيك السيف والنار. بل على العكس من هذا، إذ غالباً ما شّيدوا صوامعهم على مقربة مباشرة من المنشآت الدرويدية الحجرية المقدسة. وعلى هذا النحو كان كل شيء يتداخل بعضه مع بعض رويداً رويداً، إلى درجة أن منشآت الدرويديين الحجرية باتت تزدان بالصلبان المسيحية، وصارت تبنى غالباً داخل معابد المسيحيين.

ولا يزال تعليل وجود هذه المنشآت الحجرية غائباً. فبعضها له صلة واضحة بعلم الفلك، إذ بني اهتداء بالشمس، وسواها من الأجرام السماوية الأخرى.

وتشهد أعمال السبر الآثاري على أن هذه المنشآت الحجرية المهولة؛ كانت قد شيدت قبل أن يستوطن السلت غاليا. ولكن من بناها ولأي غرض؟ بل من غير الواضح حتى الآن كيف استطاع بُناتها أن يتغلبوا على صعوبات تلك المهمة البالغة التعقيد في ظل تقنيات ذلك الزمن؟ والحقيقة أن أحداً لا يمكنه أن يجزم بأن مستوى تقنية ذلك العصر (ألف سنة خلت) كان متدنياً جداً.

وحسب القرائن التي توفرت لنا عن بناة المنشآت الحجرية المهولة، أن لغة هؤلاء كانت تختلف من حيث بنيتها عن اللغات الهندوأوروبية القديمة. وقد تباينت في الأصل الثقافة الروحية لأولئك الذين بنوا هذه المنشآت في كل من إنكلترا وإيرلندا. ويبلغ عمر هذه المنشآت بضعة آلاف من السنين، ولا يزال الغرض الذي شيدت من أجله، غير واضح وضوحاً تاماً. فهي قد تكون معابد، وقد تكون مراصد فلكية. وهذه الفرضية الثانية تبدو فرضية مقنعة جداً. وحسب الفرضية الأولى: فإنها كانت معابد الشمس والقمر. وإذا كان الأمر كذلك فإنه بمقدورنا أن نفترض أن الدرويديين قد أخذوا عبادة الأجرام السماوية من هنا تحديداً، من ثقافة بناة المنشآت الحجرية المهولة. وعلاوة إلى هذا، سوف يكون من المنطقي أن نرى منبع الدرويدية في هذه الحضارة، ومن هذه المعتقدات. فالدرويديون يتفرعون من المجرى المشترك لمعتقدات الشعوب الهندية القديمة وثقافاتها. ويبدو الأرجح أن مركز نشوء الدرويدية يقع في بريطانيا. وهذا ما افترضه قيصر في حينه. كما تؤكده نصوص الساغات الإيرلندية. فتشير هذه تكراراً إلى مدارس المعارف الباطنية التي تتوزع على أراضي اسكتلندا المعاصرة. لقد شاع عند

الدرويديين تبجيل قوى الطبيعة والأجرام السماوية. وترافق ذلك التبجيل بنظام كهنوتي تراتبي صارم. وقد وفر هذا لمجمل النظام الاجتماعي مستوى ممتازاً من الاستقرار. وقد أخذ السلت هذا النظام عندما استوطنوا غاليا.

وتعد مسألة إيمان الدرويديين بانتقال الأرواح، أي بالخلود، مسألة مبدئية. والحقيقة أن التنويعة الدرويدية هذه كانت تختلف من حيث المبدأ عن التنويعة الهندية. ففي المعتقدات الهندية فكرة انتقال الروح تحمي نظام الكاستات[1]، وتبرر وجودها. فلا وجود للهندوسية من غير الكاستات، ولا وجود لهذه الأخيرة من غير انتقال الرواح. ومن الواضح أن الدرويديين لم يستغلوا فكرة انتقال الأرواح بهذه الطريقة. لقد أراد الدرويديون أن يعيشوا وحسب، فآمنوا بالخلود، والإنسان كان راغباً دوماً في أن يؤمن بالخلود. وقد كان تفكير الدرويديين في هذا الميدان أكثر واقعية، وأكثر التصاقاً بالشؤون الزمنية: لم يتخيل الدرويديون أن الخلود رجعات كثيرة إلى الأرض. وقد جاء وصف هذا الحب الجسدي للحياة، وكره مغادرة هذا العالم نهائياً إلى العالم الآخر، في ملحمة «كات غوديو» للشاعر المغني تاليسين (القرن 6م). ومعنى عنوان الملحمة، هو «معركة الشجر». وقد ورد فيها عن تكرار الولادات ما يلي:

وتحوّلتُ من جديد،
فكنتُ سلموناً أزرق،
وكنت كلباً، ووعلاً،
وأيلاً على المنحدرات الجبلية؛
وكنت قرمة شجرة ومجرفة،
ومثقباً في ورشة يغطيها السخام،
وأقمت عاماً ونصف العام
ديكاً أرقط أطأ الدجاجات متى أشاء.

ولا تندرج لهجة هذا المقطع الذي يتحدث عن انتقال الروح من جسم لآخر، في دائرة الآلام اللانهائية التي جاءت بها الهندوسية، والسعي إلى التخلص منها. وكانت فكرة انتقال الروح وفق هذه التنويعة المتفائلة، شائعة شيوعاً واسعاً عند شعوب أفريقيا، وأستراليا. ومن المعروف أيضاً أنها لم تخف على فلاسفة

١- الطوائف الاجتماعية المغلقة. - المترجم.

الإغريق القدماء. والحقيقة أنه لا يمكن الموافقة على الرأي الذي يقطع بأن الدرويديين أخذوا فكرة انتقال الروح عن فيثاغورس، وهذا ما عمل ديودوروس الصقلي على إثباته. فكتب يقول: «لقد شاع عندهم رأي فيثاغورس القائل: إن روح الإنسان خالدة، وهي تعيش من جديد في أثناء عدد معلوم من السنين متغلغلة في أجساد أخرى». وقد أعجب كثير من المؤلفين القدامى بفكرة اقتباس الدرويديين لتصوراتهم عن انتقال الروح، عن فيثاغورس. فقد راقت لهم الفكرة. فصاغوا سيناريو ذلك الاقتباس، زاعمين أن زمولكسيس عبد فيثاغورس التراقي، عاد بعد وفاة سيده، إلى وطنه تراقيا، ونشر فيها التعاليم التي تتحدث عن انتقال الروح. لكن هذا الرأي ليس رأياً جدياً.

هكذا تكلم زارادشت

لقد عاش زاراتوشترا، وهو مؤسس ديانة جديدة، في الربع الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد. وقد سادت ديانته الجديدة هذه في الإمبراطوريات الفارسية القديمة قرابة الألف وخمسمئة عام (من القرن 6ق.م حتى القرن 7م). وقد عرفت هذه الديانة بالديانة الزارادشتية. وكان الإغريق القدماء قد دعوا مؤسس هذه الديانة باسم زوروآشترا. وعدوه حكيماً منجّماً (الجذر آسترا) مأخوذ من كلمة «آسترون» = نجمة. ثمَّ أخذ الآخرون عن الإغريق هذا التجديد. والحقيقة أن بعض المؤلفين المعاصرين يحاولون العودة إلى استخدام الاسم الأصلي لزارادشت بهدف إظهار تميزهم وحسب، لكن ذلك يؤدي في واقع الأمر إلى تهويش المسألة وحسب.

جغرافياً ظهرت الزارادشتية في سهوب روسيا الجنوبية، إلى الشرق من الفولغا. ففي الألف الثالثة قبل الميلاد عاش هنا أسلاف الهندوإيرانيين. وكان هؤلاء رعاة شبه متنقلين. وكان رعاتهم هم جنودهم أيضاً. كما كان لهم دينهم الخاص بهم، وثقافتهم المتميزة، وخدم ديانتهم، أي كهنتهم. وفي الزمن المذكور انقسم أسلاف الهندوإيرانيين إلى شعبين لكل منهما لغته الخاصة به. وقد كان هؤلاء هم الهندوآريين والإيرانيين. وما عدا تربية الحيوانات عمل الشعبان بالتجارة مع جيرانهم الجنوبيين، الذين كانوا يعيشون حياة حضرية.

وعند منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، باتت حياة هذين الشعبين مضطربة. فلكي يذودوا عن حقهم في الحياة، كان عليهم أن يصنعوا كميات كبيرة من الأسلحة والمركبات القتالية. لقد كان ذلك هو زمن صيرورة روح الشعب، وإدراكه لرسالته في هذا العالم، الأمر الذي تجلى في ولادة دين جديد. ولم يكن ذلك الدين منشأ إنشاءً. ولم يبتكر ثمَّ يتلاءم مع شروط حياة الشعب. بل تمّ تلقيه من

فوق، في الوحي الذي نزل على النبي زارادشت. وقد وقع ذلك الحدث بين العامين 1500 و 1200ق.م.

لقد بدأ النبي زارادشت يبشر بما يوحى إليه. وقد تلخص جوهر الوحي في أن القانون هو الذي يجب أن يدير شؤون المجتمع وليس القوة، وهو قانون واحد لكل المعمورة، قانون إلهي. ولما بدأ زارادشت دعوته كان كما يسوع المسيح، في الثلاثين من عمره. وقد دعاه خاطر الخير لكي يؤدي الرسالة. ففي الصباح، عند بزوغ الفجر مضى زارادشت إلى النهر ليأتي بالماء لإعداد الشراب المقدس. وبينما هو في طريق العودة، ظهر له خاطر الخير في ضياء مهر، وقاده إلى حضرة الإله. وفي ضياء الإله عجز زارادشت عن «رؤية ظله». فبات منذ تلك اللحظة مدعواً لكي يبشر بحكمة الإله (رب الحكمة، الرب الحكيم). وكان الرب الذي دعا زارادشت نفسه رسولاً له، إلهاً مفارقاً متعالياً عارفاً كل شيء، وخالقاً الوجود كله. لقد كان هذا إله السماء والأرض، الضامن تحقيق العدالة الإلهية وإقامة النظام. وقد أعلن هذا الرب العادل عن ذاته في أعمال الخير والكلمة الطيبة. وقد أطلقوا على الديانة الزارادشتية فيما بعد اسماً آخر، هو الديانة المازدية (نسبة إلى أهورامازاد أي الرب الحكيم). فكلمة «أهورا» تعني الرب. كما كان من الأرباب أيضاً ميترا، وفارونا، وآخرون.

إن تعاليم زارادشت قائمة على الدياليكتيك الحي المزدهر. فهي ترى أن العالم يتألف من المتناقضات، من الإيجابي والسلبي، ومن الخير والشر، والنور والظلام. وإن جوهر العمليات الجارية في الكون، هو ارتقاء يتلخص في صراع هذين المبدأين ووحدتهما. وتظهر المعادلة في الشخصيات على النحو الآتي: يرتبط الخير بالرب الحكيم (أهورامازاد). ويتجسد الشر في أنغرامينيو (الروح الشرير). ويدور بين الاثنين صراع متواصل لا يتوقف. فالرب الحكيم صنع الحياة، والدفء، والنور وكل ما هو إيجابي في هذا العالم. لكن الروح الشرير صنع الموت، والشتاء، والبرد والقيظ، والحيوانات الضارية، والحشرات المؤذية. وقد قسم الإنسان العالم دوماً إلى خير وشر، لكن وفق مقتضيات مصالحه الخاصة. وعليه، نسبت الحيوانات والحشرات المؤذية إلى عالم روح الشر، إلا أن تعاليم زارادشت تتسم بالتفاؤل. ففي آخر المطاف ينتصر الخير على الشر انتصاراً نهائياً ناجزاً. ولا يعمل الرب الحكيم وخصمه الروح الشرير منفردين. فبمساعدة الروح القدس خلق الرب الحكيم ستة قديسين خالدين، هم: حارس القطعان، وفكرة الخير (بهامان)، وناظر النار وحاضن البر (أوردييبيخيشيت)، وحارس المعدن والسلطة المختارة (شهريوار)، وحارس الأرض والعفة (سبينتا آرمانتي)، وأمين المياه والكمال (هوردار)، وحارس النباتات و «الخلود» (مورداد). وصنع الرب الحكيم إضافة إلى هؤلاء آلهة تابعين له: ميترا، وفارونا، (حفيد المياه)، وشراوشي (الطاعة، والاهتمام، والنظام)، وآشي (إلهة المصير)، ويخوض هؤلاء كلهم مع الرب الحكيم حرباً ضارية ضد الروح الشرير.

وبدوره فإن الروح الشرير ليس وحيداً. مساعدوه هم الأرواح الشريرة (الديفاس)، والسحرة، وسلاطين الشر، الذين يتسببون بالأذى لعناصر الطبيعة الأربعة: النار، والتراب، والماء، والسماء. وتحتشد في سلاطين الشر هؤلاء الصفات البشرية الأكثر سوءاً: الحسد، والتقاعس، والكذب، و...

لقد استمرت الزارادشتية على قيد الحياة آلاف السنين، لأنها أعطت الكمال الروحي أهمية كبيرة. فقد افترض أتباع هذه التعاليم أن نشاط الإنسان ينبغي أن يستند إلى الفكرة الخيّرة، والكلمة الطيبة، والعمل الصالح. كما دعوا إلى التزام النظافة والنظام. ودعت الزارادشتية إلى التعاطف مع الناس، وحفظ جميل الوالدين، والعائلة، وأبناء الجِلْدة. كما قضت تعاليمها أيضاً بالالتزام بالواجبات المقدسة نحو الأطفال. وألزمت بمساعدة أبناء الملة، والعناية بالأرض والمراعي. وإذا كانت هذه هي وصايا الزارادشتية الرئيسة، فليس غريباً أن خلق الزارادشتيون في أبناء وطنهم عزيمة تثير العجب، من أثناء تحقيقهم هذه الأخلاق المستقيمة العادلة في حياتهم اليومية، لقد كان تحقيق هذه المبادئ الأخلاقية السامية في الحياة، هو المعين الأكبر الذي مكّن الزارادشتيين من تجاوز المحن القاسية التي تعرضوا لها. أما فيما يتعلق بأتباع الديانات الأخرى، فليس في تعاليم زارادشت ما يدعو إلى ملاحقتهم واضطهادهم. وحسب الزارادشتية أن للإنسان حرية الاختيار. وهو المسؤول عن فعل الخير أو فعل الشر. ومع ذلك، رأت الزارادشتية أن قدر الإنسان محدد منذ الأزل.

وتخيل الزارادشتيون بناء الكون على النحو الآتي: يمتد تاريخ وجود العالم على طول اثني عشر ألف عام. وينقسم إلى أربعة عصور طول كل منها ثلاثة آلاف عام. ولم يكن في العصر الأول لا أفكار ولا أشياء. لكن هذا العصر عرف الصور الأولى لكل ما خلق على وجه الأرض بعدئذٍ. لقد كان هذا العصر عصر العالم «الروحي»، «المكنون». وفي العصر الثاني خُلق العالم الواقعي. ففيه خلق الرب الحكيم السماء، والنجوم، والقمر، والشمس، والإنسان الأول، والثور الأول. وكان مسكن الرب وراء مجال الشمس. وخلق الروح الشرير في هذا العصر نفسه الكواكب والمذنبات. فهذه لا تخضع لقوانين توازن حركة المجالات الكونية، ولذلك، فهي يمكن أن تكون سبباً في وقوع كوارث كونية. وجرثم الروح الشرير المياه، وأرسل الموت إلى الإنسان الأول والثور الأول. لكن الإنسان الأول كان قد أنجب قبل ذلك، رجلاً وامرأة، خرج منها الجنس البشري كله. ومن النور الأول خرجت الحيوانات كلها. وبسبب الصدام الذي وقع بين المبدأين النقيضين (الإيجابي والسلبي)، دخل العالم كله الآن في حركة دائبة. فجرت المياه، وظهرت الجبال، وتحركت الأجرام السماوية. وبما أن قوى الشر هي التي صنعت الكواكب، فقد أقام الرب الحكيم أرواحه على كل منها.

وبعد العصر الثاني بدأ العصر الثالث. وقد استمر هذا حتى ميلاد زارادشت. وفيه وقع كثير من الأحداث المهمة، ولاسيما، الطوفان الكوني. وكان

الفعل في هذا العصر بين أيدي أبطال الأفستا الميثولوجيين. ومنهم إيما ذو الضياء، الذي لم تعرف مملكته الحر، والبرد، والشيخوخة، والحسد. ولما حدث الطوفان، أنقذ إيما البشر والحيوانات. وفي ذلك الوقت نفسه عاش الحاكم فيشتاسبا الذي منح زارادشت الملجأ والحماية: واعتنق تعاليمه. وبعد زارادشت يبدأ العصر الرابع من عصور ارتقاء عالمنا. وكان يجب أن يظهر في كل ألف من هذا العصر ثلاثة مخلصين ينقذون الجنس البشري. وهؤلاء هم أبناء زارادشت. والأخير منهم (ساوشيانت)، هو الذي سوف يقرر مصير الجنس البشري والعالم كله. ويحل في عهده زمن الرؤيا فيهزم الروح الشرير، أي ينتصر الخير على الشر. وتحل نهاية الكون. ويتطهر العالم بسيل من المعدن المصهور. وبعد أن يهلك العالم القديم بالنار، تُبعث الكائنات التي كانت تعيش فيه إلى الحياة من جديد. يُبعثون جميعهم: الأخيار والأشرار. وسوف يندم هؤلاء أشد الندم على ما ارتكبوه من شرور، ويعلنون توبتهم. لكن مصدر الشر في العالم سيدمر مرّة وإلى الأبد. سوف يتغير العالم. وتتحول الأرض والبشر. وتدخل الحياة على الأرض طوراً جديداً. إنها لحظة انتصار الفرح، ونهاية الشر والموت. لذلك ينبغي انتظار لحظة الرؤيا من غير خوف، ولكن بأمل وإيمان بعالم جديد عادل، يعيش فيه الناس سعداء لا يعرفون الضغينة، أو الحسد، أو الغضب، أو الخسة، أو الخيانة، أو ما شابه ذلك. إن هذا هو مستقبل البشرية البديع الذي رآه أتباع تعاليم زارادشت. وهذا ما ساعدهم على تجاوز صعوبات الحياة اليومية المليئة بالتعاسة، والظلم، والعنف، والخداع. لقد مكن هذا الإيمان الزارادشتيين من أن يتمتعوا دوماً بروح معنوية عالية، ويحملوا إلى الناس النور والإيمان بحتمية انتصار الخير على الشر.

إن ما أوردناه هنا ليس سوى رسم تخطيطي لتعاليم زارادشت. أما جوهر هذه التعاليم، فقد عرض بالتفصيل في رؤيا زارادشت، التي دُونت في كتابه المقدس (الأفستا). إنه إنجيل زارادشت أو قرآنه. ولا تحتوي الأفستا على مجموعة النصوص المقدسة لتعاليم زارادشت فقط، بل فيها أيضاً معلومات عن سيرة حياة مؤسس هذه التعاليم. ونعرف نحن اليوم ثلاثة من كتب الأفستا، هي الياسنا، والياشتا، والفيديفدادتا. كما شاعت شيوعاً واسعاً مجموعة الصلوات اليومية: الأفستا الصغرى. ويتألف كتاب الأفستا الأول (الياسنا) من اثنين وسبعين فصلاً، تؤلف الأناشيد منها سبعة عشر فصلاً، وكان زارادشت نفسه هو الذي ألّف تلك الأناشيد. وقد تبين من تحليل نصوص الأناشيد المذكورة للمتخصصين أن زارادشت لم يكن ابن عائلة ثرية. فاسم زارادشت نفسه يعني: «ذلك الذي يقود الجمل». لكن أبناء وطنه لم يفهموا تعاليمه. وهذا ما حصل لتعاليم المسيح (لم يقبلها اليهود)، ولتعاليم محمد في بادئ الأمر (لم تعترف مكة بها)، ولتعاليم بوذا (لا تزال الهند تعتنق الهندوسية السابقة للبوذية). لقد لاحقوا

زارادشت في وطنه واضطهدوه. بيد أنه لم يصعد الجلجة، بل اختبأ عند الحاكم فيشتاسبا الذي اعتنق الزارادشتية.

لقد كان أتباع زارادشت يعبدون النار. وكانت هذه رمز الرب الحكيم (أهورامازدا). وتجلت النار المقدسة (أتار) في مظاهر مختلفة: النار السماوية، ونار الصواعق، والنار التي تمنح الجسد البشري الحياة والدفء، والنار التي كانوا يوقدونها في المعابد الزارادشتية. وكانت هذه معابد خاصة: أبراجاً. وكل معبد منها كان يحتوي على محراب بأربع درجات، ارتفاعه متران. وكانت النار المقدسة توضع في كأس نحاسية كبيرة موضوعة على المحراب المبني من الحجارة. وقد حجبت قاعة النار هذه عن قاعات المعبد الأخرى، بحيث لا يمكن للمصلين في المعبد أن يروا النار مباشرةَ. لقد كان باستطاعتهم أن يروا انعكاسها فقط.

وعبر السلّم كانوا يحملون النار إلى سطح المعبد لكي تُرى من بعيد. ومن النار المشتعلة دائماً في معبد النار، كانوا يشعلون نيران معابد المدن. ومن نيران معابد المدن، كانوا يشعلون نيران محاريب القرى، ومن هذه الأخيرة إلى محاريب المنازل. ولم تكن للنيران المقدسة كلها، الأهمية عينها. فقد كان لكل وليّ صنعه الرب الحكيم ناره الخاصة به، وكان وليّ البر والتقوى (بهرام)، هو الولي الأهم بينهم. فناره هي الجذوة الأساس التي أخذت منها النيران المقدسة لأكبر مدن إيران والمقاطعات الرئيسة. إن هذه النار هي الأكثر عظمة واحتراماً، هي التي كانت تمنح الناس القوة في صراعهم ضد الشر. ولم تكن نار بهرام ناراً عادية. فهي تتألف من ستة عشر نوعاً من أنواع النار، أخذت من مواقد ممثلي فئات المجتمع كلها: خدم العبادة (الكهنة)، والجنود، والكتبة، والتجار، والصناع، والزراع، والرعاة، و... وكانت النار التي تقدحها ضربة صاعقة لشجرة ما، هي النار الرئيسة بين النيران الأخرى كلها. لذلك كانوا ينتظرونها طويلاً، ويحافظون عليها بحرص شديد.

ولم يقتصر الأمر بالنسبة للزارادشتيين على خدمتهم النار، بل اعتنوا بها وجددوها. فكانوا ينظفونها من الشوائب والرواسب، ويضرمون في المحراب بين وقت وآخر ناراً جديدة. لقد كانت نار المحراب ناراً مقدسة، لم يكن مسموحاً لأحد أن يتعامل معها سوى الكاهن. وكان ينبغي على هذا الأخير أن يرتدي في أثناء ذلك زياً خاصاً يشبه زي الطبيب الجراح في أيامنا هذه: رداء أبيض، وقبعة بيضاء معها قناع أبيض على وجهه. وكان الغرض من القناع، هو حماية النار المقدسة من دنس تنفس الكاهن. وكان من بين مهمات كاهن الخدمة، الحفاظ على النار مشتعلة في المصباح. فاستخدم لهذا الغرض ملقطاً خاصاً، وعمل على أن تكون الشعلة فيه مستوية. أما مصدر النار، فهو خشب من أثمن أنواع الشجر وأشدها صلابة (بما فيه خشب شجرة الصندل). ولم تكن النار تبعث النور

والدفء فقط، بل كانت تفوح من الخشب المحترق روائح عطرية طيبة. وكانوا يجمعون رمادها ويدفنونه عميقاً في الأرض.

لقد كان الأساس الأخلاقي لهذه الديانة، التي كانت ديانة الدولة الرسمية طوال ثلاثة عشر قرناً، أساساً راسخاً وفّر الفرصة الضرورية لبناء مجتمع قوي معافى، كانت حياة الفرد فيه منظمة بدقة. لكنه كان تنظيماً أقرب إلى ما كان يجري في الطبيعة. لقد كانت الطقوس والشعائر الأهم مرتبطة بالاحتفال بحلول العام الجديد، وعبادة الأسلاف، وتكريم المشروب المقدس، وإشراك الأحداث في شؤون الإيمان، وعقد القران، وولادة مولود، ودفن متوفى، وما إلى ذلك. وكان الكهنة هم بالضرورة من كان يؤدي تلك الطقوس.

وللصلاة مكانة مهمة في الزرادشتية، وقد كانت فروضها تُؤدى للرب الحكيم خمس مرات كل يوم، ليس أقل. وكان من الواجب أن تؤدى الصلاة ليلاً أيضاً. لقد كان الزرادشتيون يذكرون الرب صباحاً، وقبيل النوم، ولدى خروجهم من المنزل ودخولهم إليه، وعند التطهر، ولدى إقامة المراسم الطقسية الأخرى. ولم تكن الصلاة تؤدى في المعبد فقط، بل في أي مكان متاح. وكان ينبغي على المصلي أن يممّ وجهه نحو الجنوب بالضرورة. وكان الكاتب الإيراني صادق هداية قد وصف تأدية الصلاة في المعبد الزرادشتي على النحو الآتي: «أذكر جيداً عندما كنت ذات مساء أقيس أبعاد هذا المعبد. كان الطقس حاراً، وكنت منهمكاً تماماً. وفجأة رأيت رجلين يتجهان نحوي في ملابس لا يرتديها الكهنة الآن. ولما اقتربا، رأيت نفسي أمام شيخين طويلي القامة، بنيتاهما قويتان، وأعينهما تبرق بلمعان غريب، وملامح وجهيهما غير عادية، كما بدت لي... لقد كان هذان رجلين زرادشتيين يعبدان النار، كما كان يفعل أسلافهما الملوك القدماء المدفونون في هذه المقابر. فجمعا الحطب على عجل، ثمَّ أضرما فيه النار، وشرعا يقرآن صلاة بطريقة خاصة تشبه الهمس... فظننت أن اللغة كانت لغة الأفستا عينها. وبينما كنت أراقب قراءتهما الصلاة، رفعت رأسي مصادفة، فأصابني الذهول! إذ انحفر أمامي مباشرة على حجارة النواويس المشهد عينه، الذي يمكنني الآن بعد ألف سنة، أن أراه بعيني، لقد خُيّل إلي أن الحجارة عاشت، وأن الناس المحفورين على الصخرة قد نزلوا، لكي يسجدوا لوثن معبودهم».

والحقيقة أن الحجارة حافظت على الكثير؛ فبقيت محفورة فيها على مقابر ناكشي - روستام صور داريوس الأول والملوك الأخمينيين الآخرين، وهم يقفون أمام محراب النار.

ولطقوس التطهر أهمية خاصة في الزرادشتية. ومن الأشياء التي ترى الزرادشتية فيها أشياء غير نظيفة، بعض أنواع النباتات، والحيوانات، والثعابين، والحشرات (النمل وما شابه). وقد عُد لمس ما هو غير نظيف إثمَّاً. أما الكائنات النظيفة، فمنها الإنسان، والكلب، والبقر، والشياه، والقنفذ، والشجر، والنباتات

والثمار التي تنمو في البساتين. وقصد الزرادشتيون بالنظافة، نظافة الجسد ونظافة الروح. ويبذل الزرادشتيون جهدهم كله كي لا يُدنس مصدر الحياة. فمن الواجب غسل اليدين جيداً قبل سكب الماء. واستناداً لهذه الخلفية، حرموا الخروج من المنزل وقت هطول المطر كي لا يتلطخ بالماء والأرض. وكانوا يخرجون الدم من اللحم قبل استخدامه في الطعام. ومنعوا إقامة الولائم والاستحمام في حضور أتباع الديانات الأخرى. كما كان ينبغي أن تكون نار موقد المنزل نظيفة: خشبها نظيف وجاف. وفي أثناء طهو الطعام على النار كان يجب الحرص حرصاً شديداً على ألا تسقط أي قطرة منه فيها. لقد كان كل شيء معداً وفق تقنية جيدة: كانت القاذورات تحمل بعيداً إلى خارج المنزل عبر آليات معدة لهذا الغرض. فكانوا يخلطونها قبل ذلك بخليط خاص يخزن في مخزن خاص.

وكانت المرأة عند الزرادشتيين عضواً كامل الحقوق في العائلة والمشاعة. وكانوا جميعاً يحسبون لرأيها حساباً. وكان طقس التطهر لزاماً على الأمهات بعد الوضع. ولم يعف حتى الكهنة من طقس التطهر. بل كان الكاهن المقبل يخضع لعدد من مراحل التطهر، لأن إقامة الطقس كانت تستمر أسبوعين. وفي كل يوم كان المرشح للكهنوت يغتسل ست مرات بالماء، والرمل، ومركّب خاص يدخل البول في بنيته. وفي أثناء ذلك كان الشخص المعني يتلو صلوات معينة، وكان اللقب الكهنوتي ينتقل بالوراثة، لكن إضافة إلى تأديته طقس التطهر، كان المرشح للكهنوت يدرس تخصصه دراسة دقيقة شاملة.

أما المواليد الجدد، فقد كان المنجّمون يكشفون عن مستقبلهم حال ولادتهم، وإذ يبلغون طور البلوغ، كانوا يؤدون طقس التكريس: بين سن السابعة والخامسة عشرة. فيوضع على وسط الفتى حزام محوك من الخيوط لا يفارقه أو يفارقها مدى الحياة. وكان يجب أن يقام طقس البلوغ في المنزل على ضوء المصباح. وكانت تقرأ في أثناء ذلك صلوات من الأفستا.

إننا لا نقول جديداً عندما نقول: إن للزرادشتية تاريخاً مجيداً وطويلاً. فقد ظهرت، وازدهرت، ثمَّ أزاحها الدين الجديد: الإسلام. ولم يبن الزرادشتيون الأوائل معابد، كما لم يرسموا أي صور للرب الحكيم وأوليائه. ولكن عندما أصبحت الزرادشتية في القرن 6ق.م دين رسمي لدولة فارس، بدؤوا يرسمون صورة الرب الحكيم شبيهاً بالإله الآشوري. وعملاً بأمر الملك داريوس الأول حفروا رسم الرب الحكيم على حجر أقاموه في العاصمة الفارسية. وكان الرسم عبارة عن صورة لملك له جناحان مبسوطان؛ وكان يضع على رأسه تاجاً تحيط

به هالة من النور على شكل قرص الشمس؛ وكان التاج ينتهي بكرة عليها نجمة. ويحمل الملك (الإله) بيده رمز السلطة.

ومنذ القرن 8ق.م كانوا قد شيّدوا للنار معابد، ورسموا صور الرب الحكيم وأوليائه وآلهته التابعين، الذين صنعهم بنفسه. فقد أمر الملك أرتاكسيراكس الثاني (404-359ق.م)، بإقامة تماثيل لإلهة الماء والخصب أناهيتا، في عدد من مدن فارس. كما عمل ملوك إيران الساسانيون على تعظيم الزرادشتية دوماً. فقد بني في زمنهم عدد كثير من معابد النار في مختلف أرجاء البلاد. وكانت هذه السلالة قد وصلت طور ازدهارها في القرن 3ق.م. وكانت معابد النار تُبنى من الحجارة أو الطين غير المشوي، وفق مخطط نمطي واحد، وكانت موجوداتها متواضعة، وجدرانها مخصصة من الداخل. وكان في كل معبد محراب فيه نار مقدسة.

وبعد أربعمئة عام، عند أواسط القرن 7م استولى المسلمون على فارس، وألحقوها بدولة الخلافة العربية. وعلى امتداد ما يقارب المئتي عام، لم يضطهد المسلمون أتباع الزرادشتية. ولكن بعد أن وحّد هؤلاء أكثر شعوب غربي آسيا تحت سلطتهم (في القرن 11م)؛ أمر الخلفاء العباسيون بتدمير معابد النار الزرادشتية كلها تدميراً تاماً. ودعوا الزرادشتيين «كفاراً»، وحرموهم من شتى الحقوق المدنية. كما فرضوا عليهم تأدية الجزية. ومن كان منهم يعاند، كان يضطهد من غير رحمة. فهجر كثير من الزرادشتيين وطنه، الذي بات تحت سيادة الأغراب المسلمين. وجاءت عدة آلاف منهم إلى الهند. وباتوا يدعون فيها فرساً. والحقيقة إن طريق الزرادشتيين إلى الهند كانت طويلة. فقد خرج هؤلاء في بادئ الأمر إلى الخليج العربي، وأبحروا منه إلى جزيرة ديف، حيث أقاموا فيها تسعة عشر عاماً. فقد أذن لهم الرّاجا المحلي بأن يقيموا هناك في مكان دعوه هم: سابخان. وبنوا فيه معبد النار أتيش بهرام. وبقي هذا معبد النار الوحيد في ولاية غوجارات الهندية طوال ثمانية قرون. ومع مرور الزمن، اندغم هؤلاء الفرس بالسكان المحليين. ونسي أحفادهم ثمَّ أحفاد أحفادهم لغتهم الأم، وباتوا يتحدثون اللهجة المحلية. ولم يبق مخلصاً لتعاليم الزرادشتية سوى الكهنة. فحافظوا على زيهم القديم عينه؛ لكن الفرس كلهم تمسكوا بمشاعتهم بقوة. وكان في بلاد الهند خمسة مراكز رئيسة لاستيطان هؤلاء: فانكوتير، وفارناف، وأنكيسار، وبراتش، ونافيساري. وفي القرنين 16-17م، ظهرت للفرس مراكز في بومبي وسورات.

ولكن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة للمهاجرين الفرس. لكن أحوال الزرادشتيين الذين بقوا في فارس كانت أكثر صعوبة. فقد هدم المسلمون معابدهم، ودمروا كتبهم المقدسة، بما فيها كتاب الأفستا. ولم ينج سوى جماعة صغيرة من المؤمنين الذين ابتعدوا عن الأماكن المزدحمة، وحاولوا أن يختبؤوا وراء الجبال والصحارى.

لقد كانت الزرادشتية تعيش في القرنين 11-12م وضعاً شبه سري. فخلت معابدها من المؤمنين، لكن النيران المقدسة بقيت متقدة في أماكنها المعتادة. بيد أن المسلمين أدركوا الزرادشتيين في ملاجئهم النائية تلك، وفي القرن 17م قاد عملية ملاحقتهم شاهات السلالة الصفوية. لقد أمر هؤلاء بطرد الزرادشتيين من المدن، وإرغامهم على اعتناق الإسلام، أو مواجهة عقوبة الموت قتلاً. ومع ذلك بقي الزرادشتيون الأكثر صلابة مقيمين على خدمة الرب الحكيم. فبنوا منشآت من غير نوافذ حلت محل معابد النار. ولم يكن يدخل إليها سوى الكهنة، بينما كان باقي المؤمنين يمكثون في الشطر الآخر من البناء.

وفي العصر الحديث أيضاً عانى الزرادشتيون من الاضطهاد في إيران. فقد سيطر المسلمون على مجمل نواحي حياتهم. وبات عليهم أن يحصلوا منهم على إذن حتى لبناء مسكن. كما منعوا من العمل في كثير من المهن، فحرمت عليهم التجارة باللحوم، والعمل في مهنة النسيج و... وألزموا بارتداء ثياب صفراء اللون، أو فاتحة اللون. لقد جاب الزرادشتيون الآفاق، وانتقلوا من مكان لآخر هرباً من الاضطهاد وتفادياً للاندثار. وغني عن البيان القول: إن هذا كله كان لا بدَّ أن يترك أثراً على مظهرهم الخارجي ومزاجهم النفسي. لقد كان عليهم أن يفكروا دوماً بالنجاة، لإنقاذ طائفتهم من الهلاك، والعمل على استمرارها على قيد الحياة لأكثر من جيل آخر.

ولم يأت تطور الأحداث ملائماً للزرادشتية. ففي العام 1206م قامت في دلهي سلطة إسلامية. واستولى المغول على فارس. وفي العام 1297م استولى المسلمون على غوجارات. فانقطعت الصلة بين زرادشتيي الهند وزرادشتيي فارس.

وما زاد الأمر صعوبة بالنسبة للزرادشتيين الفرس، أن تمييزهم عن المسلمين الفرس، كان أمراً في غاية السهولة. فالزرادشتيون كانوا يرتدون قميصاً قطنياً واسعاً مع سروال. ويتحزمون بحزام عريض أبيض، ويعتمرون قلنسوة من اللباد، أو عمامة. وعلى وجه العموم كان هؤلاء شعباً جميلاً. رجالهم أقوياء البنية، طُوال القامة، عريضو المناكب، أنوفهم كأنف الصقر، شعرهم أسود طويل مسترسل، لحاهم كثيفة، عيونهم رمادية واسعة. ولما كانت نساؤهم فاتنات الحسن، فقد كان الفرس المسلمون يخطفونهن عنوة ويتزوجونهن.

أما فرس الهند فقد كان اضطهادهم أخف وطأة. وكان هؤلاء مربي حيوانات وفلاحين ناجحين. كما نجحوا في صناعة الخمور، وزرعوا التبغ، وعملوا بالتجارة: كما كانوا يزوّدون البحارة بالماء والخشب. ثمَّ تحول هؤلاء فيما بعد إلى وسطاء تجاريين مع الأوروبيين.

ونحن لكي نحدد مكانة الإنسان في هذا العالم، علينا أن نمتلك قبل ذلك، تصوراً معيناً عن هذا الأخير، عن مبادئ بنائه، عن قوانينه التي يعيش ويتطور وفقها. وبناء على مثل هذا التصور تتشكل قواعد سلوك الإنسان في الحياة، أخلاقياته. وتعد مسألة الحياة والموت إحدى وجوه هذه المعضلة. فإذا كان موت

الجسد فيزيولوجياً يعني نهاية كل شيء بالنسبة للإنسان، فإن هذا ليس إلا سيناريو واحداً تنتج عنه معاييره السلوكية الخاصة. وإذا كانت الحياة تتواصل بعد موت الجسد فيزيولوجياً، لكنها تتخذ أشكالاً أخرى، فإنه يترتب على هذا قواعد سلوكية أخرى، وقيم أخرى. ولذلك فإن الموقف من الحياة والموت يتسم بقدر كبير من المبدئية.

- لقد حسم معتنقو التعاليم الزارادشتية مسألة الحياة والموت على النحو الآتي:

لا يموت سوى الجسد الفيزيولوجي للإنسان، فتنتقل روحه إلى العالم الآخر. وهناك تمضي أولاً إلى قمة جبل العدالة، وينبغي عليها أن تجتاز في أثناء ذلك جسر تشينفات. لكن الصعوبة تكمن في أن أرواح الأبرار وحدها التي تنجح في اجتيازه. فعندما تبدأ روح البار بالعبور، ينفتح الجسر حتى يغدو آمناً سهلاً. ولكن إذا ما كانت الروح العابرة روح آثم، فإن الجسر يضيق حتى يغدو كالخيط، فتسقط روح الآثم في اللجة. ولا تهتم الزارادشتية بعد ذلك بمصيرها. فجهنم التي نعرف عنها، لا وجود لها في الزارادشتية. أما الجنة فهي موجودة، وتقيم فيها أرواح الأبرار. وفيها يقوم العرش الذهبي للإله.

ولأرواح الأسلاف والأبطال ومعلمي الزارادشتية مكانة خاصة في العالم الآخر. وينسحب هذا على الأرواح الحارسة. وقد أطلقت الزارادشتية على هذه الأرواح كلها اسماً واحداً، وهو فرافاشي. وتعتني هذه بالناس الذين يعيشون على الأرض. وتساعدهم على تحصيل القوت والماء، وتحسين خصوبة الأرض، وجمع محصول وفير. كما تساعد الفرافاشي على بقاء العشيرة ورخاء العائلة. والفرافاشي معبودة مثلها مثل الآلهة. وفي الأعياد يخصصون لها تقدمات من المأكولات والملابس.

وحسب تعاليم زارادشت أن الإنسان يتألف من طبيعة مادية، وأخرى نفسية، وثالثة روحية. فمن هم الفرافاشي إذاً؟ إنهم صورة الإله وشبهه، عنصر أزلي خالد. والإنسان نفسه هو من حيث جوهره عنصراً خالداً مشرقاً لا يتلف، ولا يقيّد هذا العنصر جسد الإنسان وروحه بأي قيد. ويرتبط عنصر الإنسان مع الإله ارتباطاً لا تنفصم عراه، إنه جزء من الإله. وفي طور معيّن عاش الفرافاشي (الإنسان السماوي) حياة كونية. وخلافاً للحياة الأرضية، كانت هذه الحياة حياة رحبة، حرة ومكتملة. ولكن في لحظة ما، سقط الإنسان السماوي، لماذا؟ هل الروح الشرير هو السبب؟ عن هذا السؤال أجاب الزارادشتيون إجابة حكيمة. عندما طرحوا السؤال الآتي: ما هو الشر من حيث جوهر الأمر؟ فما هو شرّ بالنسبة لبعضهم، قد يكون خيراً بالنسبة لبعضهم الآخر، بل أكثر من هذا فالأمر

عينه قد يكون خيراً بالنسبة لأحدهم في وقت ما، ثمَّ ينقلب إلى شر بالنسبة للشخص عينه في وقت آخر. إذاً كيف نستدل على الشر؟ وأين يكمن مصدره؟ وكيف لنا أن نجفف هذا المصدر؟ إننا نعثر على إجابة لهذا السؤال في المثال التالي. تقول الحكاية: في الأزمنة الغابرة كان يعيش رجل طيب، وقد حدت به الرغبة يوماً لأن يرى الشر بأم عينه، أي لقد أراد الرجل أن يعاين عنصر التدمير عينه، روح الشر. فجاب العالم كله، وركز انتباهه فقط على الشر الذي يأتيه الناس على الأرض. لكنه عندما حلل الأمر ليعرف لماذا يصنع الناس الشر توصل إلى نتيجة مفادها: إن الناس يعملون الشر إما بسبب تربيتهم الفاسدة، أو بسبب فقرهم، أو لأن اليأس أو الوحدة أو الجنون يسيطرون عليهم. كما يرتكب الناس الشرور أيضاً، بسبب حركة قوانين الطبيعة التي لا تلائم الإنسان. وعليه فقد عجز الباحث عن الروح الشرير في العثور عليه فجاءه هذا في الحلم وقال له: «أنت تبحث عني في كل مكان، لكنك لا تبحث في المكان الأصح. فأنا أقيم في عينيك، وفي قلبك، فكّر في هذا!»

إذاً، من أين جاء الشر؟ يجيب الزرادشتيون بالآتي: لقد ظهر الشرّ في العالم في اللحظة التي ظهر فيها القلب، الذي أذِن بانطلاق شعور شرير تجاه ما لم يكن يمثل بذاته شراً. ولماذا يتصارع في الإنسان عنصران؟ فمثل هذا الصراع يبدأ في اللحظة ذاتها التي يجيز فيها القلب ما هو شر. إنها هي اللحظة عينها التي يولد الشر فيها في هذا القلب؛ وفيها يبدأ صراع العنصرين.

ولكن ماذا بشأن الروح الشرير؟ إنه غير موجود، وهو لم يغو الإنسان. إنه الشبح الموجود في القلب. وهو لا يخرج منه إلى السطح، إلا عندما ينفجر العنصر الشرير في داخل الإنسان نفسه. ولكن متى ولد الشر في الإنسان السماوي لأول مرة؟ ألم يكن له ما للإنسان نفسه؟ بيد أنه يمتلك إضافة إلى ذلك، إمكانية أن يضع نفسه نقيضاً للكل الكامل. وقد أراد يوماً أن يضع نفسه في المركز، فانتصرت الغواية على الإنسان السماوي. لقد رغب في أن يبرز «أناه»، ويضع ذاته في مواجهة باقي العالم كله. لقد خرج الإنسان من العالم المحيط به، وقطع الخيط الذي كان يربطه به. فتجزّأ وعيه وتحول إلى شظايا الكل المدمر. وبات الإنسان المتميز إنساناً عادياً. وقد صيغت هذه الحالة الجديدة على النحو الآتي: «مثلما يمكن أن

تسقط الموسيقى التي تعزف لحناً متكاملاً إذا ما انشغل العازفون في أثناء تأدية اللحن، بالتفكير بكل نغمة على حدة، كذلك انقسم الإحساس الكلي بالحياة في الإله، كالعقد المقطوع إلى شطرين مكونين له». هكذا سقط الإنسان السماوي، لقد مزقته قوة النبذ الأنوية.

كما أنتجت تصورات الزرادشتيين عن الحياة والموت طقس وداع الميت إلى العالم الآخر. إنه طقس غير عادي أبداً. فقد حرّموا دفن الميت في الأرض وحرقه، بل تركوا جثمانه للضواري والجوارح تمزقه. وإذا ما توفى الشخص شتاء يحفظون جسده إلى أن «تظهر الطير في السماء وتزهر النباتات، وتخرج المياه المختبئة في جوف الأرض، وتجفف الريح الأرض». عندئذٍ فقط يتركون جسد المتوفى تحت عين الشمس، لكي تتمكن الجوارح والكواسر من تمزيقه. ومنذ وفاته حتى اليوم المعني (يوم دفنه)، يبقى جثمان الميت محفوظاً في مكان مخصص يفصل بينه وبين سكن الأحياء حاجز. وعلى مدى ذلك الوقت كله، حتى يوم الدفن كان يجب أن تبقى النار متقدة في حجرة المتوفى، إنها رمز الإله الحكيم. لقد كانت النار تُحجب عن المتوفى بعريشة عنب. وكانت هذه تستر النار المقدسة عن أعين العفاريت. وما ينبغي أن يقال، إنه وحسب تعاليم الزرادشتية، فإن المتوفى ليس سوى تعبير عن عنصر الشر، لأن الموت نفسه شر. ولذلك حرّمت الزرادشتية لمس الميت تحريماً صارماً. إلا لمن يغسلون الجثامين. فقد كان هؤلاء يغسلون جسد المتوفى ثمَّ يكفنونه، ويضعون الحزام المقدس على صدره ويديه وفوقه. وفي الفصول الأخرى (ما عدا فصل الشتاء)، كانت تقام مراسم الدفن في اليوم الرابع بعد الوفاة. لقد اعتقدوا أن روح المتوفى تنتقل إلى العالم الآخر في هذا الوقت بالضبط.

لقد كانت مراسم الدفن تُؤدى وقت الشروق. فيسجى جثمان المتوفى على لوح خشبي، ثمَّ يوضع هذا على حمالة حديدية يحملها الغسالون إلى المقبرة. وكان الموكب الجنائزي يتألف من أقارب المتوفى. وفي المقدمة يسير الكهنة. أما المقبرة فقد كانت مصممة وفق مخطط خاص. فهي منشأة ارتفاعها 4.5م، يذكرنا شكلها بالبرج المستدير وكانت أرض البرج هي المقبرة، فقسمت إلى ثلاثة مجالات متداخلة فيما بينها: جثامين الأطفال، وجثامين النساء، وجثامين الرجال. وكان كل جثمان يثبت في منطقته، وهنا كانت الجوارح والكواسر تمزقه، ثمَّ تجفف الشمس عظامه. وعندما تجف هذه تماماً، يجمعونها ويرمون بها في بئر عميقة تقوم في وسط البرج تماماً. وكانت البئر مكسوة بالحجارة. وقد دعا الزرادشتيون هذه المقابر: أبراج الصمت.

وفي العقود الأخيرة من القرن الميلادي العشرين، طمر العراقيون أبراج الصمت هذه. وفي أيامنا هذه يدفن الزرادشتيون موتاهم في الأرض، لكنهم

يملؤون القبر بالإسمنت حتى آخر مساحة، حماية للأرض من الدنس. ولكن فرس الهند لا يزالون حتى الآن يدفنون موتاهم في أبراج الصمت.

ولم يكن طقس الدفن وحده هو الذي نُظّم عند الزارادشتيين تنظيماً دقيقاً، فبالدقة عينها نظموا طقس الاحتضار، وطقس صلاة الغائب. فقد كان ينبغي أن يلازم سرير المحتضر ملازمة تامة اثنان من الكهنة. أحدهم يقرأ الصلوات من غير توقف ووجهه صوب الشمس. بينما يعد الآخر الشراب المقدس أو عصير الرمان للمحتضر. لقد كان الكلب حيواناً مقدساً عند الزارادشتيين، فهو يقضي على النجاسة. ولذلك كان يجب أن يكون هذا الحيوان حاضراً عند فراش المحتضر. وعليه ليس عبثاً أن اعتقد الزارادشتيون أن الكلب يحس آخر نفس وآخر دقات قلب الإنسان. لقد كانوا يفعلون الآتي: يضعون قطعة خبز على صدر المحتضر. وعندما يلتهمها الكلب، يجزمون بأن المحتضر مات.

أما صلاة الغائب فإقامتها عند الزارادشتيين إلزامية، لأنه ينبغي على من هم على قيد الحياة أن يبجّلوا أسلافهم الراحلين؛ الذين سوف يتصلون بهم بعد الموت ثانية. وقبيل صلاة الغائب كان الأقارب يؤدون طقس الاغتسال (غسل اليدين، والوجه، والعنق). وكان يجب بالضرورة ارتداء ملابس نظيفة قبل ذلك، وغسل أرض المنزل بعناية. كما كان يجب إدخال النار المقدسة إلى البيت. وفي الشتاء لم تكن شعيرة إدخال النار تؤدى إلا في اليوم العاشر بعد الوفاة. أما في الصيف فلا تُحمل النار إلى المنزل، إلا بعد شهر من الوفاة. ثمَّ يقام بعد ذلك طقس تقديم القربان، فيرمى بعض قطرات الزيت في النار. كما كانت تقام صلاة الغائب في اليوم العاشر وفي اليوم الثالث عشر. ثمَّ بعد مرور سنة وما بعد. وفي أثناء إقامة صلاة الغائب كان الكهنة يعدون الشراب المقدس، ويقرؤون الصلوات. وكان الكاهن يحمل بيده أثناء الصلاة غصناً من شجر الصفصاف أو شجر الأثل. ثمَّ يتناول المشاركون في الطقس طعاماً خاصاً. ويجلس المصلون إما على الأرض مباشرة أو يجلسون القرفصاء، ويرفعون في أثناء تلاوة الصلاة أيديهم إلى الأعلى، لكنهم خلافاً للمسلمين، لا يلمسون الأرض قط.

سـر الإلـه ميتـرا

لقد شكلت تعاليم زارادشت مصدراً لديانة أخرى حظيت بانتشار واسع جداً. فمن المعروف أنه كان ثمَّة في دائرة الرب الحكيم آلهة أخرى، ومنهم الإله ميترا. وكلمة ميترا تعني «الوفاق»أو «الاتفاق». وفي أوائل التاريخ الميلادي كان الإله ميترا واحداً من أكثر الآلهة تبجيلاً في آسيا الوسطى وشمالي الهند زمن الدولة الكوشانية الجبارة. وقد عبده الملوك الأخمينيون، ومنهم قورش الأصغر وداريوس الأول. فقد كان ميترا بالنسبة لهؤلاء إله الشمس والنار الأزلية. لقد عظّمت الزارادشتية الإله ميترا تعظيماً كبيراً.

وفي العالم الهلنستي، كما في زمن الإمبراطورية الرومانية شاعت الميترية شيوعاً واسعاً. فقد كان ميترا هو الإله الذي يهب النصر، لذلك حظي بإجلال عظيم عند المقاتلين الرومان.

ومنذ القدم ظَهرت عبادة ميترا في الألف الرابعة ق.م فهو حاضر في الفيدات والأفستا. وكانت وظيفته الحفاظ على سير الحياة في المجتمع سيراً طبيعياً. وهو الذي كان يقيم الوفاق بين الناس، ويحمي البلاد من النزاعات والحرب، وينزل العقاب بالأعداء، ويهتم بكل ما خلقه الرب الحكيم. وميترا هو إله الشمس: كانوا يحتفلون بيوم ميلاده يوم الانقلاب الشتوي، أي في 25 كانون الأول. ومن الواضح أن هذا التاريخ قد انتقل إلى المسيحية، إنه يوم ميلاد يسوع المسيح. ويعدّ ميترا ابن الرب الحكيم من زوجته أرمايتي، إلهة الأرض.

وفي طريقها إلى العالم الآخر كان ينبغي على أرواح الموتى أن تعبر جسر تشينفاد، الذي كان يقف عليه ميترا وشقيقاه، وهناك كان هؤلاء يعقدون محكمتهم التي كانت تقرر من سيعبر، ومن يرمى في الهوة. ولم يكن ميترا يزن بميزان العدل كل أعمال الشخص فقط، بل نواياه أيضاً. ورأى المؤمنون في ميترا وسيطاً بين الرب الحكيم والروح الشرير. فميترا الشاب أبداً يدرأ الشر عن البشر ويبذل كل جهده في سبيل أن ينتصر الخير. فقد كان ميترا يمتلك فكرة الخير، وكلمة الخير، وفعل الخير.

لقد كان ميترا يحفظ النظام العام والأخلاق، وكان هو المساعد الرئيس للإله الحكيم. ولذلك فإن الأخلاق في الميترية، هي عينها التي في الزارادشتية. والحقيقة هي أن الأخلاق واحدة في الديانات الحقيقية كلها. ولا يمكن أن تكون الأخلاق مختلفة: إما أن تكون موجودة، أو لا تكون موجودة. وتتميز الديانات الحقيقية بأن الأخلاق فيها موجودة. وينبغي على الإنسان أن يختار بين الخير والشر. وعليه أن يحارب الشر، ولا ينتجه. كما ينبغي عليه أن يكون شريفاً، وصادقاً، وسمحاً، وحكيماً.

وقد أنشأت الميترية نموذجاً متدرجاً للكمال الأخلاقي، أولى درجاته هم الجنود. فهؤلاء يخوضون قتالاً مريراً ضد المبدأ الشرير. ثمَّ يلي الجنود على درجات السلم الأخلاقي، الضباع والأسود، إذ يشن هؤلاء حرباً ضد روح البغض الغدار. وتقف الغربان على الدرجة الثالثة من السلم. إنها تحس لحظة نهاية عنصر الشر (موته). يليها الذهبيون والحديديون، إذ يحمل هؤلاء في نفوسهم أملاً راسخاً بالحرية، لأنهم تمرسوا في الصراع ضد الشر. ويلي هؤلاء على أعلى درجات سلم الكمال الأخلاقي، الإله ميترا الظافر: لقد هزم ميترا الشر.

لقد كانت تستمر الصلاة للإله ميترا من لحظة بزوغ الفجر حتى منتصف النهار. وكرسوا له اليوم السادس عشر من كل شهر، ففي هذا اليوم كانوا ينشدون الأناشيد على شرفه وشرف الشمس. وكان يجب على الملك نفسه أن يؤدي الرقصة المقدسة أمام الشعب في أعياد ميترا. فبتلك الرقصة كانت تبدأ احتفالات الشعب بالعيد. وكانت الحركات المقدسة تؤدى على شرف ميترا في الكهوف والسراديب غالباً. كما استقرت محاريبه في الصخور. وقد دعوا هذه «بالميتريات الصخرية». وكان ثمَّة سلم مؤلف من سبع درجات يقود إلى كل منها. ومن المعروف أن العدد سبعة هو عدد سحري في ديانة الشرق القديم كلها. وأخذت الميترية كثيراً عن الزارادشتية. لقد رمّز الميتريون موت الطبيعة وانبعاثها على النحو الآتي: في وقت الاعتدال الربيعي يبكي الميتريون الإله ميترا بصفته ميتاً؛ فيضعون تمثاله ليلاً في نعش حجري، ثمَّ يأخذونه منه صباحاً، ويشرعون بإنشاد الأناشيد التي تمجده.

وما يثير الاهتمام على وجه الخصوص أن المؤمنين كانوا يأكلون على شرف ميترا خبزاً، ويحتسون خمراً، ويشربون شراباً محلى. ومن المعروف أن

سر المناولة المسيحي يرتبط بالخبز والخمر أيضاً (أي جسد المسيح ودمه). وما يستحق الاهتمام أيضاً، أن سر المعمودية كان بدوره طقساً من طقوس الميترية، به كانوا يحررون الشخص من آثامه. فقد كان الشخص المعني يتصل في أثنائه مع الإله ميترا. وكانوا يقدمون في أثناء تلك المراسم الخبز قرباناً لميترا. لقد كانوا يمسحون يدي المعمّد ولسانه بالعسل، كي لا تدخل الآثام وعيه وجسده.

لقد كان على المؤمنين كلهم أن يتلقوا سر المعمودية. أما من أراد (أو كان يجب عليه) أن يصبح كاهناً، فقد كانت طقوس تكريسه ومراسمه أكثر تعقيداً. ففي بادئ الأمر كان على المرشح للكهنوت أن يجتاز نحو الثمانين تجربة وامتحاناً، بعضها كان على الشكل التالي: اجتياز نهر جليدي عميق سباحة، ثمَّ المرور عبر النار، وتسلّق صخرة عمودية تماماً، والبقاء وحيداً لوقت طويل، والامتناع عن ارتداء ملابس دافئة، أو ارتداء حذاء مهما كانت حالة الطقس الجوي، ووجوب أكل الثمار النيئة فقط، و...

إن الأيديولوجيا الميترية أيديولوجيا متفائلة، نورانية. فالحديث يجري في طقوس هذه العقيدة ومسرحياتها الدينية السرية، عن الانتقال من الديجور إلى النور، وتجاوز الشرور والرزايا. وفي الميترية كثير من الأفكار والطقوس المتشابهة. وقد كان المعلم المسيحي ترتوليانوس محقاً تماماً عندما رأى في طقوس الميترية ما يشبه الأسرار المسيحية. لقد كانت أفكار الميترية تشبه أفكار المسيح شبهاً كبيراً. ويجب على المسيحي الحقيقي أن يفرح لهذا؛ عليه أن يكون سعيداً لأن الآخرين يحاربون الشر، ويعملون على بناء مجتمع ذي مستوى أخلاقي سام. ولكن بعد أن نال قساوسة المسيحية السلطة الروحية ومعها السلطة الزمنية، بات الأمر الأهم بالنسبة إليهم شيئاً آخر: البحث عن سبل للحفاظ على تلك السلطة، وترسيخ أركانها. فقد رأى رجال الدين المسيحي في كل الرعاة الروحيين الآخرين، منافسين يشكلون خطراً عليهم، وتهديداً لسلطتهم، ولذلك شنوا على الميترية وممثليها حرباً ضارية، وحقيقة الأمر هي أن الميترية كانت تشبه من حيث الشكل والجوهر، الديانة المسيحية شبهاً كبيراً. فميترا على سبيل المثال، مثله مثل المسيح، يعد وسيطاً بين الإله والناس، وهو ابن الإله الأعلى، ابن الرب الحكيم الذي يحقق إرادة والده. وهذه الرسالة عينها كان يؤديها يسوع المسيح. وكان كل من ميترا والمسيح يحارب الشر، ويناهض كل أشكال الظلم والقهر. وبعد المآثر التي حققها ميترا على الأرض، أُصعد إلى أبيه في السماء. وكذلك المسيح بعد أن أدى رسالته وحقق إرادة الأعلى، أُصعد إلى السماء، إلى الإله الأب. وفي الميترية كان على المكرس الجديد أن يؤدي طقس الاغتسال، لأنه السبيل إلى التخلص من الآثام. وهذا الطقس هو عينه طقس المعمودية المسيحي، الذي يطهّر من الآثام. وحتى العشاء السري المسيحي، له في الميترية ما يماثله: الوليمة السرية، وليمة ميترا ومعاونيه.

لقد كان رجال الدين المسيحي الأوائل يمدون يد العون للناس في كل شيء (كما كان يفعل المسيح). لقد كان هؤلاء خزنة الحكمة، كما تعلموا الطب وداووا المرضى، وكانوا على دراية بالتنجيم، وعرفوا التاريخ، وأبرؤوا الأرواح، وبشّروا، وحلوا من الآثام. وهذا ما فعله كهنة الميترية عملياً. ومثلما الميتريون كذلك المسيحيون، عدوا أنفسهم أخوة. فكان كل منهم ينادي الآخر: «أخي الحبيب». وهكذا فعل «الأخوة في المسيح». وكما احتفل الميتريون بيوم الأحد، كذلك فعل المسيحيون. زد إلى هذا كله أن الطرفين يحتفلان بيوم ميلاد ميترا والمسيح في يوم واحد، هو 25 كانون الأول.

بعد هذا كله لا يبقى لنا سوى أن نأسف للصراع المرير الذي دار بين المسيحية والميترية. فتعاليهما شقيقتان توأمان. وإذا كانت غاية كل منهما واحدة: تحقيق الرخاء لأتباعهما، وإرساء بذور النقاء الأخلاقي في المجتمع، فما الذي يمكن أن يسوّغ تلك الحرب الشعواء التي دارت بينهما؟ لا شيء بالتأكيد، لم يكن ثمَّة مسوغ. لقد حرصت الصفوة المسيحية دوماً على زيادة مواردها، وكان ذلك يرتبط بزيادة أعداد المؤمنين. ولذلك عمل هؤلاء على ملاحقة الميتريين واضطهادهم. وبفضل تحول المسيحية إلى ديانة رسمية للدولة، باتت هذه تملك إمكانيات حقيقية لاضطهاد منافسيها. وقد ارتدت تلك الملاحقات طابعاً لا أخلاقياً بالمطلق، عداك عن وحشيتها. فلكي يُخرج المسيحيون معبد ميترا من المعركة، أوعزوا إلى موظفيهم بتدنيسه، وقتلوا كاهن ميترا، ودفنوه في أرض المعبد نفسه. بعدئذٍ بات المعبد عاجزاً من حيث المبدأ، عن تأدية وظائفه. على هذا النحو كان الذين دعوا أنفسهم أتباع المسيح، يؤدون عملهم!

انتصار مملكة النور

لقد كان المعلم العظيم مانو داعية النور في الشرق القديم. وقد ولد مانو في القرن الميلادي الثالث لعائلة أرستقراطية، وكانت والدته تنتمي إلى السلالة البارثية، التي كانت تحكم وقتئذٍ في بابل. ومدينة مانو الأم هي مدينة كتيسيفون التي كانت تعني له ما كانت تعنيه الجليل ليسوع المسيح. ولكن الأمر المهم، هو أن المدينة كانت ذات طابع أُممي. فقد كنت تسمع في شوارعها لغات الشرق كلها، وتقابل فيها أناساً ينتمون إلى شتى الديانات والتقاليد الثقافية. وكان جميعهم يتعايش فيها بسلام، وقد كان كل منهم يتأثر بالآخر ويؤثر فيه دينياً، وثقافياً، وفي ميدان العلاقات الاجتماعية. ومن الواضح أن ذلك التعايش لم يكن يشكل البيئة المثالية لنمو الروح القومية، التي تمزق عالم اليوم. فبصرف النظر عن أن الزرادشتية كانت هي الدين الرسمي للدولة البارثية في بابل إبان القرن الميلادي الثالث، إلا أن السلطات البارثية والمواطن البارثي كانا ينظران إلى أتباع الديانات الأخرى، نظرة ود وتسامح. فقد تواصل النبي المقبل مانو، مع اليهود، والمسيحيين، وعرف التوراة معرفة جيدة. كما كانت لوالد باتيتسي صلات مماثلة مع اليهود والمسيحيين. وانضم مانو إلى واحدة من الطوائف اليهودية المسيحية، مع أنه كان قبلئذٍ من أتباع أحد الآلهة المحليين. وقد كانت هذه الطائفة تدعى: «الذين يعمّدون أنفسهم بأنفسهم». ويُروى عن انتماء والد النبي مانو إلى هذه الطائفة ما يلي: «جاء باتيتسي المعبد يوماً كالمعتاد، ليسجد للآلهة. فسمع هنا صوتاً يدعوه للامتناع عن تناول اللحوم، واحتساء الخمرة، ومعاشرة النساء. لكن الرجل حاول أن يطرد الرؤيا، بل فرّ من المعبد هارباً. وفي اليوم التالي تكررت الدعوة عينها. ثمَّ استمرّت الحال عينها أياماً، وبات النداء أكثر إلحاحاً وأكثر تغلغلاً في الروح. وأخيراً لم يبق لباتيتسي إلا أن يلبي الدعوة، ويقبل الوصايا التي لقنه إياها الصوت

الغريب». إذاً، لقد كانت هذه الطائفة تختلف عن اليهودية، كما كانت تختلف عن المسيحية. فكل من هاتين الديانتين لم يحرّم الزواج، ومعنى هذا أن طائفة باتيتسي كانت تنويعة من تنويعات التقشف والتنسك، التي كانت شائعة في الهند شيوعاً واسعاً.

لقد قبل باتيتسي شروط الصوت، وهجر الحياة العائلية غير عابئ بزوجته الحامل. فعاش في الطائفة، ولم يكن يغشى بيته إلا نادراً. وهكذا ولد الداعية المقبل مانو. وإذ بلغ الرابعة من عمره أخذه والده ليعيش معه في الطائفة. ومنذئذٍ بدأ إعداد مانو دينياً. بيد أنه كانت لمانو رسالته الخاصة. وفي الثانية عشرة من عمره أخذت تغشى مانو رؤى خاصة، كان يتحدث أثناءها مع مبعوث إلهي. وقد دعا الفتى ذلك المبعوث «توأمه»، أو «صنوه». ومرة أعلن المبعوث للفتى إنه ينبغي عليه أن يترك الطائفة، لأن رسالة خاصة تنتظره: لقد كان عليه أن ينقل للناس بشرى التحرر. ومع ذلك لم يخرج مانو من الطائفة إلا بعد وقت، أما الآن فعليه البقاء فيها لكي ينهل مزيداً من المعارف، ويراكم مزيداً من التجربة. ومرت اثنتا عشرة سنة أخرى. وفي يوم ميلاده الرابع والعشرين جاءه المبعوث الإلهي، معلناً أنه قد آن الأوان لكي يبدأ مانو دعوته المستقلة إلى الحقيقة.

ومثله مثل بوذا، إذ بدأ مانو حياته التبشيرية في مرحلة مأساوية بالنسبة لشعبه. فالأعداء دمروا المملكة البارثية ونهبوها، وأحرق الغزاة الرومان كتيسيفون، مدينة مانو الأم. كما زاد القادة العسكريون المحليون الحالة تفاقماً، عندما نظّموا سلسلة من حركات العصيان المتتالية. لقد كان كلهم يطالب بالاستقلال، فتبعثرت البلاد وتمزقت أشلاء. وفي غضون ذلك نجحت السلالة الساسانية في الاستيلاء على السلطة. والحقيقة أن هؤلاء نجحوا في صد الهجوم الروماني لبعض الوقت. وفي لحظة الأمل، أمل تحقيق النصر على الأعداء، وبناء حياة جديدة هانئة يسودها العدل، بُعث مانو نبياً للشعب البارثي. لقد حاول مانو أن يفهم الحياة بما فيها من ظلم، ومرار، وعنف، وقتل، منطلقاً في ذلك من منطلق كوني إلهي. فلم ير مانو في هزيمة الأعداء الرومان مجرد حالة من التفوق في الاستراتيجية العسكرية، أو في إقدام الجنود وبسالتهم، بل رأى فيها تجسيداً للمواجهة الكونية بين مملكة النور ومملكة الديجور التي تتحقق على هذه الأرض الآثمة.

لقد كان الحكماء يعرفون أن الكون منسوج من النور والظلام، من الخير والشر، وأن سبب شقاء الجنس البشري، هو وجود مملكة الظلام المخيفة الموحشة، وأن سبب آثام الناس، هو الطمع، والحسد، والكره، وقساوة القلب، والعدوانية، و... أن الصراع بين النور والظلام صراع متواصل لا يتوقف. ولكن غالباً ما يختل توازن القوى بينهما. بيد أن أياً من الطرفين عاجز عن تحقيق نصر تام ناجز على الطرف الآخر في زمننا هذا. ولكن الزمن الآتي بعد زمننا سوف يشهد هزيمة الظلام أمام النور. ومن المعروف أن المعتقدات الدينية كلها تقر مثل هذه الخاتمة لصراع الخير والشر.

إن الإله الأعلى في تعاليم مانو، هو أب النور، أو أب العظمة. وهو حاكم مملكة النور. ويُجسّد هذا الخير والإحسان في ذاته، ويتجلى في صور إلهية أربع. فهو إله، ونور، وقوة، وحكمة. ومُنح أب النور عقلاً، ومعرفة، وبصيرة، وفكراً، وحصافة، ولذلك نجح في إدارة العالم بحكمة. وتُحدد سماته الإلهية في اثنتي عشرة ماهية مباركة أو فاضلة، وهي: السلطة العليا، والحكمة، والنصر، والمسالمة، والنقاء، والحقيقة، والإيمان، وطول الأناة، والاستقامة، والإحسان، والعدل، والنور. من الواضح أن العدد اثنا عشر عدد مقدس عند المانويين.

أما النقيض، أي مملكة الظلام، فإن الحاكم فيها هو ملك الظلام الخبيث الغدار الشرير. وثمَّة في حاشيته حشد كبير من العفاريت والأرواح الشريرة. وهذه تسحر، وتخدع، وتوقع في شباكها مزيداً من الأتباع كل يوم.

ويتحكم أب النور بخمسة عناصر (خمسة عوالم) هي: النور، والريح، والنار، والماء، والأثير. وخمستها عناصر مشرقة. يتحكم ملك الديجور بخمسة عناصر فيزيائية ثقيلة تندفع دائماً نحو الأسفل، وهي: النار، والدخان، والريح، والماء، والظلام. وعلى هذا النحو تظهر النار والماء والريح في أقانيم متباينة: روحية، وفيزيائية، خفيفة وثقيلة.

لقد كان يسوع المسيح قد خاض صراعاً مريراً ضد الظلام، قبل أن يظهر مانو. ثمَّ تابع هذا الأخير الحرب. فالإنسان في حاجة إلى الخلاص، لأن روحه سجينة أغلال الجسد، وإذا ما اعتنق تعاليم مانو، فإنه يغدو ابناً للإله الأب، ووريثاً مباشراً له. لقد نسي الإنسان أن منشأه إلهي، وأنه منوط به إنقاذ العالم من الظلام. لكن الإنسان قادر على إدراك سقوطه، والعودة إلى مملكة النور.

لقد أدرك مانو أنه المخلّص التالي بعد يسوع المسيح، وكان يبشر برسالته كل يوم من غير كلل. فجاب الأرجاء، وقضى حياته كلها متنقلاً. وبعث إلى تلاميذه بكثرة من الرسائل شكلت أعظم مقدسات المانوية. ولم يشتهر مانو في

بارثيا وسوغديانا فقط، بل في الهند والصين أيضاً. وبعد أن جاب في الأرض طويلاً، عاد مانو ليموت (لكي يقتل) في وطنه. ومع أنه كان من أعظم معلمي الروح، إلا أن وطنه استقبله كهرطيق مشعوذ. فسرت شائعات تقول: إن مانو وأتباعه قادرون على فعل كل شيء: التسلل عبر النوافذ، وشرب الرصاص المصهور، والطيران فوق الأرض، والاختفاء عن النظر في غمضة عين. وقد أمر الملك مانو بأن يظهر هذا كله. لكن النبي أحس بأنه أُهين، ورفض أن يصنع أي معجزة كانت. عندئذٍ أمر الملك بإعدام مانو. وبالطريقة عينها انطفأت كثرة من مشاعل البشرية، الذين لم يكن لهم سوى غرض واحد، هو تحقيق الخير للجنس البشري. ويعتقد أتباع مانو أن معلمهم كان آخر مخلّص للجنس البشري. وهم ينظرون بكثير من الغيرة إلى المخلّص الآخر: يسوع المسيح، ويعدّون مانو هو المخلص الحقيقي.

لقد كان أتباع تعاليم مانو ينتمون إلى مشارب شتى. ومع مرور الزمن انقسم هؤلاء انقساماً طبيعياً إلى جماعتين: جماعة المختارين، وهم أولئك الذين التزموا التزاماً صارماً بقواعد العيش المشترك: الكهنة على وجه الخصوص. وجماعة ثانية أكثر عدداً، هم جماعة المستمعين أتباع المختارين. لقد كان المستمعون يحيطون بالمختارين، فيعدّون لهم طعامهم، ويعتنون بشؤونهم. وكان المختارون بدورهم يطلعون مستمعيهم على الحقائق المكنونة في التعاليم، وبركاتها، ويزرعون فيهم الأمل بالخلاص. لقد اعتقد المانويون بانتقال الروح. وافترضوا أن روح المستمع المهتم يمكن أن تحيا حياة أخرى في جسد مختار. وهذا ما كان يمنح المستمع الأمل. وألقيت على كاهل المختارين مهمة مزدوجة: الصلاة من أجل خلاص أنفسهم، والصلاة من أجل خلاص مستمعيهم.

ومن أهم ما تميزت به تعاليم المانوية، هو إقرارها بأن كل نبي (بصرف النظر عن معتقده) يحمل إلى الناس حقيقة. ومن هؤلاء: يسوع المسيح، وبوذا، ولاو - تسي، و... لقد رأى مانو أنه يجب أن يكون للجنس البشري دين واحد؛ لذلك خاطب بتعاليمه الناس كلهم بصرف النظر عن انتمائهم القومي. فقال: «إن من له معبد في الغرب، لن يبلغ الشرق يوماً، لا هو ولا رعيته. ومن اختار رعيته في الشرق، لن يبلغ الغرب أبداً. لكنّ أملي معقود على أن تعاليمي سوف تصل إلى الغرب والشرق. وسوف يسمع جميعهم صوت دعاتها يبشرون باللغات كلها، وفي المدن كلها. إن كنيستي ستتفوق على الكنائس الأخرى كلها، لأن هذه الأخيرة اختارت لنفسها بلداناً بعينها، ومدناً بعينها؛ أما كنيستي فإنها ستنتشر في المدن كلها، وسوف تحرك بشارتي البلدان كلها».

لقد ساعد الموقع الجغرافي نفسه فكرة مانو على أن تتبلور، ففارس تقع بين روما والصين. وكانت الفئة الحاكمة في فارس تبشر دائماً بفكرة رسالة فارس «الوسيطة». ومن وجهة نظر أيديولوجيا الدولة، عُدّت فارس مركز الثقافة العالمية. وتفيد الرواية التاريخية، أنهم وضعوا إلى جانب عرش كسرى الأول ثلاثة عروش أخرى أعدت لحكام الصين، وروما، والكاغانات الخازاري. بيد أن العروش الثلاثة بقيت خالية، وليس هذا غريباً، لأنه لم يكن للمساواة مكان تقيم فيه. فالملك الفارسي يجب أن يبقى ملك الملوك، والثلاثة الآخرون تابعين له.

وتحيّرنا المفارقة التالية لدى دراستنا لتعاليم مانو. فهي من جهة، تعاليم أعدت لجميعهم، وجميعهم بالنسبة لها سواسية. ولكن من جهة أخرى كان موقف السلطة منها معادياً في البلدان كلها. فقد رأت الطبقة الحاكمة فيها تعاليم مؤذية، هرطقة لا يمكن القبول بها. ولذلك لوحقت المانوية في كل مكان: في الصين، وروما، وحتى في موطنها نفسها. لكن المانوية لم تستسلم على الرغم من الملاحقات كلها. وكان مصدر قوتها يكمن في القوة المذهلة لشخصية مانو، وقدرته الإعجازية على الصمود والثبات، فقد كان هذا النبي خطيباً لامعاً، ونفسانياً حاذقاً دقيقاً. كما كان يملك طاقة خيّرة جبارة. فقد زعموا أن من كان يقف على مقربة من مانو، ساعة أو ساعتين، كان يبقى طول أشهر يشعر بفيض من القوى، والسعادة، والسكينة. لذلك لم يكن غريباً أن يغدو مانو في حياته واحداً من أكثر الشخصيات شهرة في كثير من البلدان. فأنشووا عنه خرافات، وشاعت تعاليمه في السهوب الجافة كانتشار ضوء المشعل. فاستولت أثناء بعض الوقت على أمداء شاسعة من الإمبراطورية الرومانية. كما كان كثير من الشخصيات الرومانية البارزة، من أتباع مانو. ومن هؤلاء على سبيل المثال، أفريليوس أوغسطين (354-430م) الذي اعتنق المسيحية فيما بعد. لكنه عاش ردحاً طويلاً من حياته نصيراً لتعاليم مانو. فقد قضى تسع سنوات إلى جانب أحد المختارين، وعرف المانوية من الداخل. لكن الإنسان يبقى إنساناً. فلم يسلك المختارون في روما السلوك الذي فرضته تعاليم المانوية. وكان أوغسطين الذي انتقل إلى المسيحية محقاً تماماً في نقده للمانويين الرومان، الذين كانوا يعيشون حياة ترف وبذخ. بيد أن ما يجب قوله، هو إن أكثر دعاة المانوية كانوا ذوي سلوك لائق.

آلهة السلاف قبل المسيحية

تدعى معتقدات السلاف قبل اعتناقهم المسيحية، بالمعتقدات «الوثنية»، أي المعتقدات الشعبية.

لقد كان للسلاف مجمع آلهتهم الخاص بهم. فقد كتبت الحوليات تقول: «بدأ الأمير فلاديمير في كييف وحده منفرداً. وأقام الأوثان فوق التل خارج الفناء: بيرون الخشبي، ورأسه من فضة، وفمه من ذهب؛ وخورس، وداجبوغ، وستريبوغ، وسيمارغل، وموكوش. وشرعوا يقدمون لهم القرابين، ويدعونهم آلهة، واصطحبوا أبناءهم وبناتهم». فمن كان هؤلاء الآلهة؟

كان الإله بيرون رأس المجمع كله، وهو إله حامية كييف الروسية. وبعد اعتناق المسيحية، حلَّ النبي إيليا محله. وليس غريباً أن يتوافق يوم عيد بيرون مع يوم تكريم إيليا النبي في شهر تموز.

أما إله الرعد، فهو شخصية معروفة لدى الشعوب الهندوأوروبية الأخرى. فاسمه عند الجرمان تور (دونار)، وهو عند اللاتفيين والليتوانيين والبروس: الإله الأعلى بيركونس.

وبيرون السلافي مقاتل أشيب له شنب ذهبي، يجوب السماء في مركبة أو على صهوة حصان مطلقاً سهامه - الصواعق. والرعد صوت عَدْوِ مركبته. وقد يصيب سهمه الإنسان. وقد اعتقدوا أن ذلك لا يحصل، إلا إذا كان إله الرعد يريد أن يجندل روحاً نجساً سكن الشخصي المعني. لذلك حرموا بكاء من تقتلهم صواعق بيرون، لأنهم تحرروا من الدنس. ويبيت إله الرعد في جذع الشجرة المقدسة.

ولم يكن الإله بيرون الإله الرئيس بين آلهة السماء فقط، بل كان السلف الأول الذي خرج منه السلاف، وهو شفيع الأمراء وحامية البلاد. وكان قد شاع منذئذٍ عرفٌ حرّم النطق باسم الإله علانية. ولذلك دعوا بيرون بأسماء مختلفة. فشاع كثيراً اسم دوندول (دودول دونير).

لقد قدموا لبيرون ذبائح من حيوانات مقدسة (الحصان، الثور، العنز)، ونباتات: شجرة البلوط، وشجرة التفاح البري. وأقاموا له الصلوات في أدغال شجر البلوط أو تحت شجرات بعينها. أما معابده فقد شيدوها فوق الهضاب والمرتفعات. وكانوا يوقدون هناك نيراناً، فالنار كانت عندهم طعنة إله الرعد.

لقد كرسوا لبيرون يوم الخميس، بل دعوه أحياناً باسم خميس. كما كانت له أسماء أخرى. فقد دعوه برافي (الحق)، لأنه كان يجسد العدالة العليا عندهم. وثمَّة في الخرافات والحكايات الخرافية الروسية اسم برافدا (الحقيقة). وعند السلاف الغربيين دعي إله الرعد باسم بروفي.

لقد كانت أوثان الآلهة عند السلاف من خشب، ولذلك فهي لم تبق. ولكن في العام 1848م عثر على وثن سلافي حجري. وكان هذا ينتمي إلى القرن 9م، ولا يزال الوثن معروضاً حتى اليوم في متحف مدينة كراكوف. ويمثل هذا الصنم مجمعاً كاملاً من الآلهة.. ويرسم صورة عن تصور السلاف القدماء لبنية العالم. فقد ضم الصنم إضافة إلى الإله بيرون، ثلاثة آلهة آخرين يمثل كل منهم عائلة إلهية واحدة، معشراً واحداً. فالآلهة كلهم يشاركون في معركة الإله الأكبر بيرون ضد الثعبان. ويخوض بيرون صراعاً إما ضد الثعبان، أو ضد الملك الثعباني، أو حتى ضد فيليس. ووصفت الأساطير مختلف تقلبات هذا الصراع: يخطف الثعبان قطيع إله الرعد أو زوجته، أو أبناء الشمس. فينازله بيرون، ويطلق عليه سهامه - صواعقه. لكن هذا يحاول أن يتخفى في الأشجار، وخلف الصخور، أو حتى في أجساد البشر والحيوانات. لكن صواعق بيرون تدركه وتجندله. فيهطل المطر على الأرض مدراراً. ومع ذلك فإن الصراع لا ينتهي. ومن الربيع حتى الخريف يطارد بيرون أعداءه ويصرعهم. ونحن نرصد أسطورة صراع بيرون ضد الثعبان حاضرة في مآثر الأبطال من البشر أيضاً. فدوبرينيا نيكيتيتش مثلاً، يهزم الثعبان غورينيتش، وأليوشا بوبوفيتش يهزم توغارين ثعبانوفيتش. أما إيليا مورومتس فإنه يهزم البلبل - قاطع الطريق، أو الثعبان الصقر ذا القرنين، الذي يحطّ على شجرة البلوط في الغابة الكثيفة.

لقد تميزت تصورات السلاف بمثل هذه البنية المقلوبة للعالم. وهذا ما تشهد به الأشكال المرسومة على الوثن الحجري. فثمَّة على الأبعاد الأربعة للعمود الحجري، صور لآلهة مختلفة رسمت وفق نظام محدد وتراتبية من الأعلى إلى الأدنى. وفي الجزء الأعلى من الحد، رُسمت إلهات لأحداهن قرن، بينما تحمل الأخرى خاتم على يدها. كما رسموا هنا أيضاً إلهين مع سيف وحصان ورمز الشمس. أما الطبقة الأعلى من الصنم الحجري فهي الآلهة الكبرى، السماء. وثمَّة في الطبقة الوسطى من الصنم الحجري صور لرجال

ونساء يمسك بعضهم بيد بعض. ورسموا في أدنى طبقات الصنم صورة إله عجوز ساجد على ركبتيه، تظهر من الأمام، ومن الجانب.

وعلى هذا النحو فإن الصنم الحجري يحمل معطيات لا عن الآلهة والسلّم التراتبي فقط، بل عن بناء العالم المحيط أيضاً. أما الإلهات، فإن تلك التي تحمل منهن القرن، فهي رمز الوفرة، وهي الإلهة ليوكوت، إلهة المحصول. والأخرى التي تحمل الخاتم، فهي رمز الزواج، وهي الإلهة لادا، إلهة الأعراس. ورسموا في المكان عينه صورة الإله بيرون يحمل رمحاً، ويمتطي صهوة حصانه. أما الإله الذي تحمل ملابسه رمز الشمس، فهو الإله داجبوغ رب نور الشمس. وهؤلاء كلهم آلهة النسق الأعلى، آلهة السماء. ولكن ثمَّة إله رسموا صورته في أسفل طبقات الصنم راكعاً على ركبتيه. إنه الإله فيليس، إله الأرض والعالم السفلي. وحسب المعطيات المتوافرة، يبدو واضحاً أن السلاف القدماء تصوروا العالم المحيط بهم مؤلفاً من ثلاثة مستويات: في الأعلى، أي في السماء، يقيم الآلهة الأعظم. وفي الوسط يتوضع عالم البشر. وفي الأسفل يتوضع الحضيض.

ولم يكن الإله فيليس وحده يملك في العالم السفلي، بل كان هناك غير قليل من آلهة الطبقة الأولى. ومن آلهة الظلام إلهة تدعى ياغا، أي «الكابوس». وقد تجسد كثير من سمات هذه الأخيرة في الشخصية الخرافية، ياغا الساحرة. لقد كانت ياغا ربّة الطبيعة البرية، ونصيرة الساحرات وشفيعتهن. ولا تقيم ياغا في العالم السفلي فقط، حيث تمد يد العون لقوى الشر والظلام. ولها ابنة تدعى ياغيشنا تختبئ دوماً في غياهب الغابات. وياغا كائن شنيع المنظر: لها ساق واحدة، وعين واحدة. وما عدا ياغا كان هناك آلهة آخرون في المملكة السفلى. ومنهم الإله الخالد كاشيه، وعائلة الغورينتشيين التي تتألف من الثعبان غورينتش نفسه، والفارس غويرنيا حامل قوة الشر العضلية، والساحرة غورينيكا، و...

ولكن الإله الرئيس في العالم السفلي، هو الإله فيليس (فولوس). بيد أننا لا نستطيع أن نقول: إنه كان إله قوى الشر الظلامية، فوظائفه متنوعة جداً. ولم يكن رب عالم الأموات فقط. لقد كان فيليس يملك قوة سحرية، أي يملك الجبروت

والسلطة. وثمَّة صلة نسب ظاهرة للعيان بين فيليس وفلاست (السلطة)، وبين فيليس وفيليت (يأمر)، وبينه وبين فلاديت (يملك)، وبينه وبين فيليكي (عظيم).

وكان فيليس شفيع الحكماء والشعراء، كما كان قد عُدّ في البداية حامي عالم الحيوان، لذلك تخيلوه في صورة وحش أوبر. وليس عبثاً أن كان الكهنة الوثنيون يرتدون جلود الحيوانات وفراؤها إلى الخارج.

لقد كان الآلهة يتغيرون عند الشعوب كلها مع تغير نمط حياتها. فعندما تقدمت تربية الحيوانات عند السلاف، تحول فيليس إلى حارس للحيوانات المنزلية. ومع تقدم الزراعة بات إله العمل الزراعي والمحصول. وعرف السلاف تقليداً كانوا يتركون بموجبه جزءاً من الحد لا يحصدون سنابله: «لحية للإله فيليس». (نشير إلى أن شريعة موسى قضت بعدم جمع المحصول كله من الحقل، وترك ما يمكن تركه للطيور، والوحوش، والفقراء). لقد شاعت عبادة فيليس شيوعاً واسعاً عند السلاف، وهو ما انعكس في تسميات قراهم (فيليسونو، فولوسوفو، فولوتوفو، و...).

وبين وقت وآخر كانت تمكث في عالم لأموات، الإلهة مورينا، أو مارينا (اسمها مشتق من كلمة «مور» = «موت»). لكنها كانت في الآن عينه إلهة الخصب.

أما إلهة السماء، فإننا نعرف عنها الآتي: في طور تحولهم إلى ممارسة العمل الزراعي، اقتبس السلاف آلهة السكيث (الفرس). وكان الإله الرئيس بين هؤلاء الآلهة، هو إله حرارة الشمس، إله الضوء ونضج المحصول، داجبوغ (داجبدوغ). ومعنى اسمه، هو «إله الحر». ودعوه أيضاً: «الملك الشمس»، أو «ابن سفاروغ». وكان الذهب والفضة هما رمزا هذا الإله. وقد تعايش آلهة الوثنية هؤلاء مع المسيح زمناً طويلاً. وكان ذلك الزمن هو زمن الازدواجية الدينية، الذي توافق مع عصر التبعثر السياسي في بلاد الروس (القرنان 11-12م). بيد أن صراعاً بين الديانتين لم ينشب، بل يصح القول: إنهما كمّلت إحداهما الأخرى. فقد كانت الأميرات في روسيا القديمة تحملن على سبيل المثال، تيجاناً طقسية في وسطها صورة ليسوع المسيح أو صورة لداجبوغ. ومع الوقت تحول داجبوغ إلى دايبوغ[1]، وهو ما لا يخالف المسيحية. ورأوا في الملك - الشمس

١- فليعطنا الإله. - المترجم.

الحاكم الأول، والمشرع الأول، الذي يرتبط به التقويم السنوي وما في حكمه. ورسموا الملك الشمس (داجبوغ) يرمح في مركبة ذهبية تجرها بدل الخيل كلاب كلها أجنحة طيور. وقد عدت هذه تابعة آلهة الخصب. وكان داجبوغ يقف في المركبة حاملاً بيديه صولجانين شعيريين رسمت عليهما أوراق السرخس.

وكان لدى السلاف إله شمسي آخر، هو الإله خورس. وإذا كان داجبوغ قد رمز عندهم إلى دفء الشمس وضوئها، فإن خورس كان إله الشمس مباشرة. لقد رأى القدماء (وليس السلاف وحدهم) أن النور كان أولاً، والشمس نفسها ثانياً. وقالوا: «ليست الشمس سوى تجسيد للنور». ولم يكن لخورس (معناه الحرفي: الشمس) وجه بشري. فهو كقرص الشمس الذي تحرك في السماء. وعن خورس (الدائرة) مباشرة صوّرت الحركة الدائرية. وكانت الزّلابيات الذهبية المستديرة الشكل التي يحملونها في الصوم الكبير، ترمز إلى شموس صغيرة. وشاعت كذلك، دحرجة عجلات (شموس) ملتهبة.

وكان الكلب المجنح سيمارغا تابعاً لآلهة الشمس ولداجبوغ. وقد عُدّ إله الجذور، والبذور، وحارس البذار والزروع. لكن هذا الإله تحول مع مرور الزمن تحولاً كبيراً. فقد كان في الأول إله النار. وتخيلوه في صورة إنسان كما في صورة صقر. ولم يكتسب سمات الكلب المجنح إلا في زمن متقدم. وكما قلنا سابقاً: إن آلهة الشمس جاءت السلاف من السكيث، ولذلك شاعت عبادتهم أساساً في جنوبي بلاد الروس. وورد اسم داجبوغ، وخورس، وستريبوغ في «خطبة فوج إيغور» (القرن الثاني عشر للميلاد).

وينتمي الإله ستريبوغ إلى الإله السلافي الأعظم القديم رود. ويفترضون أن جميعهم كان يسجد لهذا الأخير في الزمن القديم. وقد قالت المواعظ المسيحية عن هذا: «أخذ الهللينيون يقيمون ولائم لرود والروجانات، وكذلك فعل المصريون، والرومان. وقد وصل هذا إلى السلاف، فأخذ هؤلاء يقيمون الولائم لرود والروجانات قبل بيرون إلههم». لكن الإرشادات المسيحية ترشد إلى طريق الحق: «للكل خالق واحد، وهو ليس رود».

لقد كان رود إلهاً خالقاً. ولد منه كل شيء. وكان سيد الأرض وكل ما هو حي. ومعنى اسمه باللغة الفارسية، هو إله ونور. وكان هذا عند الفرس أمراً واحداً. أما عند السلاف فقد اكتسب اسم رود معنى آخر يتوافق مع المعنى المعاصر لهذه الكلمة. وهو القرابة والميلاد، والينبوع والمحصول. إنه معنى الشعب والوطن أيضاً. من الواضح إذاً أن الإله رود حاز كل شيء. لكن رسالة ستريبوغ كانت محدودة أكثر. فهو الإله الأب. الرياح أحفاده. لقد علّم سفابوغ

(«السماوي») البشر، تصنيع الحديد، وأرسل لهم «الملقط». ومن الواضح أن سفابوغ كان مرتبطاً بالنار. وقد دعا السلاف النار نفسها باسم «سفاروجيتش».

لقد كان همّ رود الأساسي، هو الخصوبة. ولكن الروجانات هن من كان يمنح الخصب. وهن خازنات الحياة. والحياة هي الماء قبل كل شيء. لذلك تخيلوا الروجانات في صورة إلهات سماويات يمنحن المطر. ومن البديهي أنهن كن نصيرات الأمهات الفتيات والأطفال الصغار. وبعد أن اعتنق السلاف المسيحية، تحولت الروجانات رويداً رويداً إلى والدة الإله. لقد كانوا يحتفلون بعيد رود والروجانات بإقامة الولائم الشعيرية في يوم الاعتدال الشتوي، وفي موسم جني المحصول الخريفي. فيقدمون للإله والإلهات الخبز، والعسل، واللبن المصفى، والفطائر.

ولم يكن للروجانات أسماء. وإضافة إليهن عبد السلاف إلهتين أخريين (أماً وابنتها) للخصب، والرخاء، وازدهار الحياة في الربيع. وهاتان هما الإلهة لادا والإلهة ليليا. وكانت وظائف هاتين شتى؛ فلادا هي إلهة الزواج، ووقت نضج المحصول، والوفرة. وكانت الذبيحة التي تقدم إليها ديكاً. وتظهر صورة هذه الإلهة في اللعبة الشعبية: «ونحن بذرنا الدّخن». وهذه اللعبة عبارة عن صلاة من أجل المحصول، والزواج تردد فيها لازمة: «أوي، ديد، لادو!». أما ليليا ابنة لادا فهي حارسة الفتيات العزباوات، وكانت إلهة الخضار الأول، إلهة الربيع.

كما عبد السلاف الأم العظمى موكوش، والدة كل حي. وكانت هذه إلهة الخصب، ولذلك ارتبطت بالماء، لذلك سجدوا لها عند الينابيع، ورموا لها فيها غزولاً. وعُدّت موكوش حارسة الأعمال النسوية.

والآن، هل نستطيع بعد هذا كله أن نشكك في أن الشعوب القديمة التي لم تفقد صلتها بالطبيعة والعالم الخارجي المحيط بها؛ قد رأت أن في كل شيء حياة وعقلاً ومبدأ إلهياً؟ إن هذا ينسحب على السلاف أيضاً. ونحن نقف على هذا كله حاضراً في المصادر الثقافية كلها: في الحكايات السحرية، والخرافات، والحوليات. فأبطال «خطبة فوج إيغور» يخاطبون الريح، والشمس، ونهر الدنيبر، والدونس، كما لو كانوا يخاطبون كائنات حية. لكن لمّا «عَقِل» الإنسان، كفَّ عن ذلك، وبات يرى في هذا كله مجرد رعونة، ونتاج حماقة، وعلامة تخلّف لكنه أخذ يدرك الآن، والحمد لله، أن القدماء كانوا على حق: العقل الكوني موجود في كل شيء، سواء كان هذا الشيء حياً أو غير حي؛ فهو (العقل الكوني) ماهية واحدة تخترق الكون كله، وتنجب كل شيء في هذا العالم وتوجهه. لقد مرت آلاف السنين قبل أن ندرك نحن إن القدماء لم يكونوا على ضلال؛ بل نحن الذين أعمى الغرور بصيرتنا وبتنا نطالب بالعرش الإلهي («الإله - الإنسان»).

أسرار آلهة الهندوسية

لقد عبر الجنس البشري طريقاً طويلة جداً، حاملاً معه دياناته وتصوراته عن وجود كثرة من الآلهة، إلى أن أدرك أخيراً أن الإله يمكن أن يكون واحداً أحداً وحسب، وإلا فإنه ليس إلهاً. ونحن إذا أدركنا أن الإله كما هو في واقع الأمر، أي على وجه التحديد، علة كل شيء، والمشرع لكل ما هو موجود في الماضي، والحاضر، والمستقبل، فإننا ندرك عندئذٍ أنه لا يمكن أن يكون إلا واحداً؛ لأن وجود علل أولى متعددة، أمر مستحيل. وكان النبي محمد قد قال: لو كان هناك عدد من الآلهة لانهار الكون. ولا ريب في أن الإنسان المتنوّر في أيامنا هذه، يدرك هذا الأمر جيداً. فالفيزيائيون يستطيعون دراسة خصائص الكواكب النترونية (لا وجود لمثل هذه المادة على الأرض، وصناعتها في المخابر غير ممكنة)، لأن قوانين سلوك الجزيئات الأولى، هي نفسها الموجودة على الأرض. وغني عن البيان أن هذا ينسحب على القوانين كلها على وجه العموم. فهي لا يمكن أن تكون على الأرض مختلفة عنها على سطح القمر أو المشتري. ومن البديهي أن الشروط هناك مختلفة، لذلك فإن التجلي الظاهري لفاعلية هذه القوانين هي عينها.

وفي مراحل ارتقائه الأولى، لم يفكر الإنسان بالكون كله، بل فكر أوّل ما فكر بخبزه اليومي، بمكان دافئ يرتاح فيه باطمئنان. كما فكّر بالإله أيضاً. وهناك اتفاق اليوم بين علماء مختلف المدارس في مختلف البلدان، على أن تاريخ البشرية لم يعرف زمناً لم يفكر الإنسان فيه بالإله. فالإنسان كان يحس دائماً بوجود إله، لأنه كان على تواصل دائم مع العالم المحيط، أي مع ما خلقه الإله، لقد كان الإنسان يدرك دوماً أن أحداً ما خلقه. ولم يكن بإمكان أحد أن يفعل ذلك إلا إله. وفي أطوار ارتقائه الأولى، لم تكن الغطرسة قد استحوذت على الإنسان بعد،

لأنه لم يكن قد ميّز نفسه عن باقي عالم الحيوانات، لم يزعم بعد أنه إله - إنسان. وهذا ما مكنه من العيش مع الطبيعة في توافق يفتقر الآن إليه.

لقد أحس الإنسان في حياته اليومية أن نعمة الإله تهبط عليه عبر دفء الشمس (لذلك عبد الشمس)، وعبر المطر، والريح، والسحب، و... لقد سجد الإنسان متعبداً كل ما ارتبطت به حياته، وبفضله يستمر عيشه. ونحن ينبغي ألا نلومه لأنه لم يسجد للإله الواحد الأحد، العلة الأولى لكل ما هو موجود. فضلال الإنسان لم يكن زمنئذٍ على درجة كبيرة من العمق، كما قد يبدو للوهلة الأولى: لقد عبد الإنسان الخلق الإلهي، وفي مخلوقات الإله كلها موجود هو نفسه أيضاً. لكن الإنسان المعاصر هو الذي يستحق اللوم الأكبر، لأنه لا يعبد الإله الواحد إلا شكلياً، أما في واقع الحال فإنه في حياته اليومية، وأفعاله يعيق الطبيعة والناس الآخرين عن العيش.

ويعتنق الديانة الهندوسية اليوم أكثر سكان الهند، وهم يؤمنون بوجود كثرة من الآلهة، والمعبودات، والحيوانات المقدسة. لكن الطوائف (الكاستات) التي تمثل حواجز تفصل بين البشر، تشهد على انتهاك القانون الإلهي، قانون محبة القريب. لكن هذا لا يعني أبداً أن الهندوسية قد بقيت هذا الزمن المديد كله لم تتغير أبداً. ومع ذلك، فإنها في واقع الحال بقيت دوماً معتقد الطور الأول من مسيرة ارتقاء الإنسان.

وتكمن جذور الهندوسية في الحضارة التي سبقت الحضارة الهندية، كما في الحضارة الهندية نفسها، أو ما يدعى لدى المؤرخين حضارة خارابا التي أدهش مستوى تقدمها التقني العلماء، فهذه ترقى إلى خمسة آلاف عام خلت. وتؤكد أعمال السبر الآثاري أن أسلاف الهندوس كانوا منذ ذلك الزمن يسجدون للإله؛ الذي يجلس على العرش في وضعية اليوغا محاطاً بالحيوانات من كل صوب. لكن هذا الإله هو نفسه الإله شيفا، الذي ما انفكوا يسجدون له حتى بعد ذلك بآلاف السنين. ومنذئذٍ وهم يجلّون الحيوانات المنزلية والبرية: فعبدوا العنز الجبلي، والجاموس، والثور، وحمار الوحش، والنمر، والفيل، ووحيد القرن. وحتى يومنا هذا يعبد الهنود البقر، والثعابين، والقردة.

وعبدوا في زمن حضارة خارابا الشجر والنباتات: فعدت الشجرة أشفاتها شجرة مقدسة، وما زالوا يعدونها كذلك حتى يومنا هذا. ولا تزال هناك أنهار مقدسة حتى يومنا هذا، إذ يؤدى فيها الاغتسال الطقسي كما كان يؤدى منذ خمسة آلاف عام، قبل مجيء الآريين إلى الهند.

فعند أواسط الألف 2ق.م، أخذت القبائل البدوية الآرية تتسرّب إلى شمال غربي هندوستان. وحمل هؤلاء معهم إلى الهند ديانتهم وشرائعهم. وألّفت أناشيدهم، وصولاتهم، وخرافاتهم، ومعارفهم المقدسة على وجه العموم مجموعات كبيرة الحجم تدعى: الفيدات، وهي كتب مقدسة. وقد دونت الفيدات

على امتداد زمني لا يقل عن الألف عام، مثلها في هذا مثل التوراة. ويمكن القول: إن تلك العملية كانت قد اكتملت في زمن بوذا، أي في القرنين 6-5ق.م.

وإثر اندغام الآريين بالسكان المحليين، واندغام ثقافتيهما، وديانتيهما، وآلهتهما وطقوسهما، نشأ معطى جديد: لقد طغى على السطح حشد متنوع من الآلهة، والمعبودات، والأرواح، وأنصاف الآلهة الطيبين والشريرين، والرحيمين والقساة والصارمين. وفي ذلك الوقت ظهرت الكاستات[1]. وقد شكل الكهنة البراهمن، الذين كانوا يقودون المجتمع: الكاستا الأعلى. وتحولت ديانة الفيدات عملياً إلى الديانة البراهمنية. لكن ريحاً جديدةً هبت في القرن 5ق.م، حملتها تعاليم بوذا والجاينيين، الذين رفضوا التقسيم الكاستي، لكن، على الرغم من النفوذ العظيم الذي كان يحظى به بوذا، إلا أن الكاستات حافظت على وجودها في الهند حتى يومنا هذا، وخرجت البوذية إلى خارج حدود الهند. وأخذت البراهمنية تتحول رويداً رويداً إلى الهندوسية، التي تمثل جملة من التيارات، والمدارس، والمجموعات، والطقوس والآلهة.

وفي أوائل العصر الحديث كانت تلك العملية قد اكتملت، وبعد خمسمئة عام تحولت الهندوسية إلى دين رسمي للدولة. ولكن بعد خمسمئة عام أخرى، تفوّقت الهندوسية في البلاد، ورحلت البوذية عنها. غير أن معايشة البوذية لأكثر من ألف عام، جعلت الهندوسية ديانة أكثر إنسانية، فتناقصت أعداد القرابين الدموية فيها، وظهر مزيد من المنطق في فلسفتها.

وللهندوسية ثلاثة آلهة رئيسين، هم: فيشنو، وشيفا، وبراهما. وقد قطع هؤلاء طريقاً معقدة امتدت على طول آلاف السنين، وقد طرأت عليهم أثناءها كثرة من التبدلات الجوهرية. وإذا كان براهما هو الإله الرئيس عند نقطة الانطلاق. فإنه تحول في آخر الطريق إلى النسق الثاني. وكان براهما قد تراجع إلى مكانه هذا منذ زمن بوذا (500ق.م)، مع أنه كان يؤلف قبل ذلك الطرف الثالث في ثالوث براهما - فيشنو - شيفا. لقد كان هؤلاء الثلاثة يكمّل واحدهم الآخر، فكل منهم كان مسؤولاً عن جانب من جوانب حياة الكون. فبراهما خالق العالم، وفيشنو الحافظ له، وشيفا مدمّره. والحقيقة أن شيفا لم يدمر العالم فقط، لكنه أعاد بناءه أيضاً. وعلى وجه العموم ينبغي النظر إلى ثالوث آلهة الهندوس هذا على أنه من حيث الجوهر إله واحد. لذلك رسموا الثالوث عادة كلاً واحداً:

١- طوائف اجتماعية دينية مغلقة. - المترجم.

يقف الآلهة الثلاثة كل إلى جانب الآخر، وتظهر أجسادهم كأن واحدها يخرج من الآخر.

ولا يزال هذا الثالوث قائماً حتى يومنا هذا. لكن فيشنو وشيفا هما الإلهان الأكثر تبجيلاً الآن. فالمعابد كلها مكرسة لهما. ولم يبق في الهند الآن سوى معبد واحد مكرس لبراهما. ويقع هذا المعبد في بوشكار من ولاية راجاستان. ولا وجود في الهند الآن لعبادة مستقلة بالإله براهما.

فلنتتبع الآن باختصار الطريق التي قطعها آلهة الهندوسية. ونحن كنا قد قلنا سابقاً، إن أعمال السبر الآثاري التي جرت في مواقع حضارة خارابا السابقة للزمن الآري؛ أظهرت أن المؤمنين كانوا يسجدون لإله يشبه الإله شيفا. وكان سلف شيفا هذا يجلس على عرش في وضعية اليوغا، والوحوش تحيط به. وليس هذا مجرد مصادفة، فالإله شيفا: باشوباتي، كان نصير القطعان. وكان شيفا نفسه رب اليوغيين والنساك. وعلى هذا النحو يكون الآلهة الذين كانوا يعبدونهم قبل مجيء الآريين، قد حافظوا على وجودهم، لكنهم تغيروا كثيراً.

لقد جاء الآريون إلى الهند قبل بوذا بنحو ألف عام، وعلى امتداد ألف عام تشكلت فيداتهم (معارفهم). ولكن آلهة الآريين تغيروا كثيراً في أثناء تواصلهم مع آلهة السكان المحليين، واكتسبوا كثيراً من سمات هؤلاء الآلهة. ولذلك فإنه يمكننا القول: إن آلهة الهندوس الرئيسين قد خرجوا من الملحمة والفيدات.

والآلهة الفيديون كثر: مئات، بل آلاف، وهم يستوطنون شتى مجالات الكون: على الأرض مباشرة، في المحيط الجوي، وفي الفضاء الخارجي. ويعد الإله إيندرا الإله الرئيس بين آلهة المحيط الجوي الفيديين. إنه إله الرعد، إله العاصفة والمطر. وهو إله مقاتل جبار عملاق. فلكي يروي إيندرا ظمأه، يشرب بحيرة كاملة من المشروب المقدس (السوما)، ولكي يشبع جوعه، يلتهم ثلاثمئة ثور. ومن البدهي أن يكون إيندرا كبيراً جداً، ولذلك فصل السماء عن الأرض فصلاً نهائياً دائماً. وبات هو رب المكان الفاصل بينهما: المحيط الجوي. ويرافقه دائماً آلهة آخرون من المحيط الجوي: الماروت، والفاغو، والرودرا.

وثمَّة في الفضاء الخارجي (في السماء) آلهة آخرون. وهؤلاء آلهة بديعون، مشرقون، ومتعاطفون مع البشر. ويرتبط هؤلاء الآلهة بالشمس والنجوم، وكواكب السماء. ومن بين آلهة السماء هؤلاء: إله الشمس سوريا، وإلهة الفجر أوشاس، وإلهة عتمة الليل راتي، والتوأمان أشفيني (وهما ولدا الإله القديم دياوس). ويؤدي الإلهان التوأمان مهمة المنقذين الكونيين. فهما يجوبان السماء في مركبة، ويمدان يد العون لكل إنسان يعاني حالة صعبة. كما يؤديان أيضاً مهمة المداويين الإلهيين، اللذين يساعدان المرضى والمشوهين والعاجزين. فيعيدان البصر لمن فقده، بل إن لهما القدرة حتى على درء الموت عن الناس. وهناك إله شمسي آخر، هو الإله

سافيتور (الموقظ، المحيي). ويمثل هذا الشمس غير المرئية (الشمس المتخفية) (شمس الليل). وهناك أيضاً إله شمسي آخر، هو الإله بوتان الذي يحمي القطيع، ويحافظ عليه: يدرأ عنه الذئاب، ويعثر على الحيوانات الضالة. ويهتم هذا الإله بالبشر أيضاً. ويعمل في العصر عينه الإله فيشنو، الذي أخذ دوره يتعاظم.

ومن أهم آلهة الأرض عند الهندوس: إله النار أغني، الذي كرست له الريغفيدا مئتي نشيد. ولم يتجاوزه في هذا سوى الإله إيندرا الذي كرست له الريغفيدا مئتين وخمسين نشيداً. ويمتلك الإله أغني ماهيات النار كلها. وهو يرمح في مركبة ذهبية، شعره نار، ولحيته حمراء، وأسنانه من حديد يلتهم بها الغابات. عيونه الكثيرة التي يرى بها مختلف الاتجاهات تلمع كالشعلة، وتجرّ مركبته الذهبية جياد - أعاصير، وهي تترك آثاراً سوداء. وهناك أوصاف أخرى للإله أغني.

ويحمل الإله أغني إلى الآلهة القرابين، التي يحرقها الناس لدى إقامة الطقوس. ولذلك فهو موجود دوماً في قلب أي طقس. وما عدا الإله أغني هناك إله أرضي آخر، هو الإله سوما الذي يجعل الآلهة خالدين. ولتحقيق الخلود يحتسي هؤلاء شراب السوما، والسوما شراب يشفي الناس من الأمراض. وغالباً ما يدغم الإله سوما بالقمر.

ويشغل الإله فارونا مكانة متميزة بين الآلهة. فقوانينه لا تسري على البشر وحدهم، بل على الآلهة كذلك. ويقيم هذا في قصر يقع في قاع المحيط. ويحيط به هناك آلاف العبيد. ويخزن فارونا عنده القانون الذي تخضع له الطبيعة ويخضع له البشر، كما تخضع الحياة نفسها له. فوفق هذا القانون تتعاقب فصول السنة، ويزهر الشجر، وتتحرك الشمس، والقمر، والأجرام السماوية الأخرى. ويخضع لفاعليته طيران الطيور، وسيل الأنهار. وليس فارونا القانون فقط، بل هو القاضي الذي ينزل العقاب.

أما بنية العالم فقد تخيلها الآريون على النحو الآتي: لقد قسموا الكون إلى المجالات الثلاثة الموما إليها، ومنحوا كل مجال آلهته السائدة فيه. لكن الآلهة الفيديين أخذوا يخلون المكان شيئاً فشيئاً لآلهة آخرين، ولكن الفلسفة نفسها، كما المبادئ الكونية تشغل مكانة مهمة في الهندوسية.

بعد العصر الفيدي، وفي زمن البراهمنات، بات براجاباتي هو الإله الرئيس. ومعنى اسم براجاباتي، هو رب الولادات، أو رب الكائنات. لقد صار هذا الإله أباً، وأساساً بدئياً لكل شيء، وللآلهة كلهم. فهو الذي ولد بجهده الروحي، كل ما هو موجود. ويرون في الإله الأكبر براجاباتي أحياناً، الذبيحة، القربان الذي خُلق العالم منه.

وتنتشر في أيامنا هذه انتشاراً واسعاً، الدراسات التي تعرض البهاغافاتية. وكانت هذه قد ظهرت منذ زمن قديم، في زمن بوذا. ولم تعترف البوذية والجاينية بالفيدات كتاباً مقدساً. وبدّلت البراهمنية صيغتها ومبادئها. فاندغمت بالمعتقدات

والتصورات التقليدية للسكان المحليين. ولم يبلغ الإله براجاباتي الشأن الذي بلغه، إلا لأنه اندغم بالإله المحلي نارايانا، ونشأ عن ذلك الاندغام إله آخر جديد، هو الإله بهاغافات. ويعني اسم هذا الأخير: الذي يقسم الأنصبة، السمح، الرحيم. ثمَّ بدلوا اسمه مع الزمن إلى: واهب الخيرات، الرب، السيد. لكن اسم بهاغافات كان يختصر هذه كلها.

أما الإله الآخر الذي لا ينتمي إلى أصل آري، فهو الإله سانكارشانا. إنه ملك الثعابين، تجسيد الثعبان الكوني شيشا الذي يحمل اليابسة. ويرتبط بهذا الإله آلهة آخرون، منهم الأخوان بالارامي وفاسوديفا. وفيما بعد اندغم الإله المحلي كريشنا بالإله فاسوديفا.

لقد وحّدت البراهمنية هؤلاء الآلهة كلهم. وزعموا أنه كان لناريانا أربعة أشكال موجودة في الآن عينه وفي موازاته. وهؤلاء الآلهة الأشكال هم: فاسوديفا= كريشنا، وسانكارشانا = بالاراما، وبراديومنا، وأنيرودها. وهكذا ذاب هؤلاء الآلهة كلهم في شخصية الإله الأكبر بهاغافات = نارايانا.

لقد ظهرت الديانة الهندوسية نتيجة اندغام الديانة البراهمنية بالديانات الهندية المحلية. وفي غضون ذلك، غدا الإيمان بالإله بهاغافات، هو الغالب على تيار البهاغافاتية. لقد كان المؤمنون يكنون لهذا الإله حباً ذاتياً عميقاً. وقد عبرت عن ذلك الشعور كلمة «بهاكتي»: نصير الإله بهاغافات الذي يملؤه الحب الخالص له.

وقرابة زمن بوذا، تحولت البهاغافاتية إلى الفيشنوية. وكلمة فيشنو تعني: الذي يتسع لكل شيء، الذي يتغلغل في كل شيء. وهو مبدأ العالم ومنتهاه، وهو الذي يقيم في قلوب الناس، وليس لتجلياته منتهى. ونحن كنا قد رأينا أن فيشنو الهندوسي قد خرج من فيشنو الفيدي. ولكن الفيدات لم تكرس له سوى متسع صغير. فهو يظهر فيها إلهاً محلياً ينتمي إلى الزمن القبل الآري. وعندما كان إيندرا يقاتل العفريت، مد فيشنو يد العون له. وعلاوة على هذا صارت رأس فيشنو شمساً، ثمَّ بات أخيراً الكائن الأسمى. لقد جمّ فيشنو الكون كله في ذاته. وهو يحفظ العالم كله في ذاته إبان الزمن الممتد بين هلاك عالم وولادة آخر. ويحدث خلق العالم الجديد على النحو الآتي: حينما يستيقظ فيشنو تنبت من سرته زهرة لوتوس، ثمَّ يولد في الزهرة الإله الخالق براهما، الذي يصنع العالم من جديد.

وبعد أن يخلق العالم، يبدأ فيشنو بإدارة شؤونه. فيستوي هذا على عرش له شكل زهرة اللوتوس، يبرق بلمعان يبهر العين كالشمس. ويقوم العرش في قصر ذهبي تحيط به وديان خمس بحيرات. وتتلألأ في أرجاء المكان كله ألوان اللوتوس الزرقاء، والبيضاء، والحمراء. فتذكّر بحجارة الزمرد. ويتوضع هذا كله في أعلى عوالم الجنات السماوية: فايكونتها. ومن هناك يرقب فيشنو كل ما يجري على الأرض، بما في ذلك سلوك الناس. ثمَّ يجري الزمن، ويتضاعف حجم الشر على الأرض. ويدير هذا نشاطه فيها متخذاً صورة إنسان بطل، أو إله. ويدعى كل

نزول من نزولات فيشنو هذه إلى الأرض: أفاتارا. ويعتقدون أن عدد مثل هذه الأفاتارات كثير، لكن الكتب المقدسة لا تأتي إلا على ذكر 10، 22، أو 24 أفاتارا.

ويعبد الإله فيشنو الآن نحو نصف عدد المؤمنين في الهند. بيد أنه يجب علينا أن نتذكر أن هذا الإله يظهر بأسماء شتى. عددها كبير. وليس عبثاً أن احتوت «المهابهاراتا» على «نشيد أسماء فيشنو الألف».

وفيما يتعلق بالطوفان الكوني، فإن وصفه لم يقتصر على النص التوراتي وحده، بل وصفته الكتب المقدسة الهندوسية أيضاً. فلكي يمد يد العون للناس في تلك اللحظة الحرجة، نزل الإله فيشنو إلى الأرض في صورة سمكة، وأنقذ مانو من الهلاك، ومن هذا الأخير خرج الجنس البشري كله.

ويجلّون فيشنو إجلالاً خاصاً في صورة راما. فقد وصفت أعماله في الملحمة المقدسة «رامايانا». لكن الإجلال الأعظم الذي يحظى به فيشنو، إنما يحظى به في صورة كريشنا. وكريشنا هذا هو حسب زعمهم مؤلف «البهاغافاتيجتا» التي تعد جزءاً من «المهابهاراتا». وقد نجح فيشنو في أن يلحق الهزيمة بالشر على الأرض أكثر من مرة، متخذاً صورة كريشنا، كما شن فيشنو حرباً ظافرة ضد العفاريت وملوك الهند الأشرار. ونشير في سياق حديثنا إلى أن كلمة كريشنا معناها: الأسود. ولم يرسموا أي صورة لكريشنا إلا ولون بشرته قاتم. وهو يعزف عادة على مزماره، وتحيط به راعيات آسرات الجمال، تربطه بهن علاقات غرامية. لكن كريشنا ليس راعياً (عاشقاً) فقط، بل قد يكون إلهاً - وليداً أيضاً. وغني عن البيان أنه يظهر في صورة بطل كذلك. ولذلك يراه المؤمنون قريباً إلى أرواحهم.

لقد صفّت الهندوسية حسابها مع البوذية بذكاء ملفت، إذ أدخلتها نسيج تعاليمها. ويزعمون أن بوذا هو فيشنو في نزوله التاسع إلى الأرض. والحقيقة أن الهندوسية تجاهلت في غضون ذلك، الشيء المهم في البوذية، وهو عدم إقرارها بالكاستات، وأبقت على تقسيمها المعروف للمجتمع إلى كاستات.

ويتنبؤون بنزول فيشنو العاشر إلى الأرض مستقبلاً. ويزعمون أنه سوف يأتي هذه المرة في صورة فارس على صهوة حصان أبيض (كادكي). ولكن فيشنو لن ينزل في هذه المرة قبل نهاية عصرنا القاتم هذا، حيث يسود اللئام السلفة، ويختفي الخير والإيمان بالإله من قلوب البشر. وعندما يصل فيشنو، فإنه يصلح الحال، ويبدأ العصر الذهبي. وينتظر أتباع فيشنو حلول تلك اللحظة بفارغ الصبر، لأن علامات نهاية عصرنا الفاسد هذا بادية للعيان.

أما إله الهندوسية الثاني شيفا، فإنه بدوره يستمد أصوله الأولى من حضارة الهند قبل الزمن الآري. فقد عثر على صور سلفه المباشر، أثناء سير أعمال

السبر الآثاري في موقع حضارة خارابا. وكان الإله رودرا (الثائر، الهائج)، إله الجوائح الأكثر شراً، هو سلف شيفا في العصر الفيدي. ويتسم رودرا هذا بالازدواجية، كما هي حال كل ما في الطبيعة. فهو يرسل الأمراض، وهو يشفي منها. وهو حارس القطعان، وفي الوقت عينه هو الذي يرميها بالأوبئة. إنه إله غضوب تبلغ نوبات غضبه حد احتدام الغيظ. لكنه في الوقت نفسه إله عطوف، متسامح ومعطاء. ويرى بعضهم أن هذا الإله لم يكن إلهاً فيدياً. وعلى أي حال، فإنه اندغم في آخر الأمر بالإله شيفا اندغاماً تاماً.

وقد برز هذا التناقض وهذه الازدواجية في صور شيفا. فهو فيها يوغي متأمل يجلس على جلد نمر فوق قمة جبل كايلاس في الهملايا. وهو مستغرق في تركيز شديد، لأن قوة الفكر هي التي تدعم وجود الكون كله. وعادة ما يرسمون في وسط جبين شيفا عيناً ثالثة، تمكنه من أن يرى ما لا يراه الناس العاديون. وشيفا إله حكيم ذو فراسة.

ويظهر الإله شيفا في كل مكان: في ساحات القتال ومحارق الجثث، وعلى مفارق الدروب، وفي الأماكن السيئة كلها. ويحمل شيفا على عنقه عقداً من الجماجم، وفي شعره هلالاً، وبيديه حربة ثلاثية. ومهما بدا الأمر غريباً، إلا أن حشداً من الأرواح والعفاريت الشريرة يرافق الإله شيفا. وتلتف الثعابين حلقات على يديه وعنقه. فهو نصيرها. ومن صفاته: ذو الحنجرة الزرقاء. وحسب اعتقادهم أن حنجرته ازرقت بسبب السم الذي شربه. فقد صعد السم من أعماق المحيط: وهدد الحياة كلها، لكن شيفا ابتلعه، وأنقذ العالم من الهلاك.

وقد يتحول شيفا من التأمل إلى الرقص الجنوني. ولذلك فإن أحد أسمائه الكثيرة، هو اسم ناتاراج، أي رب الرقص. وليس الرقص بالنسبة لشيفا لهواً وتسلية، فبالرقص يوقظ العوالم إلى الحياة مع بدء كل عصر كوني. وبالرقص يحدد شيفا إيقاع حركة الكون. وفي نهاية العصر الكوني تنهار العوالم برقص شيفا. إنها رقصة الموت، رقصة الدمار. ويمثل تمثال شيفا الراقص قيمة جمالية عالية. والرقص بحد ذاته صلاة شيفا، شكل من أشكال الرقصات. ويزعمون أنه ابتكر 108 من مختلف ضروب الرقص: رقصات هادئة، ورقصات بطيئة، ورقصات انسيابية، ورقصات جامحة اندفاعية مخيفة. لكن أكثر رقصات شيفا شهرة، هي رقصة تاندافا. فكل شيء يخرج من الرقص، وكل شيء يدمر بالرقص. وفي الإيقاع المحتدم لرقصه يصنع شيفا بقوته السحرية مظهر الأشياء كلها في العالم. وفي آخر الدورة الكونية يدمّر شيفا العالم الظاهري برقصه. وما يمكن أن نقوله الآن، هو أن شيفا يعد إله الموت وإله الزمن الذي يدمر كل شيء. ولكن ليس الهلاك، والموت، والدمار كل بحد ذاته، سوى شكل مهم من

أشكال الوجود، لأن الهلاك يتقدم الوجود دوماً. فلا يولد الجديد إلا بعد أن يموت القديم. إن شيفا إله مقاتل، يحقق النصر دائماً في صراعه ضد فيشنو وبراهما. ففي معركته ضد براهما مثلاً، قطع شيفا رأس هذا الأخير الخامسة. فعوقب على فعلته: تحوّل إلى كائن شنيع (بهايرافا)، شعره أحمر أشعث، وأنيابه طويلة ناتئة. مدينته هي مدينة بناريس (فاراناسي المعاصرة). وهنا في هذه المدينة تحرر شيفا من عقابه الذي ناله جزاء بتره رأس براهما.

وثمَّة حكايات جميلة عن صديقة شيفا. فهي تهلك أحياناً وتولد من جديد أحياناً أخرى. وقد دعيت هذه في واحدة من ولاداتها: باسم بارفاتي. لقد أنجبت بارفاتي من شيفا ولدين. وغالباً ما يظهر شيفا في الصور محاطاً بعائلته السعيدة. وأدار شيفا مع زوجته أحاديث كثيرة تناولا فيها قوانين هذا العالم. وسألت بارفاتي شيفا يوماً السؤال الآتي: «أين يكمن جوهرك الحقيقي؟ وما هذا الكون المليء بالمعجزات؟ وما الذي يعد بداية كل شيء؟ وما هو مركز عجلة الكون؟ وما هي تلك الحياة الهلامية التي تخترق الأشكال كلها؟ وكيف نستطيع نحن أن ندخل إليها بالكامل، خارج الزمان والمكان، وخارج الأسماء والأوصاف؟ أرحني من شكوكي هذه!».

فأجاب شيفا على أسئلة بارفاتي كلها. وسيقت إجاباته في التانترات، حيث السؤال الرئيس، هو كيف يمكن بلوغ الحقيقة؟

وكلمة «تانترا» هذه هي مركّب كلمتين: «تانوتي» (= ينشر، يوسع)، و «ترایاتي» (= يحرر، يطلق). والحديث يدور هنا عن نظام «تحرير المعارف عبر نشرها». وقد حدوا معناها على النحو الآتي: «هي طاقة تظهر في الوعي أثناء اللحظات الفاصلة بين ظهور السؤال والعثور على إجابة له». إن التانترا الهندوسية هي: تصورات دينية فلسفية معقدة عن العالم والإنسان. وهي تضم أيضاً جمعاً من مختلف الشعائر الدينية، إضافة إلى طرائق تتعدى أطر الطقوس الدينية. وهذه عبارة عن تمارين معقدة يمكن بمساعدتها تغيير الإنسان تغييراً تاماً، ولا يقتصر هذا التغيير على جسده وحسب، بل يطال وعيه أيضاً. ومن هنا يأتي الحديث عن اليوغا التانترية. والحقيقة أن اليوغا الهندوسية كلها ليست سوى أداء للتانترا. وتكمن خصوصية الممارسات التانترية في كونها تعلم استخدام الطاقة الجنسية، وتحويلها إلى طاقة روحية. ولتحقيق التقدم الروحي عند الإنسان، تستخدم هنا الوسائل والماهيات المتاحة كلها. ويستفاد في غضون ذلك حتى من العيوب والنواقص بصفتها وسيلة جبارة للتحرر من قيود السانسارا؛ وتتحول في أثناء ذلك جوانب الحياة كلها إلى ممارسة روحية.

وتتجدد التانترا من غير انقطاع، وتحسِّن طرائقها دائماً. وقد كان شيفا يقف عند منابع تشكيل هذا النظام. وزعموا أن شيفا عاش منذ 5-7 آلاف عام خلت. وكان قد استخدم هذا النظام عملياً وبدل عبر استخدامه، جسده الفيزيائي إلى نور

ذهبي خالد. وفي البوذية التيبيتية تدعى هذه الحالة عينها: الجسد القزحي[1]، وتدعى في الداوسية: الجسد الألماسي. ويمكن أن يظهر شيفا بجسده الخالد أمام أبرز سادة اليوغا والتانترا ويعلمهم.

ولا تتضمن التانترا تمارين الكمال الروحي وحدها، بل فيها أيضاً وصف لبناء الكون. ويتألف هذا الأخير حسب التانترا من قسمين: ظاهري ومكنون. والجزء المكنون من الكون، هو محيط الوعي الإلهي الأسمى الأزلي الذي يدعى شيفا. أما الطاقة (القوة) الإلهية الأزلية اللامتناهية، فهي التي تصنع الجزء الظاهري من الكون وتدعمه، وهذه تدعى شاكتي. وليس شيفا سوى الوجه الساكن للإله، إنه صنعة الإله. وفي الوقت نفسه فإن شاكتي هي القوة التنفيذية للإله، إنها الوجه الديناميكي الحيوي للإله. ودورها دور حاسم مقرر. «ليس لشيفا قوة الإنشاء إلا بالاتحاد مع شاكتي». «إن شيفا من غير شاكتي ليس أكثر من جثة هامدة». وإذا استخدمنا المصطلحات المعاصرة فإن شيفا هو النيّة، وشاكتي هي التحقيق. إن الصيغة الإلهية موجودة في كل مكان، وشيفا - شاكتي موجود في كل مكان.

وتعلّم التانترا أن الطبيعة التي خلقت بقوة شاكتي تمتلك ثلاث خاصيات أساسية، هي النور والانسجام والتوازن؛ والحيوية والحركة والقلق، والخمول والقتامة والمقاومة. ويمتلك وعي الإنسان بدوره هذه الخاصيات، هذه الصفات الثلاث. وإذا ما كانت الغلبة للخاصية الأولى، فإن الإنسان يثمِّن الحقيقة، ويمتلك ذخيرة إبداعية عالية، وقدرات ذهنية مرموقة. ويعيش متوازناً منسجماً مع ذاته، ومع الآخرين، ومع الطبيعة. أما إذا كانت الغلبة في وعي الإنسان للخاصية الثانية، فإنه يبدي خمولاً، ويعيش حالة خوف، وجهل، وخنوع، وتغلب قوى التدمير على سلوكه. وإذا كانت الغلبة للخاصية الثالثة، فإن الإنسان يعد شغوفاً، هوائياً، ومجازفاً. فيسعى بحيوية وجد إلى امتلاك القوة والسلطة. ويهوى القيادة، ويصون السمعة والنفوذ والهيبة. بيد أن التانترا لا تتوقف عند حد تحليل هذه الخاصيات. إنها تقود إلى الإله الذي يقع على الجانب الآخر لهذه الخاصيات الثلاث.

وتؤسس الخاصيات الثلاث الموصوفة أعلاه، لولادة العناصر الخمسة العظمى. فيظهر الأثير (الفضاء) من الصفاء. وتظهر النار من النشاط، والأرض

١- المتلون بألوان قوس قزح. - المترجم.

من الخمول. ويتشكل بين الصفاء والنشاط عنصر دقيق دائم الحركة، هو الهواء. ويتشكل بين النشاط والتأثير الذاتي: عنصر الماء الذي يحتوي في ذاته على الحركة والخمول. وترمز هذه العناصر الخمسة إلى المستويات الخمسة لكثافة أي ماهية من ماهيات الكون: المادة، والطاقة، والوعي. وهذه الكثافة هي بالنسبة للمادة: الصلابة، والسيولة، والغاز، والأشعة، والأثير. وتضيف الفيزياء إلى هذا حالة أخرى، هي حالة البلازما (الحالة الرابعة للمادة). والمقصود بحالة الأثير هنا، هو عنصر المكان. أما المقصود بحالة الأشعة، فهو النار، مع أن الأصح هو أن تدرج في هذا مصادر الإشعاع كلها. ومستويات الكثافة الخمسة هذه حاضرة في الطاقة أيضاً، وفي الوعي، وفي انفعالات الإنسان وجسده. إن كل ما في هذا العالم، هو من صنع طاقة شاكتي. أما العناصر الخمسة فهي عبارة عن تجليات شاكتي البحتة.

يبهت الأوروبيون الذين يطّلعون على الديانات الهندية ومعابدها وكتبها المقدسة، للمكانة الفائقة الأهمية التي تعطى للجنس فيها. ففي الهند نحو ثلاثين مليون تمثال للعضو الذكري: لينغام. وثمَّة في محاريب المعابد مئات اللينغام. ومن الواضح أن هذا يتناقض مع ما يعلّمنا إياه آباء الكنيسة المسيحية، والكاثوليكية والأرثوذكسية. فحسب رأي هؤلاء أن الإنسان يولد في الخطيئة، ويخرج إلى العالم الإلهي من القذارة. ولكن حقيقة الأمر، هي أنه لم يكن لدى يسوع المسيح مثل هذا التصور. فقد رأى هذا، أن كل ما هو طبيعي، أي كل ما هو من الآب جميل ورائع. وهذا المبدأ عينه يسود في الديانات الهندية. لكن ما يؤسف له أنه لا يسود في هذه الأخيرة، إلا في هذا الميدان. أما بالمعنى الواسع، أي بمعنى أن الناس كلهم سواء، فإن هذا المبدأ «خارج الخدمة».

فالهندوسية كما هو معروف، تقوم على الكاستات، ويرتبط وجودها بها. وهذه الكاستات تكلّس عملياً بنية المجتمع الهندي المعاصر، وتبقيه عند حالته البدئية الأولى، وتمنعه من أن يتطور كجسم واحد.

إن نظام الكاستات هذا يقسم سكان الهند إلى نحو ثلاثة آلاف جماعة معزول بعضها عن الآخر عزلة صارمة، وتطوّق حياتها كثرة من شتى المعايير ومختلف ضروب المحرّمات، وتحمل هذه طابعاً فلسفياً، كما تحمل أيضاً طابعاً معيشياً صرفاً. وتذكّر هذه المحرمات من حيث تفاهتها، بالمحرمات التلمودية.

وتقوم المهمة الأسمى والرئيسة للديانة الهندوسية، في منع أي تواصل بين الكاستات العليا النقية المقدسة، والكاستات الدنيا الدنسة. أما يسوع المسيح الذي عدّ

نفسه ابن الإله الآب (وعلمنا أن نخاطب الإله بصفته أباً، معطياً لنا صلاته: «أبانا الذي...»). فلم يأنف من التواصل مع أدنى الساقطين القابعين في قاع المجتمع. ولكن آلهة الهندوسية قذفت بالإنسان إلى جهنم، وهو لا يزال هنا على الأرض، منذ اللحظة التي يرى فيها النور. فكيف نجحوا في أن يعللوا هذا الظلم؟ وعلى من رموا بمسؤولية هذا الإثم الاجتماعي الرهيب؟ لقد ألقوا بالإثم على الوليد نفسه. فقد قال الآلهة للإنسان الذي ولد لتوه: إنه استحق أن يولد في كاستا وضيعة، واستحق أن يعيش حياته كلها في شقاء ومعاناة. ولكن متى ارتكب هذا آثامه؟ لقد جاءت الإجابة من الآلهة حاذقة: في الحيوات السابقة. كل شيء بسيط وواضح. فكل ما أنشأه الإقطاع الديني تقع مسؤوليته على عاتق القنّ المستَبعد. إذ تبين أن هذا المشاكس اقترف آثاماً في حيواته السابقات، مع أن هذا المسكين لا يتذكر شيئاً من هذا قط. فهو لا يعرف أي شيء عن آثامه المزعومة، بل لا يذكر أنه عاش أي حياة أخرى. إذاً كيف يستطيع الإنسان أن يندم على إثم إذا كان لا يعرف عنه شيئاً؟ لا يجيب آلهة الهندوسية على هذا السؤال.

ويميل كثيرون إلى الاعتقاد بأن الديانة الهندوسية ديانة تقدمية وديمقراطية. ودليل هؤلاء على صحة استنتاجهم هذا، هو أن الهندوسية تجيز أن يصلي المؤمن لأي إله من آلهتها الذين لا عدد لهم، ويقيم أي شعائر يريد، و... ولا تضطهد الهندوسية الهراطقة، لأنها لا تعتمد أي شرائع محددة، أو موضوعات تحدد وجه الديانة، فهل هذا أمر جيد أم سيئ؟ لا شك في أن هذا كان يمكن أن يكون أمراً جيداً لو لم تكن الهندوسية تحمل هذا الكم المهول من التراجيديا الإنسانية. ونحن لا نعرف كيف يمكن أن تجتمع تحت سقف ديانة واحدة معتقدات يناقض واحدها الآخر مناقضة تامة؟ ولكن المتخصصين في ميدان الدين يرون، أن هذا الأمر ممكن؛ لأنهم يجدون في هذه المعتقدات المتناقضة كلها عنصراً مهماً جداً يوحدها. ويتلخص هذا العنصر في العلة التي أنتجت انقسام المجتمع إلى كاستات، وفي العلة التي تبرر وجود هذه الأخيرة. ومن أجل هذا استدعيت فرضية انتقال الأرواح، وتتالي الولادات، والآثام المقترفة في الحيوات السابقة. وقد كرست

الهندوسية فرضيتها هذه بشهرة الفيدات وقدسيتها، متجاهلة في هذا السياق آلاف السنين التي انقضت من ذلك الزمن، وغير عابئة بالتقدم الذي حققه الفكر البشري. وما يؤسف له، هو أن هذه المسائل ليست مسائل أكاديمية. لكن مستقبل المجتمع الهندي مرتبط بها. إن مصير هذا المجتمع المكبّل من يديه وقدميه بأغلال هذه الكاستات، سوف يقرره القوميون المتطرفون.

ولا يقع خارج الكاستات سوى النسّاك. وحسب الهندوسية، أنه ينبغي على كل إنسان أن يقضي الربع الأخير من حياته ناسكاً، وأن يكرس الربع الأول منها للدراسة والتعلم، وهذا الربع ينتهي في سن السادسة عشرة. أما الربع الثاني فيجب على الإنسان أن يقضيه رب منزل: الزواج، وإنجاب الذرية، وإعالة الأسرة، وتربية الأطفال. ويبدأ الربع الثالث عندما يؤدي الفرد واجبه كمواطن، يكبر أبناؤه وينجبون وإذ يحقق المرء هذا، يمكنه عندئذٍ أن يهجر الحياة الدنيا. فينعزل في غابة ويعش هناك ناسكاً زاهداً يتطهر من كل دنس وإثم. ويجب عليه لكي يحقق ذلك أن يستغرق في تأملات مباركة، ويؤدي الفرائض الدينية، ويروض الجسد الفاني. ويمكن أن يعيش الإنسان هذا الطور من حياته على القوت الذي يجود به عليه سكان القرى المجاورة. أما هو نفسه فإنه ينتقي لنفسه كوخاً في الغابة ويقيم فيه. هكذا قُضي على الإنسان أن يصرف الربع الثالث من حياته. وفي الطور الأخير من حياته هذه، ينبغي على الإنسان حسب الهندوسية أن يترك الكوخ، ويحمل عصاً ويجوب الآفاق متحرراً من الحاجات كلها، ما عدا عصاته وثوبه الرث، وماعوناً للصدقات.

وقد كرست الهندوسية نظام العيش هذا بقوانين الكارما، وناموس الواجب الأخلاقي (الدهارما). ففي طور التعلم والدراسة كانت تأدية الواجب الأخلاقي، غاية الحياة. وفي طور الحياة العائلية كان رب المنزل يسعى لتحقيق الرخاء المادي، وبناء السلطة، والاستمتاع بالحب الحسي، ومعرفة اللذة. وفي آخر مراحل حياته يغدو هدف الإنسان، هو التحرر من الواقع.

كتاب الهندوسية المقدس وخلق العالم

يرى الهندوس أن كل مؤلَّف يُكتب باللغة السنسكريتية، أو بأي من اللغات الهندية الحديثة ذات الصلة بالدين والإيمان، هو كتاب مقدس. ويقارن الهندوس النصوص المقدسة عندهم بالآلهة، من حيث قداستها. وفي المنازل تعد هذه النصوص آلهة منزلية، فيقدمون لها الزهور، ويسجدون لها. بل يرفعون لها الصلوات. وتعد الفيدات أقدم النصوص المكتوبة، تليها البراهمنات، فالأوبانيشادات. ولتأويل الفيدات وشرحها، وضع فقهاء الهندوسية مؤلفات مساعدة دعوها فيدانغا، أي «أجزاء، أعضاء من الفيدات». وقد احتوت هذه على معلومات في قواعد اللغة، وإقامة الطقوس، والاشتقاق اللغوي، والأوزان الشعرية، وعلم الفلك. ثمَّ وضعوا فيما بعد نصوصاً موجزة في عدد من العلوم الأخرى. وقد دعيت هذه الأخرى سوترات. وكانت السوترات معدة لنقل التقليد الشفهي. فقد كانوا يحفظونها غيباً عن ظهر قلب. ولكن السوترات نفسها كانت تحتاج شرحاً وتوضيحاً، وكان يقوم بهذه المهمة أشخاص يدعى واحدهم معلم (غورو). والجزء الأعظم من السوترات مكرس للشعائر والطقوس. وهناك سوترات تصف القوانين الأساسية للحياة، والواجبات الدينية اليومية الملقاة على عاتق أعضاء الكاستات العليا. وتدعى هذه في معجم الكلمات الهندوسية: دهارما - سوترا. ويجب على كل هندوسي أن يلتزم بدهارماه، ويؤدي واجبه الذي تفرضه عليه قوانين التقسيمات الكاستية.

أما نصوص الشاسترا التعليمية، فقد وضعت بعد السوترات بزمن طويل. وتحتوي هذه على معارف في شتى الميادين. وهي معاصرة ليسوع المسيح زمناً. لقد كتبت هذه النصوص في صيغة شعرية فقط، وكان الغرض من ذلك، هو

تسهيل عملية حفظها غيباً. وحتى الدراسات العلمية في الهند، كانت لها صيغتها الشعرية؛ وبعد حقبة القرون الوسطى، كانت الشاسترات لا تزال تعرض الوصايا الرئيسة للهندوسية، وقواعد السلوك الأخلاقي. إنها الدهارما - شاسترا. وكانت شاسترا «شرائع مانو» (مانو - دهارما - شاسترا)، هي الأشهر على امتداد قرون كثيرة. وكانت هذه القوانين قد تضمنت فرائض على الكاستات، والمشاعات، والأفراد. ولا تزال الهندوسية حتى يومنا هذا، تلجأ إلى قوانين مانو بصفتها شرائع ذات هيبة لا تطال.

وتدخل بنية الكتاب الهندوسي المقدس، كتب قصيدة «المهابهاراتا» الملحمية الثمانية عشرة، وملحمة «الرمايانا»، إضافة إلى البورانات، وكثرة كثيرة من الأناشيد والأشعار الدينية، والأبحاث التي تعالج شتى مسائل الديانة الهندوسية وفلسفتها. وعلى وجه العموم، لم تكن «المهابهاراتا» متصلة بالهندوسية أصلاً. فقد أُنشئت هذه الملحمة على امتداد ألف وخمسمئة عام. ويزعمون أن بداية إنشائها كانت في الألف 1ق.م. وقد أدرجت هذه القصيدة الملحمية في كتاب الهندوسية المقدس، لأن البراهمان أدرجوا فيها كمّاً كبيراً من شتى المشاهد ذات الطابع الديني. وكانت هذه خرافات وأساطير، ونصوصاً هندوسية عن فيشنو وشيفا، وسكاندا، وكالي، ودورغا، وسواهم من الآلهة. كما أدخلوا إليها أيضاً تعاليم الدهارما، وبعض المؤلفات الفلسفية الأخرى. وهكذا حوّلوا الملحمة إلى بحث تشريعي تعليمي، إلى دهارما - شاسترا.

وثمَّة كتاب يؤلف جزءاً مكوناً من «المهابهاراتا»، يدعى «أغنية الرب» («بهاغافادجيتا»). وقد عدّوا هذا الكتاب الأساس الفلسفي للهندوسية. و «بهاغافادجيتا»، أو «جيتا»، هي أغنية للرب الإله الذي يعد المبدأ الأسمى للكون. وقد يكون هذا إلهاً حياً ومحباً. لكنه في الوقت عينه إله مطلق. لقد خلق الإله العالم كله من ذاته. وهو إله عطوف رؤوم، يظهر أبداً ويشارك الناس حياتهم. ويعد العالم المرئي نفسه ثمرة لهوه الإلهي. وروح كل إنسان جزيئة من هذا الإله، وهي انعكاس لمكرمته السامية. ولذلك فإن أرواح البشر أزلية، لا نهائية ومكلوءة بالفهم والإدراك. أما الميلاد والموت، فليسا سوى دورين مختلفين من أدوار وجود الروح. والهدف الأسمى للروح، هو التحرر من الآلام (من السنسارا). فالمجتمع الهندي القائم على نظام الكاستات المخالف لقوانين الطبيعة، يتألف من كثرة كثيرة من الأفراد المعذبين. وتبدأ آلام الإنسان حسب الهندوسية لحظة مولده، وتستمر حتى آخر لحظات حياته. ولذلك فإن فلسفات الهند وديانتها كلها مشغولة بمسألة واحدة، هي كيف السبيل إلى الخلاص من تلك المعاناة؟ فبدلاً

من أن يعيش الإنسان وفق قوانين الطبيعة، وفق قوانين الإله، ابتكر لنفسه قوانين أخرى، وأكد أنها هي القوانين الإلهية، والإنسان إنما يشوه حياته بتلك القوانين - المحرمات، ولا يحلم إلا بالخلاص من معاناته. والأمر هنا أكثر من شائك، لأنه حتى إذا تخلص الإنسان من الحياة، فإنه لا يتخلّص من آلامه، لأنها سوف تلاحقه في حيواته الآتية. لقد نصب الإنسان لنفسه شركاً.

وترشد «جيتا» إلى طريق الخلاص من الآلام. وهذه الطريق هي طريق التركيز الذهني، والتأمل، وفعل الخير بنكران ذات، وخدمة الناس. لكن العنصر الأهم يتمثل في محبة الإله محبة جدية خالصة من أي غرض. فهذه المحبة هي وحدها القادرة أكثر من أي شيء آخر على تنقية القلب، وتوجيه فكر الإنسان إلى المعرفة الأسمى. وتحتوي «المهابهاراتا» على مجلد تاسع عشر إضافي، مكرس للإله كريشنا وحياته وأعماله. ونذكّر في السياق أن كريشنا هو تجسيد فيشنو.

وتدخل بنية الكتاب الهندوسي المقدس قصيدة ملحمية أخرى، هي «الرامايانا». وقد وضعت هذه في صيغتها الشفهية إبان الزمن البوذي، وفي القرنين 5-4ق.م، جرى وضع «المهابهاراتا» في الشطر الشمالي من وادي نهر الغانج، أما «الرامايانا»، فقد وضعت في شطره الجنوبي. ويعد راما بدوره أحد تجسيدات فيشنو. كما تعد البورانات بدورها نصوصاً مقدسة. والبورانات روايات قديمة: مجموعات من الأساطير، والخرافات، والإرشادات الدينية. وتحتوي البورانات على كل شيء، بدءاً من الحكايات السحرية وصولاً إلى الأبحاث العلمية المتخصصة؛ ومن الإرشادات الطقسية حتى وصف دروب الحجاج. وتحتوي بعض البورانات (ستهالا - بورانات)، التاريخ الأسطوري للمعابد وسواها من الأماكن المقدسة الأخرى. وأُنشئت في القرون الوسطى كثرة كثيرة من الأشعار الدينية التي، اشتهرت منها اثنتا عشرة مجموعة من الأناشيد المقدسة، التي ألّفها ثلاثة وستون شاعراً من شعراء جنوبي الهند في ذلك الزمن. وليس في النصوص المقدسة وصف متماثل لبناء العالم، وخلقه، وفنائه. وكان من أكثر التصورات شيوعاً، التصور الآتي: لم يكن في البدء سوى الكاوس[1] الذي كان يعمه في ظلام دامس. ثمَّ ظهرت المياه من الكاوس. وأنجبت هذه بدورها النار. ثمَّ خلقت بيضة ذهبية طاقة الدفء الجبارة. بيد أن الزمن لم يكن قد ظهر بعد. فعامت البيضة في مياه المحيط الذي لم يكن له شاطئ ولا قاع. وبعد عام ظهر الوالد الأول براهما من البيضة. لقد كسر براهما البيضة الذهبية، فانشطرت إلى قسمين: تشكلت السماء من القسم الأعلى، والأرض من القسم الأدنى. فوضع براهما المكان الجوي بينهما. فبدأ حساب الزمن منذ تلك اللحظة. ويدعى براهما بالموجود بذاته، لأنه كان موجوداً منذ الأزل ولم يخلقه آخر.

١- الخراب الكوني. - المترجم.

وصنع براهما بعد ذلك روحاً حياً، وخلق إضافة إلى ذلك، الفكر والعناصر الخمسة العظمى: الهواء، والنار، والماء، والأرض، والأثير. وبعد ذلك خلق براهما الآلهة، والذبيحة الأزلية، والفيدات الثلاث، والكواكب، والأنهار، والبحيرات، والجبال، والشر. كما خلق الكلام، والفرح، والشغف، والغضب. وشيئاً فشيئاً أخذت تظهر بعدئذٍ الوحوش، والطيور، والحشرات، والعفاريت، والنباتات، وما شابه، أي كل ما هو موجود على الأرض الآن. أما فيما يتعلق بالكون كله، فإنه لا متناه، ويتألف من كثرة من العوالم، لكل عالم منها بدايته، ووجوده، ونهايته. وحياة الكون تشبه سلسلة متصلة من العوالم التي تظهر وتسود. ولا يشكل عالمنا سوى جزيئة هزيلة من الكون.

وتتعاقب في الكون عصور سكون وعصور نشاط. ويساوي عصر النشاط يوماً واحداً من أيام براهما. وهو يدعى أيضاً «كالبا». وفي بداية كل كالبا يستيقظ براهما ويخلق العوالم الثلاثة: السماوي، والبشري، والعفريتي. وفي آخر عصر النشاط يغفو براهما، وتتحول العوالم التي خلقها إلى خراب. أما الكائنات الحية، التي لم تتخلص من آلامها حتى نهاية عصر النشاط، فإن براهما يبتلعها.

وتتألف كل كالبا من ألف من القرون العظمى (ماها يوغا). وتتألف كل ماها يوغا من أربعة عصور: كريتا، وتريتا، ودفاپارا، وكالي. وكل عصر من هذه العصور أقصر من الذي سبقه. وتتوافق أطوالها والنسبة 4:3:2:1. فيمتد العصر الأول كريتا يوغا («العصر الذهبي») 1728000 سنة أرضية. إنه حقاً عصر ذهبي. فالإنسان يعيش فيه طوال 4000 عام. وعلى امتداد هذا العصر الطويل تسود قوانين العدل والواجب. ويقوم في أساس التعامل بين الناس الصدق، والاحترام، والتعاطف، والترحاب. ويعيش الناس فيه أصحاء، منعمين، مكتفين من كل شيء. ثمَّ يليه العصر الثاني، عصر التريتا يوغا الذي يمتد 1296000 سنة أرضية. ويتوارى في هذا العصر الصدق شيئاً فشيئاً. وعلى الرغم من أن الناس على وجه العموم يلتزمون بالواجب، إلا أن النوازع الذاتية أخذت تظهر في سلوكهم. وهذا ما أفضى إلى ظهور النزاعات والخلافات. بيد أن عدد الخطاة في هذا الوقت أقل بكثير من عدد الصالحين. أما في العصر الثالث، عصر الدفاپارايوغا، فإن الفضيلة في الناس أقل بمقدار الضعف. ولا يمتد هذا العصر سوى 864000 سنة أرضية، تكون السيادة إبانها للخداع، والنزاع، والغدر. بيد أن فريقاً من الناس يحافظ على نقاء سريرته. ويمتد العصر الرابع، عصر الكاليوغا 432000 سنة أرضية. وهو العصر الأخير، عصر الانهيار العام، عصر الإثم، الذي لا يبقى في العالم أثناءه سوى ربع الفضيلة التي كانت تسم العصر الأول

بطابعها. فتغلب الكاستات الدنيا بين الناس: الإيغودري والخدم. وهؤلاء كما هو معروف عن مثل هذه الكاستات، منافقون، دجالون فقدوا كرامتهم وغرقوا في النزاعات والخصومة. وهم لا شك محبطون يعيشون في مدن مليئة باللصوص، والمحتالين، والنصابين، والقتلة. نساؤهم شبقات قذرات. يتسلطن على الرجال، وينجبن كثيراً من الأطفال. في هذا العصر يضطهد الحكام المواطنين. وتغيّر الطبيعة طباعها: تتوالى الكوارث الطبيعية واحدة إثر الأخرى. وتقع حروب مدمرة تعقبها مواسم جفاف. فيعاني الناس معاناة شديدة ولا أمل لهم بالخلاص. وتنتظرهم نهاية مريرة، نهاية العصر الأخير، التي سوف تتقدمها علامات شؤوم: مئة عام من الجفاف تظهر بعدها في السماء ثماني شموس تمتص رطوبة الأرض كلها في لحظات. وتبدأ النار تلتهم كل شيء على الأرض، إذ تحملها الرياح من مكان لآخر. ولن تكتفي النار بحرق هذا العالم، بل سوف تلتهم العالم السفلي أيضاً. فتتجمع بعد ذلك غيوم سوداء كثيفة، تذكّر أشكالها بأشكال الفيلة، لكن خراطيمها صواعق. وسوف تنفجر هذه الأخيرة في لحظة واحدة، فتطلق شآبيب يتواصل انهمارها على الكون طوال اثني عشر عاماً. فيغطي الماء تحته كل شيء. ثمَّ ينهي براهما المسألة كلها، إذ يظهر عائماً فوق سطح الماء، في زهرة لوتوس، فيبتلع الرياح والغيوم. ويبتلع كل ما كان قد خلقه يوماً، بما في ذلك الآلهة والبشر. ثمَّ يستغرق في نوم عميق لكي يرتاح، ولن يستيقظ قبل لحظة الخلق التالي الجديد.

ووفق الحسابات الهندوسية أننا نعيش الآن في النصف الأول من الكاليوغا. فقد مضت من هذا العصر ستة آلاف عام، لأن الكاليوغا بدأت عند منتصف ليلة 17 إلى 18 شباط من العام 3102ق.م، حسب التقويم الأوروبي.

ولكن لوحة العالم الموصوفة هنا: خلقه، وتدميره، ليست اللوحة الوحيدة، إذ يروى في واحدة من الأساطير الفيدية مثلاً؛ أن إله الكون قد ظهر من البيضة الكونية الذهبية التي تعد رمزاً للنار، واتخذ شكل الإنسان الأول بوروشا. وكلمة «بوروشا» نفسها تعني: إنسان، وسرعان ما شطر بوروشا نفسه إلى قسمين: أنثى وذكر. ثمَّ ظهر لهما أبناء من إناث وذكور، ومن هؤلاء نشأت البشرية. وبعد ذلك صنع بوروشا وزوجته فيراج، الحيوانات والمخلوقات الحية الأخرى كلها.

وتروي الأساطير الأحدث عهداً، إن براهما خلق العالم، وأنشأ نظام الكاستات بنفسه. ولذلك عدّوا هذا النظام نظاماً أبدياً مقدّراً للأزمنة كلها.

وفي أساطير هندوسية أخرى: ينسب خلق العالم إلى مانو. ومانو هذا مثله مثل نوح التوراتي، عاش الطوفان الكوني ونجا منه. فقد صنع فلكاً وضع فيه

الصدّيقين السبعة العظام، وبذور النباتات كلها. أما الحيوانات فقد خلقها مانو بعد الطوفان، واستغرق خلقها قرناً كاملاً.

ومن المفيد أن نقول بعض الكلمات الأخرى عن فلسفة الهندوسية. فقد تطورت هذه تطوراً اختلف تماماً عن تطور الفلسفة الأوروبية، أي عبر نفي الرؤى الفلسفية السابقة. لقد كان الذي جرى في الهند يشبه ما جرى في أوروبا إبان العصور الوسطى؛ عندما سمح المفكرون لأنفسهم بأكثر من تعليل لمؤلفات القدماء: أفلاطون، وأرسطو، وهيراقليط والتعليق عليها. فقد عدوها صحيحة بالمطلق ولا عيب فيها. ولم تعبر الهند زمن القرسطوية بعد. وليس هذا الواقع سوى نتاج طبيعي لتقسيم المجتمع إلى كاستات، لأن الشريان الرئيس الذي يغذي عقل الأمة، مغلق بإحكام ولزمن طويل.

فالهند خالية الآن من أي مدرسة فلسفية تعارض الهندوسية، بل كل منها يسعى جهده لكي يعلل صحة موضوعاتها الأساسية. لقد بدأت الفلسفة عندما بدأ الإنسان يفكر أول مرة ببنية العالم المحيط به، والمكانة التي يشغلها هو نفسه في هذا البناء. ولذلك كانت الفلسفة حاضرة في أناشيد الريغفيدا المتأخرة، والأوبانيشادات، والكتب المقدسة الأخرى التي ظهرت بعد ذلك. ولكن هذه الفلسفة لم تتضمن أي نقد للرؤى التي كانت سائدة عن العالم المحيط. وإنما تضمنت تعليلاً لها. لقد كان الفلاسفة الجدد يرغبون في ترسيخ الرؤى التي طورها أسلافهم وحسب. ومع الالتزام بمثل هذه المبادئ، يصعب كثيراً التعويل على تطور المجتمع إلى الأمام.

أما مصدر النظم الفلسفية الهندية كلها، فهو السوترات. وقد رأى الفلاسفة أن مهمتهم الأساس، هي التعليق على نصوص السوترات وشرحها. وغالباً ما صاغوا تعليقاتها وشروحاتهم تلك، في محاورات ومساجلات. وكانت هذه في حينها واقعاً، إذ كانوا يعدون لها إعداداً مسبقاً، وغالباً ما كانت تدور بحضور الملك وحاشيته. بيد أنه كان محرماً أن ينطق في أثناء تلك المحاورات، بأي كلمة ثورية. وكان كل شيء يفضي إلى تأكيد ما هو معروف منذ زمن. ولذلك كان أمراً طبيعياً أن تظهر المدارس الفلسفية كلها في وقت واحد، وتتطور في تفاعل وثيق فيما بينها. لقد كان فلاسفة المدارس كلها يحللون الحقائق، والموضوعات التي كانوا يتلقونها أثناء رؤيا تهبط عليهم لدى بلوغهم الحقيقة ببصيرة داخلية. وقد أكد هؤلاء على أن البصيرة الروحية الداخلية، هي كالشعاع الذي يضئ المكان الداخلي فيجعله مرئياً وواضحاً. والهدف الرئيس في الفلسفة كما في الدين، هو التحرر من الآلام، وتحديد الطريق التي تقود إلى ذلك التحرر.

ومع بداية التاريخ الميلادي، كانت قد تشكلت في الهند ست مدارس فلسفية رئيسة. لكن جذورها كلها تغوص عميقاً في التاريخ القديم، في فلسفة الفيدات ولوحة العالم البراهمنية. ولم تكن تلك المدارس الفلسفية يعارض بعضها الآخر من حيث الاستنتاجات والخلاصات. وكل ما في الأمر أن كلاً منها كان يعالج مسائله ومعضلاته الخاصة. كما كان لكل مدرسة ونظام فلسفي حقل نشاطه الخاص به، يزرعه بمعارفه. وما يثير الفضول، هو أن النّظم الفلسفية الستة توزعت على ثلاثة أزواج يدرسونها على النحو الآتي: سانكهيا - يوغا، ونايا - فايسيشكا، وفيدانتات - ميمانسا.

لقد تأسست مدرسة سانكهيا الفلسفية على نظام فلسفي أكثر تعقيداً وعمقاً. وتعني كلمة «سانكهيا»، «التبصر، التقدير». وقد استخدم بوذا الموضوعة الأساس لهذا النظام الفلسفي. أما مؤسس هذه المدرسة، فهو كابيلا الذي عاش في القرن 7ق.م. وحسب تعاليمه، أن كل شيء قائم على مبدأين مستقلين. المبدأ الأول، هو الطبيعة المتغيرة أبداً، الواحدة أبداً؛ والمبدأ الثاني، هو كثرة من الأرواح الفردية. وتقع الطبيعة في حالة وضوح كما في حالة غموض. وفي حالة الغموض تعيش الطبيعة حالة توازن القوى الثلاث التي تتألف منها. فتقيم القوة الأولى التوازن، والسكون، والانسجام. وتطلق الثانية الانفعال، والولع، والحيوية. وتبث الثالثة الخمول، والبلادة، واللامبالاة. وهذه القوى الثلاث متحايثة أبداً. فهي تتركب من بنى مختلفة وتنتج التنوع اللانهائي للعالم المرئي. وعندما يبدأ عصر كوني جديد، يختل توازن هذه القوى الثلاث، ويظهر في الطبيعة خمسة وعشرون عنصراً (نوعاً)، هي عناصر الوجود، بدءاً من الإدراك، والإحساس بالذات، وانتهاء بالعناصر الفيزيائية: الهواء، والنار، والماء، والأرض، والأثير.

إن ما يثير الفضول في هذا النظام الفلسفي، هو إدخال شاهد خامل يرصد العمليات كلها. وحسب فيزياء الجزيئات المعاصرة، وميكانيكا الكم، أن كل عملية رصد للعمليات تفضي إلى تغيير النظام، لكن الشاهد المستدعى لا عمل له. إنه مبدأ خالد ملهم. وهو يتميز عن الجسم، والفكر، وعن أجهزتنا الحسية ومشاعرنا. ولكن هل من ضرورة لوجود هذا المراقب؟ نعم، فهو ليس عاطلاً عن العمل في كل حياة بعينها، بل ينخرط في دورة السنسورا (سلسلة الولادات المتكررة). فيحدث نتيجة لذلك تداخل بين الإدراك والنفس. لقد وضعت هذه المدرسة الفلسفية لنفسها مهمات، كان حلها أمراً حيوياً بالنسبة لعصور البشرية كلها: تحرير الإنسان من الجهل، وترويض الأهواء، وتطهير

الجسد، وتنقية الفكر. وكان يجب أن يساعد هذا كلّه في نهاية المطاف في بلوغ الحقيقة.

إن مدرسة اليوغا الفلسفية تقوم على نص «اليوغا - سوترا» وكثرة من التعليقات على هذا النص. وتدلي هذه المدرسة بدلوها سوية مع مدرسة سانكهيا التي تحدثنا عنها سابقاً. ويعني هذا في واقع الأمر، أن الأساس النظري لليوغا يتكون من نظام سانكهيا الفلسفي. وحسب نظام اليوغا أنه لا يمكن فهم العالم إلا بمساعدة تمارين نفسية فيزيولوجية معينة. فطريقة بلوغ الكمال هذه، هي التي تسمح بإعادة تحويل العمليات النفسية (الأفكار، الانفعالات، الأحاسيس)، وتجاوز كل ما هو طارئ، ولتحقيق ذلك تقترح هذه المدرسة طريقاً تتألف من ثماني مراحل، هي: الامتناع عن العنف، والكذب، والتسبب للغير بالأذى، وترك العداوة والكره، والابتعاد عن التطاول على ما للغير، والامتناع عن السرقة، وعدم إقامة علاقات معيبة مع الفاسدين الذين فقدوا كرامتهم. هذا كله يشكل المرحلة الأولى من الطريق. وتندرج في المرحلة الثانية، تأدية فروض تطهير الجسد، والانفعالات، والأفكار. وهي تفترض قراءة الكتب المقدسة، والتفكر المتواصل بما هو إلهي. وتقضي المرحلة الثالثة بتنظيم شؤون الجسد، وإتقان اتخاذ الوضعيات الصحيحة للاستغراق في حالة التركيز الذهني. وتقضي المرحلة الرابعة بالتحكم بالتنفس وطاقة الجسم. وتفرض المرحلة الخامسة تجريد أجهزة الشعور عن موضوعاتها. أما المرحلة السادسة، فهي صرف الانتباه عن كل شيء وتركيز الوعي. والمرحلة السابعة، هي الاستغراق، أما المرحلة الثامنة فهي إدخال الوعي في حالة خاصة. وهذه الحالة الأخيرة، هي الحالة التي تتوقف فيها العمليات النفسية كلها، ويدخل الفرد فيها حالة الغبطة (الطوبى) إن امتلاك مراحل إدراك الحقيقة الثماني هذه، يسمح بفصل الروح عن المادة، وامتلاك القدرة على التسلل الوجداني إلى عمق الحقيقة.

وترى مدرسة نيايا الفلسفية، كما هي حال المدارس الأخرى، أن غاية الحياة الإنسانية هي: الانعتاق. وتتميز هذه المدرسة عن المدارس الأخرى بأن أتباعها يبرزون على وجه الخصوص، الأهمية التي تتمتع بها حالة التأمل الفكري، بالنسبة لإدراك الواقع الحقيقي. وتُعطى الأهمية الأولى في هذا السياق، للمنطق وقوانينه. ووفق هذه الفلسفة إن للمعرفة أربعة أنواع من المصادر البسيطة المستقلة. وهذه المصادر هي الانطباع، والاستدلال المستند إلى الإظهار، والتشبيه، أو بمعنى آخر، تحديد صلة الكلمة بالموضوع (الشيء) الذي يشاهد لأول مرة؛ ثمَّ القرينة اللفظية. لقد تطورت هذه المدرسة الفلسفية وتحولت في آخر المطاف إلى منطق، عندما ظهر في القرن 13م. بحث غانغيشا: «تاتفاتشينتاماني».

وتطورت داخل أطر مدرسة فايشيشيكا، التعاليم المكرسة لماهية الوجود. وقد أبرزوا حسب هذه التعاليم ستة أنواع للوجود وجوهره، هي: الماهيات،

وكيفياتها، وحركتها، والعام، والخاص، والجوهر الداخلي. وتعد هذه المدرسة الفلسفية قريبة جداً من مدرسة نيايا. فما يجمعهما لا يقتصر على التوجه الفلسفي المشترك، بل يتعداه إلى الاتفاق في المنطق ونظرية المعرفة. ولذلك كان طبيعياً أن تندغم المدرستان في آخر المطاف، وتشكلان مدرسة واحدة. ففي القرون 5-7م، وحدّت المدرستان جهودهما في الصراع ضد البوذية.

أما مدرسة فيدانتا (نهاية الفيدات) الفلسفية، فقد استندت إلى نصوص الأوبانيشادات: «بهاغافادجيتا»، و «بهاغافاتا - بورانا»، و «براهما - بوترا». وقد تواءمت تحت تسمية فيدانتا نفسها، مدارس فلسفية متباينة تبايناً تاماً، خاضت فيما بينها مساجلات طويلة. ولم يكن يجمع بينها سوى الأساس الديني الذي استند إليه كل منها، والعمل على حل المسألة الفلسفية عينها: كيف يتوافق الإنسان مع المطلق؟ وما الذي يمثله المبدأ المطلق والعالم المحيط بالإنسان؟ وكيف يمكن التخلص من العودة ثانية إلى هذا العالم؟ وكانت أشهر مدارس الفيدانتا قد رسمت للعالم اللوحة الآتية: مبدأ كل شيء هو الإله الواحد (براهمن). فهو إله قريب، ورب (إشفارا)، وما عدا الإله الواحد، ليس ثمَّة شيء. هناك فقط العالم المرئي الذي صنعه الإله بقوته السحرية (مايي)، التي تنبعث منه. وليس العالم الذي يدركه الإنسان سوى عالم وهمي. أما العالم الحقيقي (العالم الواقعي) فهو البراهمان، الذي لا يدركه سوى الفلاسفة والحكماء. ولكن إدراكهم له ليس ذهنياً، لأنه لا يتحدد بالكلمات. فروح الإنسان في العالم المعتاد (العالم الوهمي) تنسى جوهرها الحقيقي، أي جوهرها الإلهي. ولا يعيد روح الإنسان إلى الاتحاد مع الإله الكلي القدرة والمعرفة (براهمن)، سوى بانعتاقها الحقيقي.

وعالجت مدرسة ميمانسا الفلسفية، الدور المميز الذي يؤديه الطقس. فقد افترض مفكرو هذه المدرسة أن الطقس أكثر أهمية، بالنسبة لإدراك الحقيقة من التفكير المنطقي. وقد أقرت هذه المدرسة بالوقار المطلق للفيدات. وما يثير الفضول أن هؤلاء الفلاسفة رأوا أن الفيدات لم يُنشئها إله أو إنسان، بل صدرت عن مصدر ما ليس له شخصية. ولذلك فهي عصية عن أي خطأ ممكن. ولكن من هو هذا المصدر إذا لم يكن بشرياً أو إلهياً؟ إن طقس الذبيحة هو الطقس الأساس في الهندوسية. فالذبيحة هي التي تخلق الكون، وهي التي تعيد خلقه مرة بعد مرة، وتملؤه كما تُملأ الساعة اليدوية، وتزوده بالطاقة الكامنة. وبالنسبة للفرد العادي، فإن الذبيحة هي التي تمنح حياته البائسة مغزى سامياً. ولكن يجب أن تلتزم شعائر الطقس التزاماً صارماً بفرائض التقليد المقدس. وكما سبق وأشرنا، فإن هذه المدرسة الفلسفية، أو بمعنى أدق، المدرسة الدينية - الفلسفية،

قد استغنت عن الإله استغناءً تاماً. ولا يعيقها هذا عن الانخراط في الهندوسية التي تجيز كل شيء: الإيمان بإله واحد، والإيمان بكثرة من الآلهة، أو عدم الإيمان بأي إله كان، مع أن هذه الحالة الأخيرة يستبدل فيها بالإله عنصر ما لا شخصية له. ولكن لماذا لا يدعى هذا الأخير إلهاً، لا سيما أن المعارف كلها على الإطلاق، صدرت عنه؟ على أي حال، إن طرح الأسئلة المنطقية في الهندوسية، أمر عبثي لا طائل منه.

ولكن بما أنه ليس ثمَّة إله، فقد فرضت الهندوسية على الإنسان، أن يسجد للذبيحة. وفي هذا وحده يتلخص واجب الفرد: تأدية فرائض التقليد المقدس للطقس دون نقصان أو زوغان. وما يثير الاهتمام في هذه المدرسة أيضاً، أنها لا تعترف بانتقال الروح. وعدّت أن الهدف الأساس للحياة، هو تحقيق النجاحات في هذا العالم، والولادة من جديد في السماء. دون اعتبار أن ميمانسا لم تعترف بتكرار مرات العيش على الأرض، إلا أنها نجحت في أن تنخرط في الهندوسية.

أما المدرسة الدينية - الفلسفية تشارفاكي، فهي لم تتوقف عند حدود عدم الاعتراف بوجود أي إله وحسب، بل رأت أيضاً أنه ليس ثمَّة أي ضرورة على الإطلاق لإقامة أي طقوس كانت. كما رفضت هذه المدرسة الفلسفية، الكتب المقدسة كلها. ومع ذلك أدرجوها في الهندوسية.

الجنة و الجحيم في الهندوسية

يرتبط تقليد حرق الموتى في الهند، بعبادة إله النار أغني. فأغني وحده الذي يمتلك «طريق الآباء»، طريق الأموات. وهو الذي يحدّد البر والإثم والشر في كل متوفى. ويجري التقسيم هنا وفق مبدأ في غاية البساطة: يتحول الجسد إلى رماد، وينتقل إلى الرماد كل ما هو آثم وناقص، بينما تحمل النار الروح إلى العالم الآخر. فتتطهر الروح بالنار، وتعود لكي تتحد مع إهابها السابق في العالم الآخر. وهناك يستقبل الأسلاف الروح بفرح وحبور. وهناك، في ذلك العالم تتحقق الأمنيات كلها، وتسير الحياة عبر مباهج جديدة.

لكن تعاليم الهندوسية تقول: إنه إلى جانب هذه الجنة التي يعيش كلهم فيها سعيد مغتبط (لأن الآثام بقيت كلها على الأرض)، ثمَّة جنة أخرى، وبكلمة أدق، ثمَّة جنة إله آخر، جنة الإله إيندرا. أما الجنة التي وصفناها هنا، فهي جنة الإله ياما. كما تتحدث الكتب المقدسة عن تنويعات أخرى للجنة. ولكنها كلها في آخر الأمر مستقرات للأموات. ولم يكن الوصول إلى هناك بالأمر الصعب، لأنهم لم يروا في الجنة مكافأة على البر والتقوى في الحياة الدنيا. لقد تصوروا الجنة زاوية النعيم التي يمضي إليها كل ميت، لأن النار (أغني) تطهره من الآثام والدنس.

ولكن مع سير الزمن تبدلت تصوراتهم عن العالم الآخر والحياة الأخرى. فلم يعد الإنسان يرضى بأن يجد نفسه بعد الموت في المكان عينه مع أقرانه الآخرين، مع أن وجوده ذاك كان في الجنة. لقد أخذ الإنسان يسترق النظر بحسد واضح، إلى الأماكن التي يقيم فيها الآلهة. وعليه فقد ظهرت تصورات جديدة عن «عالم الأسلاف». فلم يعد هذا «مملكة الأسلاف» بحياة النعيم التي يعيشونها، بل تحول إلى النقيض تماماً: إلى الجحيم، ويمكننا ألا نحار لهذا التغير الجذري في تصوراتهم عن أماكن عيش الناس بعد الموت. ولكن على الرغم من هذه التباينات

كلها، فإنه ثمَّة منطق معين هنا. فمن المعروف أن الناس قادرون على أن يجعلوا من أي مكان يقيمون فيه جهنماً. وعلى هذا النحو، ظهر مفهوم الجحيم في تصورات الهندوس القدماء بكل أهواله، وآلامه، وإهاناته، وانتهاكاته، وأشباحه. بيد أنه من البديهيّ أن يكون التصور الأول عن وجود الجنة وغياب الجحيم، هو التصور الأصح (بل قد يكون الأصح على الإطلاق) من تصورهم الرهيب عن الجحيم. وحسب بعض التصورات أن الجحيم موجودة لكي يتسنى للأموات أن يتطهروا من آثامهم. فيخضعون فيها لشتى ضروب الآلام. يضعون الظالمين، والمتعسفين في مراجل يغلي الزيت فيها، أما من كان يتعامل في حياته الدنيا مع الحيوانات بوحشية، فإنه يرمى لوحوش مخيفة لتمزقه إرباً (والحقيقة أن هؤلاء يواصلون العيش بعد ذلك). وكما الجنات كثيرة، كذلك الجهنمات كثيرة أيضاً ومختلفة. وفي كل منها تقنية التعذيب الخاصة. فالذي يقتل براهمان مثلاً، له جحيم خاصة معدة بأقصى مستويات الرعب، قاعدتها أي أرضها نار متوهجة، وسقفها مرجل يتلظى. وهناك نماذج جحيمية أخرى. فمن يقتل الحشرات على سبيل المثال، يقع في جحيم يضنيه خدمها بالحرمان من النوم. ومن يتزوج فتاة من خارج كاستته، فإن عقاباً رهيباً ينتظره: عليه أن يعانق في جحيمه أشكالاً من الحديد المتلظي. وثمَّة جحيم خاصة بالقادة الذين ينتمون إلى المراتب العليا. فمن تسبب منهم بنشوب حرب أو نزاع أو صدام على خلفية دينية، فسوف يرمى به في نهر مليء بالقاذورات التي تقزز النفس.

ومن الوجهة المنطقية، فإن جهنم عُدّت لكي ينال كل منهم جزاء ما فعل، أي لكي تتحقق العدالة. ومن الواضح أن العالم عاجز عن الاستمرار من دون العدالة. ومن المهم جداً الكيفية التي يتحقق بها قانون العدالة. وتظهر حياتنا اليوم أن فاعلية قانون العدالة تتوقف عن العمل في فترات معينة من الزمن. ولذلك يقولون، وفي قولهم كثير من الحقيقة: إنه لا وجود للعدالة، لا وجود للحقيقة. ولدحض هذا يزيدون من اتساع الفاصل الزمني. فالمسيحيون والمسلمون يجعلون هذا الفاصل (زمن الجمع والتكامل)، بطول الحياة نفسها. وما يحصل في غضون ذلك، هو أن الإنسان يأثم حياته كلها، لكنه لا ينال أي عقاب جزاء آثامه. ولا يعني هذا أي شيء، لأنه سوف يلقى عقابه بعد موته.

أما المعتقدات الهندية، فإنها لا تجمع محصلة زمن حياة واحدة، بل أزمنة حيوات كثيرة تعيشها الروح عينها على الأرض، إلى أن يتخلص الفرد في آخر المطاف من دوامة تعاقب الحيوات الزمنية، ويتحرر نهائياً من السنسارا (توالد الروح). وحسب هذا النظام أن الإنسان لا يتلقى عقابه على آثامه في الجحيم، بل في الحياة الزمنية الدورية. ففي نظام نزوح الروح يقع الجحيم هنا على الأرض،

ولا يعاقب الآثم في الجحيم الأسطورية، إنما في الحياة الواقعية. إن كون الجحيم يقع هنا على الأرض، لهو أمر يشبه الحقيقة. ولكن يبقى من غير المفهوم، لماذا إذاً تُبقي التعاليم عليه في السماء، في العالم الآخر، في الحياة الأخرى؟ إنه لأمر يناقض نفسه؛ لأنه إذا كان الإنسان قد نال عقابه على آثامه الزمنية في الجحيم، فلماذا يبعث به ثانية إلى الجحيم الأرضية؟ لماذا يولد من جديد ليكرر حياته على الأرض؟ يبدو واضحاً أن هذه التصورات عن جحيم العالم الآخر، قد تشكلت قبل أن يبتكر البراهمن تقسيمهم الحاذق للمجتمع إلى كثرة من الكاستات. وقد كان ذلك ضرورياً بالنسبة إليهم، لكي يتمكنوا من إدارة المجتمع. وقد أظهر تاريخ الهند على امتداد ألف عام أنهم نجحوا في هذا، مع أن الشعب يدفع ثمن ذلك بحوراً من الآلام والذهول الروحي والنفسي. وهكذا يتعارض وجود الجحيم في الهندوسية تعارضاً مبدئياً مع مبدأ انتقال[1] الروح، أي مع قانون الكارما، بالتالي مع الحيتان الكبرى التي تستند إليها الهندوسية (والديانات الهندية الأخرى).

بيد أنه ثمَّة تناقض آخر يرتبط بنظرية نزوح الأرواح. فهي تعارض عبادة الأسلاف التي لها قوة خاصة في الهند. فإذا كان الإنسان لا يتأخر طويلاً في العالم الآخر، بل سرعان ما يعود إلى الأرض ليعيش عليها حياته الدورية التالية، فكيف نحدد إذاً من سلف من؟ وتنطلق فرائض تبجيل الأسلاف كلها من أن السلف لا يرجع إلى الأرض في صورة إنسان بعد الموت مباشرة، ولا بعد مرور زمن ما. بل هو مقيم أبداً في العالم الآخر. ففي البداية يتخذ حالة روح بلا جسد، ثمَّ يكتسب بعد ذلك جسداً دقيقاً يتخذ لنفسه مكاناً في جنة ذلك العالم. وهناك يقابل أقاربه الذين سبقوه إلى هناك. والحقيقة أنه ليس هو من يكسو روحه بالجسد «الدقيق»، إنما ذريته التي بقيت على الأرض، والتزمت بتأدية طقوس معينة في الوقت المناسب وبالشكل التام. أما إذا لم تؤد تلك الطقوس، فإن الميت يبقى من غير جسد، روحاً لا مستقر لها. وقد يرجع عندئذٍ إلى الأرض في صورة روح، ويتحول إلى عدو للناس، إلى روح شرير أفعاله على الأرض شريرة. ولذلك فإن لتأدية الطقس (إيكوديشتا) في وقته المحدد أهمية مبدئية.

لقد كانت لعبادة الأجداد في الهند ولا تزال، أهمية كبيرة، لا من الوجهة الدينية والأخلاقية وحسب، بل من وجهة الأهلية القانونية أيضاً. فإذا ما تقاعس الابن عن تأدية طقوس تكريم الأسلاف، يفقد حقه في تركة أسلافه. وليس ثمَّة من

١- نزوح. - المترجم.

خيار هنا. فعبادة الأسلاف تجمع الأحياء والأموات في كل واحد. لكن هذا كله ليس له أي مغزى إلا إذا بقي الأسلاف الموتى هنا في العالم الآخر بقاء أبدياً؛ ولم يرجعوا إلى الأرض من جديد لكي يكفّروا عن آثامهم التي اقترفوها في حيواتهم الأرضية السابقة. ووفق عبادة الأسلاف، فإن الأموات من هؤلاء يتساوون مع الآلهة. ولذلك فإنهم يمتلكون إمكانات حقيقية لحماية أحفادهم الذين على الأرض، وصون عائلاتهم ومواطنهم. ولكن هذا ليس ممكناً إلا إذا تحرر الأسلاف من أعباء العودة ثانية إلى الأرض الآثمة.

وتضم الهندوسية بين جنباتها تعاليم التسارفاكيين الإلحادية، التي ترفض وجود الآلهة رفضاً مطلقاً، ولا تقر أي طقوس أو نصوص مقدسة.

ديانــة الســيخ

يتلخص جوهر الديانة السيخية في الكلمات الآتية: «الإله واحد أزلي. موجود في كل شيء، وهو في الوقت نفسه خالق كل شيء في الوجود. لا يعرف الخوف، ولا العداء. وهو موجود خارج الزمن، وخارج الميلاد والموت. وهو يدرَك برحمة الغورو».

لقد أسس هذه الديانة الجديدة: الغورو ناناك. وكان هذا قد ولد في عام 1469م في قرية صغيرة واقعة في غربي البنجاب، تدعى راي بهوي دي تالواندي. ومنذ صغره كان ناناك غلاماً معجزة. لقد تعلم اللغة البنجابية، ثمَّ التحق بمدرسة إسلامية تعلم فيها اللغة الفارسية، التي كانت اللغة الرسمية لدولة الهند وقتئذٍ. وما كان يتعلمه التلاميذ الآخرون في سنوات، استوعبه ناناك في أسابيع معدودة. ولما بلغ العاشرة من عمره كان ناناك قد صاغ تعاليمه، وأعلنها للناس. وقد تزامن هذا الحدث مع اللحظة التي كان يجب فيها على الفتى أن يؤدي الطقس الهندوسي؛ الذي يمنحه حق حمل الشريط المقدس الذي كان ميزة الكاستات العليا في الهندوسية. وكانت تلك المراسم مراسم احتفالية دائماً. ولكن الفتى رفض الشريط، وأعلن أن الولاء للإله يكمن في الإيمان الداخلي العميق. أما الطقوس، بما فيها طقس تقليد الشريط، فليس لها أي صلة بالإيمان بالإله. لقد نجح مؤسس الدين الجديد، وهو في العاشرة من عمره، أن يحدد جوهر العلاقة مع الإله تحديداً صحيحاً. فالإيمان بالإله، وحب الإله، هما بالنسبة إليه محبة الناس، كل الناس بصرف النظر عن الانتماء الكاستي والانتماء الديني. لقد أدرك ناناك أن الناس كلهم سواسية أمام الإله: الأغنياء،

والفقراء، والهندوس، والمسلمون. وترسخت قناعته بموقفه هذا أثناء مناقشاته وأحاديثه مع الهندوس، ومع المسلمين.

ولكن أي تعاليم وأي دين لا يظهران من الفراغ، وعليه لم يكن ظهور التعاليم السيخية في البنجاب مجرد مصادفة، فهناك بالذات ساعدت الشروط الجغرافية على انتشار أفكار نظرية جديدة، لأن تيارات دينية متنوعة جرت وتخالطت في ذلك الإقليم. وعبر بوابة البنجاب تسلل الغزاة إلى الهند، وتسربت الأفكار الجديدة إليها.

يقع إقليم البنجاب (ومعنى التسمية باللغة الفارسية، «الأنهار الخمسة»، أي روافد نهر الهندوس الخمسة) عند ملتقى جنوبي آسيا مع الشرق الأوسط. ويحتمي الإقليم من جهة شمال - شرقي الهند بجبال الهملايا، ومن الجنوب بالمحيط، ومن الشرق بمرتفعات جبلية وعرة، ومن الغرب بصحراء تار. وقد تسلل الغرباء إلى الهند عبر البنجاب بالذات. ولذلك لم يكن سكان الإقليم الأصليون يفارقون أسلحتهم لحظة واحدة.

ففي أواخر الألف الثانية وأوائل الألف الأولى ق.م، دخل الآريون إلى الهند عبر البنجاب، ثمَّ تبعهم الساكيون، فالكوشات وسواهم من شعوب بلدان الشرقين الأدنى والأوسط. وفيما بعد عبر المكان الهون البيض. ومنذ القرن 7م، أخذ الإسلام بتنويعاته كلها يتغلغل إلى إقليم جنوبي آسيا عبر البنجاب. وبات يمكن القول: إن البنجاب وجد نفسه نقطة التقاء ديانتين: الهندوسية والإسلام. ولذلك كان من الطبيعي أن تنشأ هنا تعاليم متكاملة متوافقة لم تضع أياً من الديانتين في مواجهة الديانة الأخرى.

لقد ظهرت الديانة السيخية في زمن كانت الهند تعيش فيه طوراً عصيباً من تاريخها. ففي القرن 15م. كانت سلطنة دلهي، وهي أكبر دول آسيا في حقبة القرون الوسطى، تحت حكم كثرة من السلالات التي كانت تزيح إحداها الأخرى. وكان الإسلام هو الدين الرسمي للدولة. بيد أن أكثر سكان الهند كانوا يعتنقون الديانة الهندوسية. وكان كل من الديانتين يفرخ هرطقات، فالهندوسية ابتلعت حركة بهاكتي الدينية الإصلاحية. وقد قام في صلب هذه التعاليم موضوع عن حب للإله يصل حد الوجد. ولم تكن هناك حاجة لوسطاء: براهمن، لبلوغ هذا الحب. فالتواصل مع الإله شأن خاص بالمؤمن عينه، ولتحقيق مثل هذا التواصل، لم يكن ثمَّة ضرورة إقامة أي شعائر أو مراسم. أما الإسلام فقد أنجب الصوفية. ولكن الصوفيين طردوا من الهند والبلدان الإسلامية الأخرى، فجاؤوا واستقروا في شمال غربي هندوستان. ونجحوا في تأسيس دولتهم هناك. ولكنهم بلغوا دلهي في نهاية المطاف، على الرغم من مقاومة السلاطين لهم.

ويتلخص جوهر التعاليم الصوفية في أنه ينبغي بالضرورة أن تكون الغاية الأسمى للإنسان، هي التواصل مع الإله والاتحاد به. ولبلوغ ذلك يجب العزوف عن العالم والعيش عيشة زهد وتقشف. وهذا ما يجب أن يمهد السبيل له، الاستغراق في التفكير بالإله، وإنشاد الابتهالات، وترديد اسم الإله. وينبغي أن يقود الشيوخ أنفسهم عملية نكران الذات هذه. ومن الواضح أن هذه الفلسفة أعلنت الفقر أحد طرق الحق. والحقيقة أن الصوفيين دعوا من حيث الجوهر، إلى ما دعا إليه البهاكتي: تعميم المحبة والأخوّة بين البشر على اختلاف انتماءاتهم وإمكاناتهم. وغنيّ عن البيان أن مثل هذه الدعوة لم يكن لها إلا أن تثير لغطاً كبيراً في مجتمع يقوم على مبدأ الانقسام إلى كاستات.

لقد كان النبي ناناك شخصية يملؤها الحماس. وكان يقع في أحيان كثيرة فريسة نوبات ذهول، فينشد الأناشيد ويصدح بالأغاني التي كان يرتجلها في اللحظة عينها. وكان في أغانيه وأناشيده يمجد الإله، ويعبر عن وجده له. لقد خدم ناناك موظفاً في عاصمة البنجاب عدة سنوات. وفي أحد الأيام ولد الرجل من جديد. فبعد أن استحم في النهر كالمعتاد، غاص ناناك في الماء ولم يخرج، فظن جميعهم أنه غرق، لكنه ظهر في المدينة بعد ثلاثة أيام. ولم يكن ناناك الجديد هذا يشبه ناناك ذاك: كانت عيناه تشعان ببريق غريب، وحول رأسه تتأرجح هالة من ضياء. لقد كان ينبعث من جسده ضياء إلهي. وبقي ناناك صامتاً عدة أيام لم ينطق أثناءها ببنت شفة. ثمَّ نطق بالكلمات الأولى الآتية: «لا للهندوس، لا للمسلمين. ينبغي على الإنسان أن يعمل ويتقاسم ثمار عمله مع الآخرين». وعلى هذا النحو سرعان ما صار ناناك نبياً، فترك العمل في القصر وأخذ يجوب الأماكن المقدسة، الهندوسية والإسلامية على السواء. فزار الأماكن التي دارت فيها أحداث «المهابهاراتا» و «الرامايانا». ولا تزال تتجمع في هذه الأماكن حتى يومنا هذا، عشرات ومئات ألوف الحجاج. كما زار ناناك المكان الذي حدثت فيه صحوة بوذا في التيبيت. وحجَّ إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، فزار مكة، والمدينة. وعاد عبر بغداد، وكابول، وبيشاور، ومولتان، وبور سعيد.

لقد ارتحل ناناك ما يقارب الثلاثين عاماً. وبات معلماً معروفاً (غورو) توافد إليه التلاميذ من شتى البلدان. ونشير في السياق إلى أن كلمة «سيخا» تعني «تعاليم». وفي آخر المطاف استقر المقام بناناك على الضفة اليمنى لنهر رافي،

وهو أحد روافد نهر الهندوس. فأسس هنا مدينة حصن الأعلى (كورتاربور). وكان النبي يرتدي ثياب فلاح، ويحرث الأرض مع زوجته وأولاده. كما كان تلاميذه يفعلون الشيء نفسه. وهكذا تأسست الطائفة السيخية الأولى. وكان أفرادها يتقاسمون ثمار عملهم فيما بينهم. لقد كان يدعى إلى «مائدة الغورو» أي ضيف كان، بصرف النظر عن انتمائه الكاستي ووضعه الاجتماعي. ولم يكن مثل هذا الأمر مألوفاً عند الهندوس. فقد رأى هؤلاء أن مجرد سقوط ظل شخص ينتمي إلى كاستا دنيا على طعام شخص ينتمي إلى كاستا عليا، يعد إثماً رهيباً لا كفارة له! ولكن السيخ حافظوا على تقليدهم هذا طوال خمسمئة عام: لدى كل طائفة، وعند كل مكان من أماكن السيخ المقدسة العظمى، ثمَّة موائد يقدمون الطعام عليها لكل وافد، سواء كان من أهل الديار، أو غريباً عابر سبيل، سيخياً أو من أتباع ديانة أخرى.

ومثله مثل يسوع المسيح، رأى ناناك أن الأهم في مسألة الإيمان موجود في روح الإنسان. فقد قال المسيح: مملكة الله موجودة في داخلكم. وقال ناناك: لا يتحدد الدنس باختلاف مستوى الكاستا، ولا حتى باختلاف الانتماء الديني، بل يتحدد بالحالة الروحية للإنسان. ولم يقل ناناك يوماً، إن تحقيق النقاء ممكن بتأدية طقس الاغتسال في ماء النهر المقدس. ومن المعروف أن نظام الكاستات الهندوسي يقوم أصلاً على مفاهيم التطهر. وعلى وجه العموم كان النبي ناناك ضد المراسم الدينية كلها، ورأى أنه ينبغي على الإنسان أن يتواصل مع الإله وجهاً لوجه من غير وسطاء. وهذا ما رآه المسيح أيضاً.

وعلى مدى تاريخهم كله، لم يعرف السيخ سوى عشرة غورو. وقد بشر هؤلاء بالتعاليم وكل منهم يسلم الراية لخليفته. وفي القرن 17م، أدخل الغورو الأخير (هافيند سينغ) إصلاحات على التعاليم، وأجرى تغييرات على البنية التنظيمية للطائفة. فقبل هافيند سينغ كانت السلطة في الطائفة بين يدي الغورو. ولكن ابتداء من العالم 1699م، انتقلت السلطة فيها من الغورو إلى «أخوية الأنقياء» (هالسيه). وكانت الأخوية تتألف من أكثر الأعضاء غيرة على الدين، أولئك المستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل الطائفة. وكان هؤلاء ينتخبون انتخاباً. ولذلك لم يعيّن الغورو العاشر خليفة له، فتوقفت سلسلة الغورو الأحياء. لقد نقل هافيند سينغ السلطة إلى «أخوية الأنقياء» - الهالسيه ودخل هو نفسه قوامها.

ومنذ زمن من الغورو الخامس سيقت تعاليم السيخ كلها في كتابهم المقدس، «أدي هرانته» (الكتاب البدئي). ثمَّ تكامل الكتاب في عهود الغورو الآخرين. فادخلوا إليه الأناشيد المقدسة التي أنشأها الغورو كلهم، ودخلته أيضاً أناشيد كثير من البهاكتي والصوفيين. وقد دوّن الكتاب بلغة البنجاب، إلا أنه يتضمن إضافات بلغات شعوب الهند الأخرى.

وبعد أن انتقلت السلطة من الغورو إلى «أخوية الانقياء»، اكتسبت قراراتهم قوة القانون، إذا ما اتُخذت بوجود الكتاب المقدس (أدي هرانته) فتلك القرارات كانت مقدسة. وكانت الطائفة كلها تنتخب الأكثر غيرة، وإيماناً، ونقاء من بين أعضائها، لعضوية «أخوية الأنقياء». ومع أن قرارات هؤلاء كانت ملزمة لجميعهم، إلا أن القرارات التي كان يتخذها اجتماع الأعضاء كلهم، كانت هي القرارات الأكثر أهمية. لقد كان الاجتماع العام لأعضاء الطائفة يعيّن أعضاء الجنة الخمسة، وكان من حقه عزلهم. وما يذكر في هذا السياق، أن العدد خمسة عدد مقدس عند السيخ. لقد كانت حياة الطائفة منظمة وفق قواعد ومعايير مدروسة. وكان طقس التكريس في عضوية الطائفة يشبه إلى حد ما، طقس المعمودية عند المسيحيين. فعندما كان أحدهم ينضم إلى الطائفة، كان يضاف إلى اسمه اللقب العسكري عند السيخ (أسد)، أما إذا كان العضو الجديد أنثى، فيضاف إلى اسمها لقب لبوة (كارد). لقد كان على أعضاء الطائفة أن يلتزموا مجموعة قواعد سلوك خاصة حملت اسم، «الكا - k الخمسة»: كان على كل عضو من أعضاء الهالسيه أن يحمل معه خنجراً (كيربان)، وهذا هو «k» الأولى. وسواراً حديدياً (كارا)، وهو «k» الثانية. وشوالاً جلدياً قصيراً (كاتشخا)، وهو «k» الثالثة. وكان عليهم أن يحلقوا شعر رؤوسهم ولحاهم «كيش)، «k» الرابعة. وتثبيت الشعر تحت العمامة بمشط (كانغها)، «k» الخامسة. ولا يزال السيخ يلتزمون هذه القواعد حتى يومنا هذا. والحقيقة أن فريقاً من السيخ لا يحلق اليوم شعر رأسه، بينما فريق آخر يحلقه. وكان الأوائل قد دعوا أنفسهم كيشدهاري، أي «حاملي الشعر»، بينما يدعى الآخرون (ساهاد جدكاري) وحرّم أعضاء طائفة السيخ الخمرة، والتدخين، وتعاطي المخدرات. والانتماء إلى الطائفة طوعي وعن سابق وعي.

وترفض الديانة السيخية تعدد الآلهة الذي تتصف به الديانة الهندوسية. فالإله عند السيخ واحد أحد، مع أن له أسماء كثيرة: الله، شيفا، فيشنو، براهما. فليس للإله اسم واحد خاص به وحده. وحسب تصورات السيخ أن الإله يقع في حالتين: ظاهرية وباطنية. ويتحول الإله إلى الحالة الظاهرية كي يتسنى للإنسان أن يدركه. ولكن الإنسان نفسه باطني دوماً. وهو لا يظهر إلا عبر أعماله. والإله الباطني إله كلي القدرة، أزلي، على الرغم من أن العالم الذي خلقه عالم

متغير وإلى زوال. إنه موجود في الحاضر، وموجود في الماضي، وسوف يكون موجوداً في المستقبل. وهو موجود من غير بداية، خارج الزمن، خالد لم يلده أحد. ويحيّي السيخ أحدهم الآخر بالكلمات التالية: «حقاً خالد». وخلافاً لآلهة الهندوس، لا يتخذ إله السيخ وجهاً ظاهراً قط. ولذلك يرفض السيخ رفضاً قاطعاً تصوير الإله في صورة إنسان.

وتقر تعاليم السيخ، كما تعاليم البوذية والهندوسية، بأن الإنسان يعبر سلسلة من الولادات لا نهاية لها. وترتبط هذه السلسلة بفضائل الفرد المعنى وأعماله التي أتى بها في حياته الدنيا. لكن هذه السلسلة أقصر عند السيخ منها عند البوذيين والهندوس. فالسيخ يعتقدون أن كل سيخي مؤمن يستطيع أن يقطع هذه السلسلة وينال انعتاقه الروحي والمادي كاملاً. بمعنى آخر أنه يمكن للسيخي المؤمن أن يقترب من الإله إلى الحد الأقصى. ويرى كل سيخي مؤمن أن أكثر أهداف حياته سمواً، هو إدراك الإله. ولا يمكن أن يدرك الإله إدراكاً تاماً إلا عبر الاستغراق المطلق فيه، عبر التلاشي فيه. وإذا ما حصل هذا، فإن سلسلة الولادات تتوقف. وكان ناناك قد صاغ الموضوعة الأساس للإيمان السيخي بالإله على النحو الآتي: «ينبغي أن يكون الآلهة في قلب الإنسان، وهذا هو الأمر الرئيس». وهذا عينه ما قاله المسيح مراراً وتكراراً.

ولكن كيف السبيل إلى إدراك الإله؟ إنه الاستغراق في التأمل الذهني. وإذا ما نجح المؤمن في تحقيقه، فإنه يستطيع عندئذٍ أن يسمع الإله كما يسمع موسيقى ساحرة «صامتة». وليس هذا الاهتزاز سوى الوحي بعينه. ويساعد على إدراك الإله تكرار ذكر اسمه مرات كثيرة. وللإله أسماء كثيرة، مع أنه واحد. بيد أن أسماءه الرئيسة ترتبط بكلمة «حقيقة». ويدرك السيخي الرائد الإله بمساعدة مرشده الإلهي: الغورو. فهو الذي يحمل الحقيقة الأسمى، فالمعلومة تصل إليه من لدن الإله نفسه. وليس من قبيل المصادفة أن يدغم بعض النصوص السيخية المقدسة، الغورو بالإله نفسه. ويؤدي صوت الإله دور الغورو في غالب الأحيان. لكن الغورو يبقى وفق المفهوم المعتاد، مرشداً روحياً. ويؤمن السيخ بوجود الكارما، قانون الأسباب والنتائج. فمصير الإنسان يتحدد بما يأتيه من أفعال الآن، وبما أتاه منها في حيواته الماضية. ويجب على كل إنسان أن يؤدي واجبه (دهارماه). وواجب كل إنسان، هو أن يحيا حياة مليئة بالحيوية والنشاط والعمل المثمر. إن عليه أن يؤدي واجبه كرب منزل. ومن المفيد أن نذكر في هذا السياق، أن رؤية السيخ هذه تعطي ثمارها في الحياة الواقعية: مع أن السيخ قليلو العدد نسبياً، إلا أنهم يشغلون مكانة مرموقة في حياة البلاد.

ولكي يتمكن الإنسان من إدراك الإله والاتحاد به، ينبغي عليه أن يسير في طريق محبة الإله، والإيمان، والإخلاص له. إن عليه أن يمعن التفكير في أعمال

الإله. وغني عن البيان أنه يجب على الإنسان أن يبلغ هذا كله لكي يتخلص من عيوبه. والعيوب الأساسية الأثقل وطأة، هي خمسة عيوب: الغضب، والغطرسة، والطمع، والولع، والتشبث بمغانم الدنيا.

ولكن التعاليم السيخية لا ترى في شؤون الدنيا خدمة للإله. فالزهد والتنسك ليسا ضروريين، وليس هذا وحسب، إنما يخالفان قوانين الطبيعة، قوانين الإله. ولا يحتاج الإنسان إلى وسطاء، أي إلى كهنة، لكي يتواصل مع الإله فمثل هذا التواصل ينطلق من القلب إلى الإله مباشرة.

وعلى ضوء ما تقدم، تبدو أهمية رفض نظام الكاستات بالنسبة للديانة السيخية واضحة جداً. وكيف يمكن تبرير وجود الكاستات إذا كنت تؤمن بإله واحد عادل. إذ ينبغي أن يكون كلهم سواسية أمام الإله، وفق المنظور السيخي. ولذلك فهم لا يقرون نظام التقسيم الكاستي للمجتمع. أما فيما يخص إقامة شعائر الخدمة الإلهية، فقد كان الغورو ناناك كرس مبدأ حضور السيخ كلهم مواعظ الغورو، والمشاركة في إنشاد الأناشيد الإلهية، وكرس الغورو الثالث أمارداسي تقليد إقامة الولائم الجماعية. وكان أعضاء الطائفة يجلسون صفاً واحداً ويتناقلون من يد ليد كأساً مليئة ماء.

كما انعكس رفض السيخ للكاستات في شكل بناء معابدهم: لكل معبد أربعة مداخل، وهو عدد الفئات. ويرمز هذا إلى انفتاح الديانة السيخية على أعضاء الكاستات كلهم.

وفي معابد السيخ يؤدي كتاب «أدي هرانته» دوراً رئيساً. ففي كل صباح، على مر الزمن، يضعون هذا الكتاب هناك حيث يبقى حتى المساء. وفي المساء يطبقونه ويحملونه بالوقار عينه، إلى المكان الذي يبيت فيه. ويُقرأ «أدي هرانته» دوماً، لكن في المعابد فقط. ومثلها مثل الديانات والمعتقدات الدينية الأخرى كلها، تتوزع ديانة السيخ على كثرة من الحركات والمجموعات المذهبية. لكننا لن نتحدث هنا إلا عن جماعة النيهانغي. وتتألف هذه من أعضاء أخوية خاصة يرتدي أفرادها ملابس زاهية صفراء - زرقاء اللون. ولا يخافون الموت، ولذلك فهم مقاتلون شرسون غير هيّابين. ومدججون بالسلاح دوماً ولا يخافون أن يقتلوا. ويحظى هؤلاء باحترام الناس، كما إن هؤلاء يخافونهم. فإذا ما بدرت عنك أي إشارة تعبر عن الاستهانة بهم، فإنك قد تخسر حياتك بسبب ذلك. ويضع هؤلاء على عماماتهم العالية حلقات معدنية حوافها حادة كالشفرة. وهم يلفون هذه الحلقة عند الضرورة، على إصبعين ويقذفونها بطريقة تجعلها قادرة على اختراق الرأس. ويعيش هؤلاء السيخ عيشة تشرد وصعلكة. فليس لهم عائلات، أو

عمل ما يعيشون منه، بل يعيشون على الصدقات التي يتلقونها لا بدافع الإحسان فقط، إنما بدافع الخوف منهم واتقاء شرهم.

ومن المعروف أن كل تعاليم دينية تتراجع مع الزمن عن مصادرها البدئية. وينسحب هذا على التعاليم السيخية أيضاً. وفي طور معيّن يظهر مصلحون يحاولون العودة بالتعاليم إلى صورتها البدئية، وتنقيتها مما شابها من زيادات وتغيرات. وفي أوائل القرن 19م، ظهر مثل هؤلاء عند السيخ، وقد دعيت حركتهم بحركة المذهب الصارم، وبمعنى أدق، حركة «حاملي اسم الإله». وإذا توخينا الدقة أكثر، فإن اسمها معناه حركة «الوحيدين الذين يحملون اسم الإله بحق». ويحاول هؤلاء إعادة سيخ اليوم إلى البساطة التي دعا إليها يوماً ناناك، مؤسس الديانة السيخية. ولذلك لا يرتدي هؤلاء سوى الثياب البيضاء. وعمامات ذات زاوية حادة غير منمقة. وهؤلاء قوم مسالمون، يرفضون العنف، ولا يحبون الصخب، وليسوا سريعي الغضب. زد إلى هذا أنهم نباتيون، ولا يقربون الخمرة قط. ولهؤلاء السيخ سلالتهم الخاصة من الغورو الأحياء، وهم لا يعتقدون بأن سلسلة الغورو الأحياء قد انقطعت عند موت الغورو العاشر، بل هي متواصلة. وينقل غوروهم رسالته إلى خليفته بالوراثة. ولا يعقد سيخ هذه الحركة قرانهم إلا على أرض السيخ المقدسة: البنجاب، وليس في أي مكان آخر.

ويصل عدد أفراد طائفة السيخ في الهند اليوم إلى نحو 17 مليون نسمة. ويشغلون المرتبة الرابعة في البلاد من حيث عدد السكان، بعد الهندوس، والمسلمين والمسيحيين.